الولد الشقي

محمود السعدني

الولد الشقي

تأليف
محمود السعدني

هنـــداوي

الولد الشقي

محمود السعدني

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: ولاء الشاهد

الترقيم الدولي: ٩ ٣٢١١ ٥٢٧٣ ١ ٩٧٨

صدر هذا الكتاب عام ١٩٩٠.
صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٣.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف محفوظة لمؤسسة هنداوي.
جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي محفوظة لأسرة السيد الأستاذ محمود السعدني.

المحتويات

مقدمة	٧
١	٩
٢	١٥
٣	١٩
٤	٣٧
٥	٤٥
٦	٥٣
٧	٦٧
٨	٧٥
٩	٨٣
١٠	١٠٩
١١	١٢٥
١٢	١٣٧
١٣	١٤٩
١٤	١٥٧
١٥	١٦٣
١٦	١٧١
١٧	١٧٧

مقدمة

في هذا الكتاب ستقرأ أسماء وهمية وأحداثًا وقعت بالفعل. وهي أحداث لم يكن لي أي فضل في تأليفها، ولكنني ذكرتها كما حدثت وصوَّرتُها كما وقعَت بلا رتوش. وهذا الكتاب ليس قصة الصحافة، ولكنه قصة اشتغالي بالصحافة! وإذا كنت قد خضت خلال رحلتي في الصحافة، خرائب ومتاهات وصناديق قمامة، فالذنب ليس ذنب الصحافة، ولكنها الظروف والمرحلة التاريخية التي عاصرتها ثم حظِّي التعيس في النهاية.

وللإنصاف والتاريخ أقول إنه رغم اللوحة المُظلِمة التي رسمتُها في هذا الكتاب فقد كانت هناك نقط بيضاء ومضيئة وباهرة، إلى جانب الأخ علوي السمين كخنزير برِّي، الغبي كفحل جاموس منوفي، كان صحفيون بالمئات يدخلون السجون دفاعًا عن رأي، والتزامًا بمبدأ، وإلى جانب مجلة السحاب الرخيصة، كانت صحف بالعشرات تُغلَق وتُصادَر، وكُتَّاب يطاردهم البوليس كما يُطارد السَّبْع الجائع غزالًا شاردًا في غابة. ورغم كل شيء فقد كان جيش الأمة المُسلَّح بأقلام وأوراق هو الذي ثار ضد النظام الملَكي قبل أن يتحرَّك جيش الأمة المُسلَّح بمدافع وبنادق ليهدم النظام من أساسه ويخلع الملك من فوق عرشه.

ورغم كلِّ شيءٍ ستظل الصحافة المصرية تفخر بعشراتٍ من نجومها اللامعين، هؤلاء الذين تحوَّلَت الأقلام في أيديهم إلى مدافع، وتحوَّلَت الجرائد على أيديهم إلى ساحات قتال. من عبد الله النديم إلى مصطفى كامل إلى الشيخ علي المؤيد إلى لطفي السيد إلى طه حسين وعباس العقاد إلى الدكتور محمد مندور، إلى كوكبة الصحفيين الشبَّان الذين يمثِّلون مكان الصدارة في صحافة جيلنا الحاضر.

وعلى أية حال، فهذا الكتاب ليس تاريخًا وليس تسجيلًا، ولكنه مجرَّد خواطر وانطباعات وذكريات حزينة ومريرة عن فترةٍ من أعنف فترات مصر وأكثرها قلقًا واضطرابًا وازدهارًا وطموحًا ورغبة في تجميل الحياة.

وإذا كانت سطور الكتاب مريرة، فلأنها الحقيقة، وليس أوجَع من الحقيقة، وليس أشد إيلامًا منها على النفس!

محمود السعدني

١

وهكذا أصبحتُ صحفيًّا ... فذات صباح مبكِّر من عام ١٩٤٦ خرجتُ من الجيزة أسعى وراء طوغان الذي كان قد سبقَني وجرَّب حظَّه في صحف ومجلات كثيرة أغلقَت كلُّها أبوابها! خرجتُ أسعى خلفه ببنطلون مجفَّف أخفَت الجاكتةُ عَوْرته، وجاكتة كاروهات كانت في الأصل بطانية ... وكل عُدَّتي قلم حبر رخيص، وكشكول فيه بعض الأزجال. وأوَّل هذه الأزجال كان عن عسكري الدَّوْرية. هذا البُعْبُع أبو شنبات الذي هو مفروض أن يكون حارسًا على الطريق فإذا به قاطِعه!!

ومنذ اللحظة التي بدأتُ أتحرَّك فيها قاصدًا عالَم الصحافة كانت في ذهني فكرة لم تستطع التجارب والأيام أن تمحوها من ذهني. فكرة استقرَّت في عقلي بفضل مقالات التابعي والصاوي وفرج جبران!

فكرة أن الصحافة صاحبة جلالة وأن لها بلاطًا، وأنها حفلات ورحلات ونجم صحفي مشهور يكتب وهو جالس على كرسي في مقهًى أنيق في الشانزلزيه، ونسوان كما القشطة الصابحة تُعاكسه وتُباكسه وتجري وراه ... وزعماء يستيقظون في الليل على هدير صوته، ووزارات تسقط تحت هَوْل كلماته، وعدل يقوم وظلم يندَكُّ بفضل توجيهاته وتعليماته، وغَضْبة عَنْترية قد تؤدي بالأستاذ إلى السجن ... ثم يخرج بعد أربعة أيام ليحكي للناس قصة كفاحه العظيم داخل الزنازين الباردة.

ولكن منظر الصحف التي طرَقْنا أبوابها لم يكُن يُطابق صورة الحلم الذي في أذهاننا! مجلَّات في العتبة وشارع محمد علي وفي عابدين اسمها الخميس والكوكب والشهاب المضيء.

ولقد كنتُ أتخيَّل أن وراء الجدران يعيش العشرات من رهبان الفِكر وحملة الأقلام وأصحاب القضية ... ولكن من النظرة الأولى على مَن كانوا داخل هذه الجدران شعرتُ

بمدى بؤس هؤلاء الناس وفقرهم ... ولكن نظرتي الأولى إليهم لم تكُن كافية لأنْ أتخلَّى عن فكرتي القديمة عنهم كرهبان رأيٍ وأصحاب قضية!

ولقد دختُ وراء طوغان دوخة الأرملة الوحدانية. واستطاع هو أن يشقَّ طريقه بسرعة لأنه كان يحمل بضاعة تختلف ... فبينما كان هو يبرز لهم رسومًا ... وهي عملية لا يستطيع كل إنسان أن يصنع مثلها، كنت أحمل أنا بضاعة مغشوشة ... لأنها هكذا هي مهنة الكتابة ... فكل إنسان يستطيع أن يكتب، وكل كتابة هي مثل الأخرى، لولا بعض الفروق. ولكي نكتشف الفرق فلا بد من ميزان كميزان الذهب هو الذي يحدِّد أي الكتابات أنفع وأبقى!

ولكني في النهاية ورغم ذلك وصلتُ! فرحلة طولها ألف ميل تبدأ بخطوة واحدة ... ورحلتي لم تكُن ألف ميل ولكنها كانت سبعة أميال فقط، من بيتنا إلى شارع الخليج المصري، وفي دكَّان في بيتٍ كان يومًا ما إسطبلًا لحمير أحد المماليك البحرية، ومن هذا الإسطبل بدأنا أول عمل صحفي.

كانت المجلة اسمها الضباب، وكان صاحبها كامل خليفة يرحمه الله عامل طباعة استطاع في أيام سطوة البوليس السياسي استخراج رخصة صحفية باسمه، ولم يكُن للصحيفة موعد محدَّد للصدور، وكانت معروضة دائمًا للإيجار كأنها شقة مفروشة. وكان يتصيَّد زوَّار مصر من البلاد العربية لينشر لهم صورًا على طول الصفحة، و«نبذة» عن تاريخ بلادهم وفصولًا عن كفاحهم ... وكان يسترزق من هذا العمل بما يكفيه. وكان هؤلاء الضيوف من التَّفاهة وقِلَّة القيمة لدرجة أنهم كانوا يشعرون حقًّا بالسعادة لأن صحف مصر قد الْتَفتت إليهم!

واستأجرنا مجلة الضباب من كامل خليفة، وأصدرنا منها عدة أعداد رافعين عليها شعار: «مجلة الشباب والطلبة والجيل الجديد» وأخذنا كارنيهات من المجلة بتوقيع كامل خليفة. كارنيهات تقول إن العبد لله محرِّر (كذا) في الجريدة، وقد وقَّعَ كامل خليفة باسمه تحت عنوان كبير «المدير العام»!

ولقد كان كامل خليفة نموذجًا لمئات وألوف من الناس كان يزخر بهم العصر، كان شديد الجهل شديد الذكاء ... وكان كثير المشاكل يسكن مع عائلته الكبيرة في بيت حكر بالقلعة!

ورغم أنه كان يكسب كلَّ يوم خمسة جنيهات فإنه كان ينفق كلَّ يوم أربعة جنيهات على المزاج. فقد كان مُدمن حشيش، وكان يدخِّن باستمرار ويستحلب الأفيون كلَّ لحظة،

ويحتسي فناجيل القهوة بلا حساب، وكان يبدو وكأنه يرغب في أن يغيب عن الوعي إلى ما شاء الله.

وكان فَهْمُه السياسي ينحصر في الخلاف بين علي ماهر والسراي ... وفي التعديل الوزاري القادم ... وكان هو دائمًا مستعدًّا لكل تعديل وزاري، لا ليسير في ركابه كما تظن!! ولكن لسبب تافه للغاية ... فقد كان كامل خليفة يحصل على إعلانات حكومية للصحيفة بخمسين جنيهًا كل شهر. وكان هذا المبلغ هو مورده الثابت، ولذلك كان دائمًا شديد الحرص عند كل تعديل وزاري على أن يعرف مَن هو مدير المطبوعات الجديد، فإذا كان رجلًا سبقَ له التعامل معه، بدا شديد السعادة والرضا، وإذا كان شخصًا لا يعرفه، عاش في همٍّ شديدٍ وقلق بالغ، حتى يقرِّر الرجل استمرار صرف مقطوعيته من الإعلانات الحكومية، وعندئذٍ يعود سيرته الأولى إلى دكَّان الصحافة، يلف سجاير الحشيش ويستحلب قطع الأفيون، ويحتسي فناجيل القهوة بلا حساب!

وعرفت عم كامل عن كثب، وكان إذا الْتَقى بضيوف في المجلة بدا أمامهم كأنه أحد صُنَّاع السياسة المصرية في تلك الفترة من الزمان. فإذا خلا لنفسه بدا على حقيقته: مجرَّد يائس ... شديد القلق شديد الفلس، دائم البحث عن مورد جديد لأكل العيش.

ولقد أدَّت به هذه الرغبة المجنونة إلى ارتياد الطريق الصعب. فسرعان ما اكتشفتُ أن صحيفة عم كامل هي مأوًى لعشرات من النصَّابين والمحتالين ... ولكنهم — والحق أقول — أبرَعُ مَن عرفتُ من هذا النوع من الناس، وأنهم جميعًا أصحاب مواهب وذوو إرادة، ولو أُحسِن تربية هؤلاء الناس وتوجيههم لكان لبعضهم شأن عظيم.

ولقد الْتَقيتُ في هذه الصحيفة بالرجل الذي باع الترام، ونصَّاب آخَر خفيف الدم شديد الذكاء اسمه عسَّال! وهو فنَّان نصَّاب؛ لأنه يحسُّ وهو ينصب بنفس النشوة التي كان يشعر بها تشيكوف أثناء كتابة قصة، وبنفس السعادة التي كان يشعر بها رمسكي كورساكوف وهو يؤلِّف شهرزاد.

والحق أنه كان يعزف وهو ينصب، ولم تكُن هذه الفئة كلها تتجه في نَصْبها على الفلاحين أو الفقراء، ولكنها كانت تنصب على فئة الخواجات والحُكَّام وأصحاب النفوذ، وكانت الفكرة بسيطة، تذاكر مذهبة لحفلة خيرية تحت الرعاية السامية الملَكية، ونصَّاب عامل يستعينون به، أي أنه نصَّاب ليس له حصة في عملية النصب، ولكن له أَجْر يومي يتقاضاه سواء نجحت العملية أم فشلت.

وكان هذا النصَّاب العامل يرتدي زيًّا خاصًّا كسعاة البنوك، وكان يعتني بمظهره وهندامه عنايةً كبرى؛ لأنها كلُّ رأس ماله في الحياة. وكان يستعمل موتوسيكلًا في مشاويره،

وكان دور كامل خليفة في العملية هو طَبْع التذاكر، فإذا انطبعت تولَّى أحدهم الاتصال بأصحاب الشركات في التليفون «آلو ... محلات عمر أفندي، أنا علي ماهر باشا، صباح الخير يا خواجا، فيه حفلة في الأوبرج تحت الرعاية الملَكية، أيوة هانبعت لك عشر تذاكر، التذكرة بعشرة جنيه، شكرًا.»

وكانت هذه العمليات تُجرَى في حجرة خشبية ليس بها سوى مكتب وتليفون، وكثيرًا ما كان النصَّاب الأجير يقع في يد البوليس، ولكن النصَّابين الكبار كانوا دائمًا في أمان، وحتى إذا سقطوا في يد العدالة بشهادة النصَّاب الغلبان كانوا سرعان ما يُطلَق سراحهم لعدم توافُر الأدلة!

وأغرب شيء أن هؤلاء الناس كانوا مُطارَدين من البوليس الجنائي، وكانوا في الوقت نفسه على صِلات طيِّبة بالبوليس السياسي؛ فهم يتحرَّكون في قِطاع عريض من الحياة. ولهم صِلات وَطيدة بالمطابع، وهي صِلات تجعلهم يتعرَّفون على طابِعي المنشورات السرية من الطَّلَبة والعُمَّال. ومعلوماتهم في هذا المجال ذات فائدة عظمى!

وذات مساء قُدِّر لي أن أهجر صحيفة الضباب إلى غير عودة، لقد ألقوا القبض على كامل نفسه في عملية نصب من هذا النوع، وجاءت زوجته تصرخ عند الدكَّان وتلطم، ولكن أخبار كامل لم تنقطع أبدًا عنِّي.

وفي أعوام الثورة الجزائرية الأولى عُثر على شخص هارب من ليبيا، وكأنما عُثر على كنز لا يفنى، واستطاع كامل ومعه الليبي الهارب أن يسبِّبا متاعب لا حدَّ لها للثورة الجزائرية.

فقد ادَّعى الليبي الهارب (واسمه مسعود) أنه جزائري محكوم عليه بالإعدام، وأصدر كتابًا عن كفاحه وجهاده في الثورة، واستطاعوا أن يبيعوا من هذا الكتاب عشرة آلاف نسخة، كل نسخة بخمسة جنيهات.

وسافر مسعود بكتابه إلى الكويت والأردن والسعودية، وفي النهاية مات مسعود وحيدًا في مستشفى القصر العيني!

والْتَقيتُ بكامل خليفة بعد ذلك ولآخِر مرَّة منذ عشرة أعوام عندما جاءني يطلب منِّي أن أبحث له عن عمل في دار صحفية كبرى، ولم يحضر بعد ذلك، ولم أبحث له أنا عن عمل، ثم عرفت بعد ذلك أنه مات ... يرحمه الله!

ولم يبقَ من هذه الصحبة إلا عم عسَّال، ولا يزال على قيد الحياة، وهو رجل قادر على أن يصبح أي شيء في أي لحظة، فهو تاجر وأحيانًا طبيب، وأحيانًا صاحب شركة.

وذات مرة أصدر صحيفة أسبوعية كبرى اشتغل فيها عدد من الصحفيين اللامعين اليوم، ولقد رأيته ذات مرَّة في حفل دعَتْ إليه هيئة التحرير في بداية تكوينها، وكان يرتدي زيًّا باكستانيًّا باعتباره من كبار المسلمين في دكا وقد جاء ليهنئ بنفسه!!

وقصص ومغامرات عسَّال تصلح أفلامًا ولا أفلام جيمس بوند؛ فقد افتتح عيادة في إحدى قرى الريف وأجرى عمليات لعشراتٍ انتهَتْ كلها بالوفاة، وأخذ أَجْر العملية وأخذ رشوة من أهل الميِّت نظير أن يمنحهم الجثة لدفنها بدون تشريح!

ولقد خرجتُ من تجربتي الأولى في الصحافة بحسرة، وفقدتُ تلك الصورة الزاهية الألوان عن صاحبة الجلالة وبلاطها، وأدركتُ أن البلاط هو الواجهة، ولكن في القفا بدرونات ومزابل ومطابخ ذات رائحة عفنة.

ولم يمُرَّ وقت طويل حتى صدرت صحيفة نداء الوطن، أصدرها ناظر مدرستي القديمة، مدرسة المعهد العلمي الثانوية، وكان قد أصبح نائبًا على مبادئ الهيئة السعدية، وكان رئيس التحرير يُدعى مختار ... وكان شديد المهابة شديد الاحترام ... أهم ما يميِّزه خمسة أقلام حبر أنيقة يضعها في جيوب جاكتته بشكل بارز.

ولقد رأى مختار أنني صغير السِّن إلى درجة أنني لا أصلح للكتابة، وعندما اصطدمتُ به فصَلَني صاحبُ الجريدة، وبعد أعوام قليلة من هذا الحادث عرَضَ رئيس تحرير مجلة مسامرات الجيب بعض مقالات مختار على العبد لله لأُبدي الرأي النهائي فيها!

٢

وخرجتُ من نداء الوطن وعدتُ أسرح خلف طوغان من جديد، وكان المشوار هذه المرَّة إلى مجلة الكشكول، وفي هذه المجلة الْتَقيتُ برجل من طراز عظيم، ولقد احترمتُه في أول لقاء — وما زلتُ أحترمه — كان اسمه محمد حمدي. وكان سمينًا وطيِّبًا وفي رأسه أحلام كثيرة، وكان دائم الحديث عن مشروعات ضخمة ودُور صحف تُقام، ومُرتَّبات بمئات الجنيهات، ونُسَخ بالملايين والبلايين، وكان ساحر الحديث يستطيع أن يقنع حتى الصخور وحتى الحمير! ولكن عند التجربة، كان حمدي يرحمه الله يسقط دائمًا، ولذلك اكتفى خلال رحلة حياته بإصدار الأعداد الأولى من الصحف الجديدة، ثم الاستقالة لإصدار مشاريع جديدة!

ورغم استقالة محمد حمدي فقد بقيتُ أنا في الكشكول، فقد كان على رأس الجريدة رجل طيِّب يُدعى سعيد إسماعيل، وكان سعيد على علاقة بالإخوان المسلمين، ولكنه كان صاحب مزاج! ولقد أرادوه درويشًا من دراويش الإخوان فأصبح درويشًا من دراويش الحياة ... ولقد بقيتُ في الكشكول ثلاثة شهور نشرتُ فيها أزجالًا ومقالات ثم أُغلِقَت أبوابها، وشعرت بالحزن الرهيب فقد كان وقتًا قصيرًا كالحلم ... ولكن فقدتُ فيه أعظمَ منبرٍ وقفتُ عليه تلك الأيام!

وعُدتُ من جديد أسعى وراء طوغان، وفي هذه المرَّة كان السَّعي إلى مجلة الوادي، وكان زكريا الحجاوي صديقنا القديم قد سبقَنا إلى مجلة الوادي، وفي اللحظة التي وقعَ فيها بصري على زكريا في المجلة، أدركتُ وأنا شديد الحسرة أن زكريا الحجاوي لا يصلح لهذه المهنة، ولا يصلح لمنصب المدير!! فلقد تخلَّى زكريا الحجاوي عن رداء الفنَّان الذي يصلح له ودخلَ في ثوب المدير، وراح يتكلَّم بحسابٍ ويُومئ بحساب، ويكبس الطربوش بعناية وهو داخل إلى مكتب رئيس التحرير!

وفي الوادي الْتَقيتُ بكثيرين: خليل الرحيمي، وأحمد عباس صالح، وعمر رشدي، وعبد الفتاح غبن، وآخَرين، وكانت الكتابة هي العُملة السهلة في مجلة الوادي، ولكن الأَجْر كان أصعب من الإسترليني والدولار!

ولم ألبث أنْ أصابني يأسٌ قاتل، هذه هي الصحافة؟! وذلك هو بلاط صاحبة الجلالة؟! خير منه الأسفلت والرصيف ... وتركتُ كلَّ شيء فجأةً وعُدتُ من جديد إلى حواري الجيزة وشوارعها، إلى قهوة مَرْعي أحيانًا وقهوة أمين أحيانًا، وها أنا ذا أقف وحدي الآن في الحياة وكل شيء يمضي من حولي، فلا تلميذ أنا أصبحت، ولا موظف أنا أكون، ولا صحفيًّا أنا استطعت، ولا رغبة عندي في التلمذة، ولا رغبة في الوظيفة ولا مشاريع جديدة في بلاط صاحبة الجلالة!

وأصدقاء الطفولة الذين كنتُ قد تركتُهم خلفي في الجيزة تبدَّدوا جميعًا وراح كلٌّ منهم بأسلوبه يصارع الحياة، بعضهم استطاع أن يتلاءم مع ظروفه، وبعضهم استطاع أن يتلاءم عليها! ولكن أنا وحدي الذي لم أستطع أن أتلاءم معها، ولم أستطع أن أتلاءم عليها، فوقفتُ وحيدًا كما خيال مآتة مرشوق في بطن الأرض وسط حقل من الضياع والفشل والهوان!

واعترتني تلك الأيام لحظات يأس عنيفة، وفكَّرتُ أحيانًا في الانتحار، وشرعتُ ذات مرَّة في تنفيذ ما عزمتُ عليه، وذهبتُ إلى شاطئ النهر ووقفتُ أتفرَّج على التيار، كنت أحمل في يدي كرَّاسة قديمة جلدتها صفراء وبالحبر الشيني كتبتُ على الجلدة: «مسافر بلا وداع. مجموعة قصص مصرية تأليف الكاتب المشهور محمود السعدني. حقوق الطبع محفوظة للمؤلف.»

وكنت قد كتبتُ خلال بداية فترة الصياغة مجموعة من القصص القصيرة وكانت أول قصة فيها قصة جندي سافر إلى الحرب ولم يعُد، وجُنَّت أمه ووقفَتْ تنتظر عودته كلَّ مساء، ولكن القطار كان دائمًا يدخل إلى المحطة في المساء دون ابنها، ومع ذلك ظلَّت تذهب إلى المحطة وتنتظر، وذات مساء حضر القطار وفيه ابنها، ولكنها تعثَّرَت وسقطت تحت عجلات القطار في نَفْس اللحظة التي كان الابن الغائب يقفز من القطار إلى رصيف المحطة، وماتت الأم دون أن يراها ودون أن تراه.

قصة كنت معجبًا بها غاية الإعجاب، لأن أصدقائي كانوا يستمعون إليها بإعجاب وحماس، ولعلَّ السر في ذلك هي أنها كانت على طريقة «يوسف وهبة» في تأليف الروايات! وفكَّرتُ في أن أخلع ملابسي وأتركها عند الشاطئ ليعرف الناس أن شخصًا ما قد غرق

في هذا المكان. وفكَّرتُ أيضًا في أن أضع الكرَّاسة فوق الملابس لكي يعثروا عليها فتنشرها الجرائد والمجلات، وإذا كنتُ أنا المؤلف لم أستطع الحياة، فلا أقل من أن تُوهَب الحياة لهذه القصص التي هي من صميم الحياة! أو هكذا كنت أعتقد تلك الأيام!

وأذكر أنني بكيت وأنا واقف عند الشاطئ أتأمَّل الأمواج والتيار، وقلت في نفسي وأنا أنظر إلى الحياة تموج من حولي: يا للعار! هذه المدينة المُتَرَفة الجبَّارة التي يبعثر أهلها ألوف الجنيهات كلَّ ليلة على موائد القمار لا تستطيع أن توفِّر لي عشرة جنيهات كلَّ شهر هي كل ما كنتُ أتمنَّاه من الحياة؟!

ولكن في اللحظة الأخيرة خانتني شجاعتي، وكان الظلام قد حلَّ على الكون، وأصبح الشاطئ أكثر وَحْشة وأكثر كآبة! فأطبقت بشدة على الكرَّاسة وعُدتُ من جديد إلى قهوة السروجي لألعب الكومي كما اعتدتُ كلَّ مساء.

٣

وكانت قهوة السروجي في مواجهة بيت طوغان، وكانت شيئًا فريدًا بين مقاهي ذلك الزمان، كانت كل الكراسي من الخشب الزان والقش المجدول بعناية، وفي الجوانب تتناثر بعض الدكك ولكنها دكك تصلح للمتاحف ودُور الآثار، دكك من العهد المملوكي بالخشب الأويما والصَّدَف والعاج، وعلى حوافها آيات قرآنية وبعض الحِكَم والأمثال.

وكان عم السروجي نفسه رجلًا مُهابًا محترمًا قليل الكلام، طالت أيامه فأصبح فوق السبعين، ولكنَّ أحدًا لم يرَه أبدًا بعيدًا عن مكانه خلف الكيس والشيشة في يده، والخواتم تلمع بين أصابعه وهو جالس كعمدة من عمد الريف في جلباب كشمير وحذاء برقبة وصديري بلدي، والشيشة دائمًا في فمه وجمرات النار تتقد على دخانها العجمي بلا انقطاع، وكانت النصبة على يمينه ليتمكَّن من مراقبة الطلبات، وخلف النصبة حوض ماء تصب فيه حنفيتان، واحدة للماء الساخن والأخرى للماء البارد المثلج، وكان أغلب المارين في شارع عبد المنعم يقتحمون القهوة بلا إحم ولا دستور؛ ليشربوا الماء المثلج وكأنها سبيل أم عباس!

وكان المعلم السروجي يتصرَّف مع هؤلاء الناس بطريقة واحدة لا تتغير ... إذا كان المتطفل رجلًا نظر إليه نظرة جهنمية وقال: لا مؤاخذة ... الحنفية عطلانة، وإذا هجمَ على الحنفية قذفه بالماشة التي يُصلح بها النار في وجهه أو في رأسه، فيترك الولد المضروب الكوز ويجري خارجًا يصرخ ويترنَّح وكأنه كلب مسعور أصابَتْه طلقة في المليان.

وعلى مقهى السروجي تعرَّفتُ بعشراتٍ من النماذج البشرية ليس لها مثيل في الكون، عم سيد خلفاوي الذي كان يسرح في حواري الجيزة بقفص فراخ ليس فيه فراخ ولا كتاكيت، ولكن بظروف مقفولة يبيعها للتلامذة وللفلاحين القادمين من الأرياف، وما في داخل الظروف حق صاحب البخت والنصيب، رغم أن الظروف كلها كانت فارغة ولا

تحتوي على شيء، ولكنه بعملية نصب فيها شيء من المهارة وشيء من غفلة الزبون كان يُغري الناس بالإقبال على الشراء!

وكان عم سيد في نظر البعض محتالًا، ولكنه في نظر نفسه كان تاجرًا وصاحب مهنة تعتمد على المجهود الذهني والبدني، وكان شديد الإيمان بأنه لا يزال في بداية الطريق الذي سلكه عمر أفندي، وأنه لن يلبث أن يكون مثله عما قريب.

وكان سيد يكسب كثيرًا، ولكن أرباحه كلها تذهب أول الليل إلى خمَّارة جرانت، حيث كان يشرب السبرتو بشراهة، فإذا تبقَّى معه شيء من النقود جاء ليُقامر بها مع روَّاد قهوة السروجي في آخِر الليل! وكان غريمه دائمًا رجلًا أعرج يُشبه كثيرًا الشخصيات التي تزخر بها قصص جوركي، كان اسمه محمود وجاء الجيزة من حيث لا يدري أحد … وجاءها متسوِّلًا ثم استوطن بها والْتَحق بخدمة أسرة كانت تحتكر عربات الكارو، ولم يلبث أنْ أصبح عم محمود معروفًا في الحي وفي الجيزة كلها وذاعَ صِيته؛ لأنه كان يقرأ الفنجان ويفتح الكوتشينة.

ولم يمضِ وقت طويل حتى اشترى عم محمود قطعة أرض، وأصبح من الملَّاك ومن الزبائن المحترفين في قهوة السروجي، وكان النصر دائمًا في معارك الكوتشينة لعم محمود الهادئ، والفشل دائمًا لغريمه المتهيِّج المخمور؛ ولذلك كان الصياح دائمًا يتصاعد في الشارع آخِر الليل، وكان الصياح من الحِدَّة ومن الشدة بحيث يجذب عسكري الدَّوْرية، وأحيانًا كان ينتهي الحال بهما في مركز البوليس.

وعندما مات عم سيد ذات مساء قتيلًا ومخمورًا على الرصيف، انقطع عم محمود عن لعب الكومي، واكتفى بالجلوس بعيدًا وإسداء النُّصْح إلى المقامرين! وذات مساء هبط على قهوة السروجي رجل له كنبوش وبدلة متجلِّدة وحذاء في لون الطين، وكنت قد عرفتُ الرجل في مناسبات أخرى كثيرة سابقة، ولكن وصوله إلى قهوة السروجي كان كملاك الرب هبط على العبد لله من السماء.

جاء الرجل أبو كنبوش إلى مقهى السروجي ذات مساء، وكانت الليلة مُمطِرة ومُوحِلة وبَرْدُها قارس، وكان المعلم السروجي يجلس في مكانه المعتاد والشيشة في فمه يتطلَّع إلى الزبائن في سكون كأنه إله يرعى عبيده الطيِّبين، وعندما وقع بصره على الرجل أبو كنبوش انتفض واقفًا وصافحه بحرارة، وتخلَّى عن مكانه القديم وجلس معه وطلب واحد شاي ميزة مخصوص للبيه … وكان انتقالُ المعلم السروجي من مكانه والجلوس مع زبون على مقعد قشٍّ عاديٍّ حادثًا غير عادي في مقهى السروجي.

وسُرعان ما تهامَسَ الزبائن الموجودون تلك الساعة عمَّن يكون الزبون المحترم الذي شرَّف المقهى في هذه الساعة المتأخرة من الليل! وقال أحدهم: هو رجل طويل متين البنيان اسمه عم زكي، وكان تاجر خضار يسرح بعربة يد في شارع عبد المنعم، وكان أجش الصوت كثير العراك شديد البأس إذا خاض معركة في الشارع فتَكَ بكل مَن يقف في وجهه.

وكان عم زكي يؤكِّد أن سبب قوته الخارقة هو شغفه الشديد باللبن الزبادي ... وكان يقسم بأغلظ الأيمان أن جده مات بعد حياة طويلة امتدت إلى مائة وعشرين عامًا، وأنه تزوَّج من بنت عذراء وأنجبَ منها ولدًا قبل موته بعام واحد، وكان هذا الولد الأخير هو والد عم زكي ... وكان عم زكي رغم بأسه وقوته المفرطة يخاف على نحو خاص من عساكر البوليس ... وكان يحترم أي رجل له علاقة بالحكومة.

ورغم أنه كان بخيلًا بشكل ملحوظ فإنه كان يُنفق أموالًا طائلة؛ لكي يتعرَّف على مُخبر عُيِّن حديثًا في المركز، أو لكي يسهر ليلة واحدة مع الصول الذي يباشر مهمة الضابط النوبتشي ... لذلك همس عم زكي في أنحاء المقهى، فغادر المقهى أكثر من زبون، كان بعضهم يحمل مُخدِّرات معه، والبعض الآخَر كان لا يحرز أي شيء مخالف للقانون ... ولكنهم آثروا الانسحاب حتى لا يُعرِّضوا أنفسهم لأي خطر متوقَّع ... غير أن الرجل أبو كنبوش لم يكُن ضابط مباحث، ولم يكُن له علاقة بمركز البوليس ... فقد أشار المعلم السروجي نحوي، وهو يتبادل الحديث مع الضيف ... ثم دعاني للجلوس معهما.

وعندما قدَّمَه إليَّ ... اكتشفت أن اسمه علي، وأن البيه صحفي كبير كما أكَّد المعلم السروجي، وأضاف أن البيه يريد أن يقرأ شيئًا من إنتاجي تمهيدًا لتعييني في منصب كبير في المؤسسة التي يملكها ... وعندما أبرزتُ من جيوبي أوراقًا بها أزجال ... وقصص، ومقالات، اختار البيه عدة أوراق وراح ينظر في سطورها بعدم اهتمام، ثم هزَّ رأسه في النهاية وقال: عفارم عليك ... دي مقالة جامدة قوي! وقال المعلم السروجي في اهتمام بالغ: صحيح؟!

واستبدَّت بي الدهشة؛ لأن الشيء الذي قرأه البيه المهم لم يكُن مقالًا، ولكنه كان قصة قصيرة من صميم الحياة! ومع ذلك لم أتوقَّف عند هذه الملاحظة طويلًا، وظللتُ أكتب مقالات وقصصًا وأعرضها على البيه وأنتظر صدور المجلة الجديدة. وكم كانت فرحتي شديدة عندما اكتشفتُ أن البيه هو نفسه الذي يسكن في بيت طوغان وفي الدور الأرضي وفي شقة منزوية ومظلمة، وأنه يقيم حفلات ساهرة في شقته يحضرها خميس بائع الكازوزة المشاغب! ويحضرها أيضًا بعض الشخصيات المريبة في الجيزة.

ولقد رأيت البيه في مرَّات كثيرة سابقة، وعندما سألتُ عم خميس أكَّد لي أن البيه صحافي كبير، وأنه مدير عام مجلة الساعقة (الصاعقة)، وأنه غني يُنفق عن سعة، وأنه صاحب نفوذ في الحكومة؛ بدليل أن عددًا من ضباط البوليس يتردَّدون على شقته!

وعبثًا حاولتُ أن أعرف اسم البيه كاملًا، ولكن الجميع كانوا يعرفون أن اسمه علي، ولا أحد يعرف اسمه الكامل ... وأن كل المعلومات التي لدى معارفه قد استقوها من علي نفسه، وأن أحدًا منهم لم يزُره في مكتبه، كما أن أحدًا منهم لم يرَه مشغولًا بعمله في يوم من الأيام!

وذات صباح شُفيت من داء الانتظار، فقد اقتحم البوليس شقة علي واقتادوه معهم إلى القسم بعد أن زفُّوه في الشوارع وضربوه على قفاه، وتركوا الأولاد يلطخون ملابسه بالطين ويرجمونه بالحجارة ... ولقد ضبطوا في منزل علي مسروقات لا حدَّ لها، وتبيَّن أنه نصَّاب عريق، وأن له سجلًّا حافلًا من السوابق، وأنه كان ينتحل صفة محرِّر بمجلة الصاعقة التي كانت ذائعة الصِّيت تلك الأيام ... ولقد كان خميس المشاغب هو أكثر الناس شماتة في علي، رغم أنه كان صديقه الوفي!

ولم أفهم سر شماتة خميس إلا بعد ذلك بأسابيع، فقد علمتُ أن النصَّاب علي كان يُخفي عند خميس كميات ضخمة من المسروقات، وأن خميس قد استولى عليها بعد القبض على الصحفي الكبير علي! واكتشفتُ عندئذٍ السرَّ الذي جعل البيه يخلط بين القصة والمقالة، فقد كان الأستاذ أمِّيًّا لا يقرأ ولا يكتب، ولكنه كان يتمتَّع بذكاء خارق وصاحب حيلة واسعة ودهاء شديد.

ولقد أصابني الملل بعد ذلك من طول ما جلستُ على مقهى السروجي، وقرَّرتُ أن أقوم بأي عمل يبعدني عن جوِّ المقهى الكئيب ... وكانت جمعية الإخوان المسلمين في الجيزة تُقيم ليالي سياسية في مقرها القريب من المقهى ... وقرَّرتُ أن أنضم إلى الجماعة، فأنا خطيب أجيد مهنة الزعيق والصراخ بالألفاظ ذات الرنين، وأنا أيضًا يكمن في أعماقي مسجد وسميع أحب تلاوة القرآن.

وخطفت رِجلي ومعي طوغان إلى المقر، وحرَّرنا استمارتين للعضوية، ولكن سببًا هامًّا وقف عائقًا أمام انضمامنا للجمعية، هو أن مسئول الفرع طلب خمسة قروش من كلٍّ فرد منا كاشتراك شهري، ولمَّا لم يكُن معنا صنف العملة بالمرَّة، فقد اعتذرنا وانصرفنا! وإلى غير رجعة!

وهكذا عُدتُ من جديد إلى مقهى السروجي ... ولكن الوقت لم يطُل بي هذه المرَّة، فسُرعان ما انتقلت إلى مجلة جديدة عندما قرأت أول أعدادها لم أستطع أن أذوق طعم

النوم ليلة بأكملها. كانت المجلة اسمها «كلمة ونص»، وكانت ضاحكة وساخرة وجذَّابة ... وكان مأمون الشناوي وصلاح عبد الجيد هما رئيسَي التحرير، ولا تحمل المجلة توقيع أحد غيرهما في الداخل، وقرَّرتُ الذهاب إلى دار المجلة، فأنا أكتب شيئًا قريبًا من هذا الكلام المنشور بها ... وفعلًا طرقتُ باب «كلمة ونص» ذات ظُهر أحمر شديد الحرارة لافِح القيظ، وكان العَرَق يتصبَّب من جبيني، وشعري الناعم قد تحوَّل إلى كتلة من الطين بفضل العَرَق والتراب ... وكانت جيوبي محشوَّة بأوراق تافهة، وليس معي صنف العملة.

وكان كلُّ أملي أن يُسمَح لي بالجلوس في دار المجلة حتى العصر؛ كي أتمكَّن من العودة إلى الجيزة في التراوة؛ لأنني سأعود على القدمَين!

واستقبلني مأمون الشناوي بعدم مبالاة وبدون ترحيب ... وقال على الفور وبدون مقدِّمات وكأنه قد شبع وارتوى من هذا الصِّنف من الناشئين المتردِّدين على دُور الصحف والمجلات: عاوز تكتب؟ ولَّما أجبتُ بالإيجاب تساءلَ في تهكُّم: وبتعرف تكتب؟ ولَّما أجبتُه بنعم، أشار على مكتب أمامه وقال: اقعد كدة ورِّيني ... ورغم ارتباكي الشديد وخوفي من الفشل في أول امتحان حقيقي أواجهه ... فقد كتبتُ عدَّة أوراق بسرعة ... وعندما ألقى عليها نظرة قال وهو يتفحَّصني: انت اسمك إيه؟ وهتفتُ على الفور: محمود السعدني، فسألني وهو يُشعل لنفسه سيجارة: السعدني ولَّا السعداني؟ قلت: السعدني، قال آه، إنت عارف السعدان يعني إيه؟ ولَّما أجبتُه بالنفي قال: السعدان يعني قرد ... والسعداني يعني القرداتي ها ها ها!

وهممتُ بالجري من أمام مأمون الشناوي، وفكَّرتُ أيضًا في أنْ ألعن جدوده وأنصرف، ولكني لم أستطع التصرُّف، وظللتُ واقفًا كتمثالٍ لا أتكلَّم ولا أتحرَّك حتى هتف مأمون الشناوي: طيِّب ابقى فُوت علينا تاني! ولم أفهم هل هو جادٌّ في أن أفوت عليه تاني، أم أنه مجرَّد كلام حتى أمضي من أمامه؟!

وعندما صدر العدد الثاني من «كلمة ونص» وجدتُ كلَّ حرف كتبتُه منشورًا بالمجلة، وكاد قلبي يتوقَّف من شدة الفرحة ... ورحتُ أقرأ ما كتبتُ أكثر من مرَّة ... وانطلقت بأقصى سرعة مستعملًا جميع وسائل النقل المعروفة وقتئذٍ، فتشعبطت على سلم الترماي، وفي الأوتوبيس، وفي المرحلة الأخيرة من الرحلة قفزتُ على عربة كارو ولم أتركها إلا أمام باب المجلة!

ولشدة حزني اكتشفتُ أن يوم الصدور هو يوم العطلة، فعُدتُ أدراجي إلى مقهى السروجي، واعتكفتُ وحيدًا في ركنٍ بعيدًا أعيد قراءة مقالاتي القصيرة وأنا أشعر بلذة ليس لها مثيل.

وشعرتُ تلك اللحظة، أن الكلمات ... وأن الطباعة هي أخطَر ما اخترع الإنسان ... وأن هذه المجلة الصغيرة التي تنام بين يدي ... هي أول الطريق إلى عالم المجد والشهرة والأحلام!

وفي اليوم التالي كنتُ أقف أمام مأمون الشناوي يتفحَّصني بعينَين نصف نائمة ونصف مفتوحة، وكان مأمون يرتدي قميصًا من الحرير الياباني وأمامه على المكتب عدة أوراق وعلبة سجاير فاخرة، ومنديل من نفس قماش القميص ... وقال وهو يضحك: هو انت السعداوي؟ وقلت كأنني تلميذ خايب في مدرسةٍ صارِمةِ التقاليد: لا، أنا السعدني. وقال مأمون: ولا يهمك! كله عند العرب صابون ... اقعد.

وقعدت أمامه وقال: اكتب لنا شوية براويز ... ورحت على الفور أكتب كأنني ماكينة ضغَطَ مأمون على زرها لتدور! وكنت هذه المرة أكثر شجاعة وأكثر اطمئنانًا ... وعندما انتهيت من كتابة الأوراق أصبحتُ محرِّرًا بالمجلة وبمرتَّب شهري ستة جنيهات كلَّ شهر، فهكذا قال مأمون الشناوي وهو يشير نحو حجرة جانبية ستصير هي حجرتي لعدة شهور قادمة هي كل عمر المجلة.

كانت الحجرة واسعة ونظيفة وبها مكاتب أنيقة، ولم يكُن هناك مكتب مخصَّص لأحد بذاته، ولكنها كانت مشاعًا لَمَن يجلس ... والْتَقيتُ في هذه الحجرة بزميلَين ربطتني بهما صداقة طويلة ... أحدهما هو علي الوليلي فنَّان فلَّاح من قرى المنصورة ... طُرِد من وظيفته وجاء إلى القاهرة يرتدي بالطو أصفر وَبَر جمَل كان يبدو داخله كأنه مدرِّس إلزامي في إحدى مدارس الريف ... وكان علي فنَّانًا على دراية واسعة بمشاكل الريف وأحوال الفلاحين ... وكان قبل حضوره إلى القاهرة موظفًا في قسم البلهارسيا، ومهمته الإشراف على تطهير مجاري المياه في الريف ... ولكنه هرب ذات صباح من الوظيفة، ومن المنصورة، وحضر إلى القاهرة ليحترف الصحافة!

وكان الآخَر هو يوسف شكري، وقد حضر من السويس إلى القاهرة ... ليعمل سكرتيرًا للتحرير ... وكان طويلًا ونحيفًا وطيِّبًا وكذوبًا، ولكن أكاذيبه كلها كانت بيضاء ... وفي نفس الحجرة كان يجلس رسَّام كاريكاتيري اسمه مجدي، كان شهيرًا ولامعًا تلك الأيام ... وكان يعمل في مجلة روز اليوسف قبل ظهور عبد السميع! ورغم أنه كان يحترف الفن فإنه لم يكُن يؤمن بالفن كوظيفة لها غاية في الحياة.

كان الفن في رأيه مجرَّد أَكْل عيش أو وسيلة لزيادة الدخل؛ لذلك كان يقف مع قضيةٍ ما، ويقف ضدها، وكان يرسم كلَّما واتَتْه فرصة للرسم، ويتقاضى أيَّ مبلغ يُعرَض عليه، ويدور طول النهار يلف على دُور الصحف يرسم لها ويقبض منها.

وكان يبدو كتاجر خردوات متجوِّل عديم الانفعال، بارد الأعصاب إلى درجة تغيظ، وقد نصحَني في أول لقاء بأن أبحث لنفسي عن مهنة في الحكومة لأضمن لنفسي مَورِدًا ثابتًا ... وكان يكرِّر هذه النصيحة كلما حدثت مشاكل بسبب الفلوس في المجلة ... فقد اشتغلت خمسة شهور كاملة ولم أتقاضَ عنها إلا ستة جنيهات فقط! ولقد قُدِّر لهذه المجموعة أن تلتقي أكثر من مرَّة في عمل واحد بعد ذلك، غير أن مجدي الرسَّام لم يلبث أن هجَر الصحافة، واختفى بعد ذلك بسنوات، وقنع بعمله الحكومي بمصلحة المساحة!

ولقد كانت تجربة «كلمة ونص» — رغم قِصَر المدة — كفيلة بأن تمنحني الثقة وتدفعني إلى التمسُّك أكثر بهذه المهنة التي أحبها ... كما كانت فرصة لأتعرَّف على أصدقاء جدد، وكان مأمون الشناوي هو أهمهم وأكثرهم تأثيرًا في نفسي. وفي بيت مأمون الشناوي تعرَّفتُ على كثيرين من نجوم المجتمع، وعندما رأيت أحمد بدرخان أول مرَّة في بيت مأمون كِدتُ أرقص من شدَّة الفرح، فقد كانت المرة الأولى التي أرى فيها رجلًا من رجال السينما بعينَي رأسي!

وكان بدرخان بسيطًا وأنيقًا وطيِّبًا إلى درجة حبَّبَتني فيه ... وكان يحلم بأفلام كُبرى ملوَّنة تفرض نفسها على العالَم، ولكنه عندما ناقش موضوع الفيلم الذي يكتب مأمون أغانيه، تأكَّدت أنه لن يستطيع تحقيق أحلامه، فقد كانت الفكرة ساذجة إلى حدٍّ بعيد! وعشتُ أيامًا طويلة تعصرني البطالة ويُرهقني الانتظار ... وكان مأمون الشناوي هو قارب النجاة الوحيد الذي أتعلَّق به للوصول مرَّة أخرى إلى الصحافة ... ولكن مأمون نفسه كان يُعاني هو الآخَر من البطالة ومن الفلس ... ورغم ذلك كان كريمًا إلى حدِّ السَّفه، مِضيافًا ولا الأمين بن الرشيد، مِتْلافًا لا وزن عنده لما سوف يحدث غدًا.

وشعرت أنني أثقلتُ على مأمون الشناوي فانسحبتُ في هدوء إلى الجيزة، ولكن هذه المرَّة إلى كازينو شهريار ... وكان المكان هادئًا وأنيقًا وعلى النيل ومقصد العشاق والمشاهير من رجال الصحافة والأدب، والناشئين والمُدَّعين وأنصاف الأدباء وأنصاف الفنَّانين. ولم يكُن لهؤلاء الأنصاف حديث إلا ما أصاب الحياة الفنية من قحط، وما حطَّ على دنيا الأدب من بلاء، وكل فنَّان مشهور في عُرفهم هو دلدول استطاع الوصول بأساليب رخيصة، وكل أديب معروف هو نَذْل وخائن للوطن!

وكان هؤلاء الفاشلون يعيشون داخل أنفسهم ولديهم قدرة هائلة على احترام ذواتهم رغم الفشل ... ولعلَّ هذه هي ميزتهم الوحيدة، وهي التي حفظتهم كلَّ هذه السنين وشجَّعتهم على البقاء على هامش الحياة الفنية طامِعين يومًا في الدخول فيها، ورغم أن كل

الأبواب كانت مُوصَدة، وكل المسالك مسدودة ... بسبب ضعف مواهبهم الفنية وضحالة ثقافتهم وقلة خبرتهم بالحياة وبالناس.

ولقد أصابني الذُّعر منهم عند معرفتي بهم أول مرَّة ... وأبديتُ نحوهم احترامًا شديدًا، كانوا يدفعون دائمًا ثَمَن المشروبات التي نطلبها، وكانوا أيضًا يرتدون أفخَر الثياب؛ فقد كانوا مُوظَّفين في دواوين الحكومة ولهم رواتب ثابتة.

ولكن هيافتهم كانت واضحة إلى درجة أنني اكتشفتُها بعد فترة ... وعندئذٍ رُحتُ أمزَح معهم في البداية، ثم رُحتُ أسخَر منهم ... ولم يجدوا ما يُعيِّرونني به إلا أنني عاطل، ولقد حزَّ هذا الوصف كثيرًا في نفسي، ولكني لم أكُفَّ أبدًا عن السخرية بهم والتشنيع عليهم ... وإنْ كان وصفهم لي بالصايع قد دفعَني إلى الالتحاق بوظيفة حكومية.

وهكذا وجدتُ نفسي ذات صباح موظَّفًا حكوميًّا في عمل موسمي بمصلحة المساحة ... وكان هذا أول وآخِر عمل رسمي أقوم به في حياتي ... وكان العمل هو حَصْر المساحات المزروعة في مصر كلها وتحديدها حسب نوع المحصول ... وكان المكتب الذي يضمُّنا عبارة عن حوش كبير تتناثر فيه المكاتب المكسورة المجروحة والقذرة ... وفي الوسط يقوم مكتب واحد كبير كأنه منصَّة قضاء، وهنا يجلس رئيس القلم وهو رجل عجوز شديد الاهتمام بشاربه الكث الذي يجعله أشبَه بممثل كومبارس في مسرحية هزلية ... وكان إلى جواري موظَّف قديم يرتدي بنطلون شورت ليس من باب الرياضة، ولكن لعدم توفُّر القماش، وكان اسمه جرجس أفندي، وكان شديد النفاق للبيه المدير، مع أن المدير كان في الدرجة السابعة، وكانت ميزته الوحيدة أنه يدخِّن السجاير من علبة، بينما الموظَّفون جميعًا يدخِّنون السجاير الفرط.

ولَمَّا كنت أنا أصغَر الموظفين سنًّا وأكثرهم عدم مبالاة! فقد أشعت في المكان جوًّا مرحًا. وكان جرجس أفندي هو هدفي في البداية، ثم امتد نشاطي فشمل الجميع حتى رئيس القلم علي أفندي ... وبعد ثلاثة شهور كاملة فُصِلتُ من الوظيفة! والتُّهمة أنني أحلت المكان إلى سيرك! وكانت التُّهمة حقًّا ... فمَن ذا الذي يوجد في مكان يحوي كلَّ هذه النماذج من الحيوانات ولا يتحوَّل إلى مهرِّج يتشقلب على ظهره ويمشي على السلك!

ولقد أبدَتْ شلة الأدباء الفاشلين شماتة لا حدَّ لها بسبب فصلي ... فها هو ذا الولد الصايع عاد صايعًا كما كان، ولا فائدة تُرجى من حياته ... فلا هو نفع في الصحافة، ولا فلح في الوظيفة، وأبدوا نحوي اشمئزازًا ونفورًا ... وكلما دخلت الكازينو أشاحوا بوجوههم عنِّي، فإذا حاولت الاقتراب منهم ابتعدوا وانتقلوا إلى ركن آخَر.

وذات مغربية دخلتُ الكازينو منتفشًا كديك رومي، وجلستُ على مقربة منهم وصفَّقتُ بشدة للجرسون وطلبتُ فنجان قهوة سكر زيادة، ولم أكُن أحب شرب القهوة، ولم أكُن أطيق طعمها ... ولكني تعمَّدتُ أن أطلبها؛ لأنها كانت أرخَص مشروب في الكازينو ... ولم يكُن معي سوى نص فرنك فضة جديد وكنت أحتفظ به في جيب بنطلوني ... ورحت أرتشف القهوة على مهل وأنا أتطلَّع إليهم في كبرياء.

وعندما دخل أحد أصدقائي الشبان وصافحني قلت له في هدوء مسموع: ابقى كلمني بكرة عشان تشتغل معانا في المجلة الجديدة. ولم يكُن هناك مجلة جديدة ولا أشغال جديدة ... ولكن الهدف كان أن أغيظ الشلة الفاشلة، وأن يشعروا بالحسرة؛ لأنني حصلت على عمل في مجلة، بينما هم يتطلَّعون إلى العمل في الصحافة دون جدوى.

وعندما جاء وقت الحساب سقطَ قلبي في حذائي، فقد رُحتُ أبحث عن النص فرنك دون جدوى ... سقط من ثقب في جيب البنطلون ... ورُحتُ أبحث في الأرض بعصبية شديدة لفتت أنظار الشلة نحوي فارتفعت ضحكاتهم تجلجل في أنحاء الكازينو، وانهالت تعليقاتهم الساخرة مني ... ولكن الجرسون الطيِّب الشهم حسين انحنى على الأرض والْتقطَ حفنة رمل وكأنه الْتقطَ النص فرنك، ثم حيَّاني في أدب ومضى من أمامي كأن الحساب خالص!

تمثيلية قصيرة قام بها الجرسون لينقذني من المحنة التي وقعت فيها، وما زلت أحمل لهذا الجرسون الطيِّب ودًّا عميقًا ومنزلة خاصة في نفسي ... وهو الآن تاجر ناجح ومدير أربعة محلات كبرى في حي الدقي ... ولكني وبرغم مهارة الجرسون وطيبته المتناهية، وبرغم جو الخريف البارد فقد أحسستُ بالعَرَق يتصبَّب من جسمي كله، وشعرت بأن الأرض تدور بي وأنني على وشك السقوط مغمى عليَّ ... ومشيتُ كالسكران وغادرت الكازينو إلى غير رجعة.

يا له من إحساس رهيب على النفس عندما يصطدم الفاشل بفشله! ها أنا ذا مجرَّد ولد صايع فعلًا، فلا شغلة ولا مشغلة، ووقتي كله أبدِّده في أن أغيظ شلة كل أفرادها أكثر فشلًا مني، وها أنا ذا بعد سنوات من الكفاح المُرهِق الطويل لم أحقِّق شيئًا ولم أصِل إلى أي شيء بعدُ، وهتف هاتف في نفسي ... إلى أين؟ نعم إلى أين؟ إلى أين ... سؤال راح يلح على نفسي وأنا أجُرُّ خطواتي على الطريق المظلم الطويل المحاذي للنيل في تلك الليلة من ليالي الخريف الباردة، وبدا السؤال وقتئذٍ بلا إجابة، كما بدأ الطريق أمام عيني بلا نهاية، صحيح: إلى أين؟ أنا نفسي لم أكُن أعرف، ولم يكُن هناك أحد يستطيع أن يجيب على سؤالي، وارتميت على دكة من الرخام على شاطئ النيل، وانخرطتُ في بكاء عنيف هزَّني هزًّا.

يا له من إحساس رهيب عندما يصبح الإنسان الفرد وحيدًا في مدينة كالقاهرة ... مزدحمة وكبيرة! وفي ليالي الشتاء المُظلِمة الكئيبة كنتُ أضطر إلى الخروج من مقهًى قاصدًا مقهًى آخَر، فإذا أُغلِقَت المقاهي كلها كنت أقطع شوارع الجيزة بحثًا عن مكان أحتمي فيه من البرد الشديد دون جدوى. فإذا طلع الصباح أسرعت إلى منزلنا لألتهم إفطارًا خفيفًا وأنام قليلًا قبل أن يعود أبي من الخارج، لأستأنف الصياعة من جديد حتى يطلع نهار آخَر. حتى المقاهي أغلقت أبوابها في وجهي؛ لأن المشاريب أصبحت بالأمر، وحتى شلة زكريا الحجاوي هجرتُها هي الأخرى؛ لخلاف بيني وبين واحد جديد اسمه سعد ... أصرَّ زكريا الحجاوي على أنه أعظم مَن أنجبت مصر من الأدباء، وأن إنتاج الحكيم والعقاد وطه حسين لا بد سيتوارى يومًا ما خزيًا أمام إنتاج العبقري سعد ... هذا إذا قُدِّر لإنتاج العبقري أن يظهر يومًا!

وكان زكريا الحجاوي يُصدر مجلة اسمها الميزان، وقد نشر لسعد بحثًا هامًّا في أول أعدادها ... بينما رفض أن ينشر لنا حرفًا فيها ... وعندما ناقشنا زكريا في هذا الأمر، قال في حماس غريب: «سعد ده هو الأديب العربي الوحيد اللي هيعرف يرد على لينين»، وكانت هذه أول مرَّة أسمع فيها اسم لينين، ولكني عند قراءة البحث تبيَّنتُ مدى فساد عقل سعد هذا، ومدى فساد رأي زكريا!

ولَمَّا كان سعد ابن أسرة ثرية في الريف، وميسور الحال وينفق عن سعة، ولَمَّا كان زكريا يعتمد في تدخين السجائر على سعد هذا، فقد انضمَّ إلى سعد ضدي وطردَني بغير رحمة من الشلة. وأثَّرَت هذه الحادثة على نفسي تأثيرًا كبيرًا ... فقد كان عطوفًا ومدرِّسًا مثاليًّا، فقد أعطاني مفاتيح كثيرة للمعرفة، كان زكريا الحجاوي هو أهم إنسان في حياتي ... وكان حنونًا، وكان له الفضل في أنني تعرَّفتُ على أعلام الفكر والفن والموسيقى: الجبرتي ويعقوب صنوع وروميسكي كورساكوف وابن خلدون والإمام الشافعي.

ولقد استفدتُ كثيرًا خلال الفترة التي عرفتُه فيها، رغم أنه كان لا يقدِّم لنا أكثر من أسماء هؤلاء الأعلام ... أمَّا المعلومات، فكان علينا أن نبحث عنها بعيدًا عن زكريا؛ لأن زكريا نفسه لم يكُن من هواة القراءة ... ولم يكُن لديه كتب! ولذلك كان زكريا سلاحًا ذا حدَّين، فلَكَم استفاد هؤلاء الذين الْتَقطوا الخيط من زكريا ثم تابعوه هم أنفسهم بعد ذلك، ولَكَم ضاع هؤلاء الذين اكتفوا بسماع زكريا واطمأنوا إلى أن هذا الكلام هو نهاية المطاف وغاية الثقافة، فلقد كان زكريا يذكر أمام تلاميذه أسماء كثيرة غريبة، وكان ينسب إلى هؤلاء الأعلام أفعالًا لم يرتكبوها، ويذكر على ألسنتهم كلمات لم يتفوَّهوا بها قط.

وكان واسع الخيال إلى حدٍّ رهيب، حتى إنه حكى لي ذات مرة أن سيدة ثرية من العراق استأجرَتْ طائرة خاصة حلَّقت بها فوق منزله في الجيزة لعلَّ قلبه يرقُّ لها بعد أن هجرها دون جدوى!

وحكى لي مرَّة أخرى: أن فنَّانة مشهورة جاءت إليه بعد منتصف الليل وهي ترتدي الملاية اللف والمنديل أبو أوية، وسارت معه على الأقدام فوق كوبري عباس بالجيزة، ولما استوضحتُه اسم الفنَّانة ذكر في هدوء بارد ... اسم الفنانة أم كلثوم!

ولكني كنتُ سعيدًا بصحبته رغم كل شيء ... وعندما فقدته أدركتُ مدى الفراغ في نفسي ... ولقد غفرتُ له مواقفه مني في أول لقاء لنا بعد ذلك فقد أدركتُ مدى بؤسه وضياعه.

والحق أن زكريا كان طاقة فنية لا حدَّ لها ... وكان يقطر فنًّا حتى من بين أصابعه ومن تحت أسنانه ... وبينما كانت الأصداف تلمع تحت أضواء الشهرة ... كان زكريا الذهب ينام مدفونًا تحت تراب مستشفى الحوامدية. فقد كان زكريا هو كاتب المستشفى وأمين المخازن، واستطاع في فترة وجيزة أن يتحوَّل من كاتب في المستشفى إلى زعيم للمدينة ... ولكن الروتين الحكومي العفن الذي يريد من الموظفين أن يتحولوا إلى مكاتب وليس إلى زعماء، قدم زكريا للمحاكمة وطرده من المستشفى إلى وظيفة حقيرة في مجلس بلدي بالجيزة ... واضطر سنوات طويلة أن يعول عشرة أشخاص بخمسة جنيهات لا تزيد!

وكان موقفه السياسي مضطربًا مثل حياته ... ففي صباه تولى زعامة الطلبة في مدرسة الفنون والصنايع ... ولعب دورًا هامًّا ضد النحاس باشا وحزب الوفد ... وعندما ترك المدرسة كان من روَّاد التنظيمات الماركسية في مصر ... واستمر حتى أصبح يشغل منصبًا قياديًّا في أحد التنظيمات!

ثم اختلف مع اليساريين، وخرج بما أسماه الاشتراكية الإسلامية، ولكنه لم يستمر طويلًا في هذا التيار، ولم يلبث أن هجر السياسة كلها قانعًا بجهوده في الأدب والفن؛ ولذلك عُدتُ إلى زكريا الحجاوي هذه المرَّة، وأنا أكثر حذرًا وأعمق فهمًا لتصرُّفاته، غير أني لم ألبث أن هجرتُ الشلة مرَّة أخرى إلى مجلة الأسبوع، وكانت الأسبوع في الأصل مجلة أصدرها جلال الدين الحمامصي، ثم توقَّفَت عن الصدور فجأة. وجاء رجل من الصعيد اسمه أمين، وأصدرها رغم أنه لم يكُن على علاقة بالصحافة.

وكان الائتلاف الدستوري السعدي يحكم البلاد بيد من حديد، والرقابة مفروضة على الصحف، وكانت أخبار اليوم هي المجلة الوحيدة المزدهرة، وأيضًا مجلات دار الهلال، وفيما عدا هذا فقد كانت كل المجلات تلقى المتاعب والأهوال.

واجتمعنا في مجلة الأسبوع: أربعة شبَّان صغار وصاحب المجلة. ورجل آخَر اسمه هارون كان من أقارب صاحب العمل، وكان يتولَّى منصبًا هامًّا ودائمًا في المجلة ... هو حارس رئيس التحرير وملاحظ الطبع في المطبعة، وكان علي جمال الدين يتولى منصب مدير التحرير، وكان طوغان هو رسَّام المجلة الوحيد، وكنت أنا كل أسرة التحرير وكل المحرِّرين! وكان يعف علينا كالطير عشرات آخَرون. منهم أفندي صعيدي اسمه الأقصري! بدَّد حياته كلها ومواهبه كلها في الكتابة بالفصحى الصحيحة وبالنحوي السليم، وكان يحفظ ألفية ابن مالك عن ظهر قلب ... ويعتقد أن العالم أينشتين أجهَل من دابة؛ لأنه لا يعرف الفاعل من المفعول.

ولم يستطع الأقصري هذا أن يدرك أن الحياة أوسَع من ألفية ابن مالك، وأن الكتابة إحساس أكثر منها حفظًا للفاعل والمفعول! ولذلك كان دائم الشجار في المجلة؛ لأننا لا ننشر مقالاته.

وعندما صدر العدد الأول كان يحمل أول تحقيق صحفي بتوقيعي، وكان التَّحقيق عن رجال الحرس الوطني، وكان يقطر سخرية بخفراء الأقاليم، وفي ذلك المساء حضر الأقصري إلى المجلة وسبَّني سبًّا شديدًا، واتهمني بأن شخصًا آخَر يكتب لي مقالاتي، وراهنني أمام الجميع أن أعرب «بلادي وإنْ جارَتْ عليَّ عزيزة ... وأهلي وإن جاروا عليَّ كرام» لأبرهن للحاضرين أنني أجيد الكتابة ... ولم أعرب شيئًا بالطبع، ولم يقتنع الأقصري بأنني أنا الذي كتبتُ المقال.

باع العدد الأول في الأسبوع سبعة آلاف نسخة، وفي العدد الثاني باع ألف نسخة فقط، ثم أخذَ البيع يتناقص حتى بلغ مائة نسخة.

وبينما كان صاحب المجلة في دهشة لنقص التوزيع، كنت أنا أيضًا في دهشة؛ لأننا نبيع كل هذه الكمية؛ فلم يكُن في المجلة شيء يُقرَأ، ولم يكُن لها هدف واضح، وكان لدينا «مصوراتي» يحمل كاميرا ضخمة لها شوال أسود ضخم يضع رأسه فيه كلَّما ارتكب عملية تصوير أحد، وكان يحمل معه جردلًا لتحميض الصور، وكان لا يصور إلا في الشمس ... وكان يقف في ميدان التوفيقية بالقرب من دار المجلة ... وكنا نستعين به كلما دعَت الحاجة إلى جهوده.

وذات مرَّة سحبته من يده لنصوِّر مجموعة من العمَّال العاطلين لأكتب عنهم موضوعًا بعنوان الذين فاتهم القطار ... وبعد أن الْتَقط صورهم راح يستخرج لهم نسخًا بالأجر، وعندما نهرته أمام الجميع حمل الجردل وضربني به على رأسي ... ثم رفض العمل معنا بعد ذلك!

كان صاحب ورئيس تحرير المجلة قد بدأ يُهمل شأن المجلة، ونادرًا ما كان يحضر إلى مكتبه تاركًا العمل لحارس المجلة هارون، وتحوَّل هارون شيئًا فشيئًا من غفير خصوصي إلى رئيس للتحرير وراح يفتِّش علينا في كل لحظة، والويل لنا إذا ضحكنا أو ارتفعت صيحاتنا، ثمَّ راح يتدخَّل في العمل أكثر ... واعترض على الرسوم والمقالات مع أنه لم يكُن يقرأ ولا يكتب.

وذات مساء جُنَّ جنونه فحمل هراوة وانهال بها ضربًا علينا وطاردنا حتى الطريق، وظلَّ عم هارون يصرخ طول الليل، وفي الصباح حضرت الإسعاف وحملته معها إلى المستشفى الخانكة، وأجبرت هذه الحادثة صاحب المجلة على الحضور، ولكنَّه لم يحضر وحده، جاء معه رجل اسمه إسحاق الجوهري، وقدَّمَه إلينا بصفته مديرًا عامًّا للمجلة.

وكان الجوهري رجلًا مهيبًا سمينًا عليه سمات أصحاب الأعمال، وكان يحترف إدارة الصحف الميتة ... فيكفيه اسم مجلة لينطلق بعد ذلك ينصب على مخاليق الله ... وكانت السفارات الأجنبية والشركات الكبرى هي مجالات نصبه، ولقد أقنعنا الجوهري أن مجلة الأسبوع سيصير لها دار ولا دار أخبار اليوم ... وسيُصبح لكل محرِّر أرشيف ودوسيه خاص، وستصلنا مرتباتنا في أظرف مغلقة، وسيصبح مرتَّب كل محرِّر خمسين جنيهًا كاملة، وعشت في هذا الحلم أسابيع كثيرة.

ولم يعُد رئيس التحرير يظهر بالمرَّة، وعرفنا بعد ذلك أنه نال غرضه منها، وأن الحكومة قرَّرَت له مصاريف سرية وكمية من الورق، كان يستهلك بعضها في المجلة ويبيع الكمية الأكبر في السوق السوداء.

وجلسنا أسابيع نتدارس الأمر، علي جمال وطوغان وأنا، ولكننا لم نصِل إلى حل، وذات مساء حطَّ علينا وافد جديد اسمه فهمي، كان سمينًا كالعجل ويرتدي بالطو من الجلد وطاقية من طواقي الروس، وكانت معه قصة مترجمة عن تشيكوف اسمها «النهار» وطلب منَّا نشرها ... ولمَّا أخبرناه أن النشر بدون أجر ... أبدى استعدادًا طيِّبًا للتعاون معنا على هذا الأساس ... كانت القصة لا بأس بها، وعندما سألتُه عن اللغة التي ترجم عنها القصة، قال في هدوء: الروسية ... وقال إنه قضى في روسيا خمسة أعوام حيث كان والده يعمل مستشارًا في السفارة المصرية في موسكو، وإن له مؤلفات باللغة الروسية ذائعة الصِّيت هناك ... وبعد أسابيع اكتشفنا أنه طريد المدرسة السعيدية، وأنه لا يجيد لغة على الإطلاق، وأنه نصَّاب راسخ القدم في هذا الفن، وأنه لم يخرج من القاهرة إلا إلى بنها ... وعندما واجهناه بالحقيقة اكتفى بالابتسام، وصاحبنا بعد ذلك طويلًا، واشتغل في عدة صحف

كبيرة، ثم سافر إلى الخارج وأقام فترة طويلة هناك ... ولكنه لم يكفَّ أبدًا عن النصب في أي مكان يحل فيه، ثم قُدِّر له أن ينتهي النهاية الحتمية والوحيدة التي كانت تنتظره؛ فقد دخل السجن يقضي مدة العقوبة وهي الأشغال الشاقة المؤبدة، وظلَّ في السجن حتى مات!

ثم جاءت النهاية بعد ذلك ... وفي ليلة ممطرة ومُظلِمة وشديدة البرودة وكنا نجلس في المطبعة، علي جمال وأنا، كنا نطبع سبعة آلاف نسخة كلَّ أسبوع، نبيع منها مائة نسخة ثم نبيع المرجوع فور رجوعه، وكنا نتناول أجورنا من ثمن المرجوع وهي لم تَزِد أبدًا عن جنيهين في كلِّ مرَّة، وقرَّرنا في تلك الليلة أن نبيع المجلة فورًا، وقدَّرنا أننا سنكسب أكثر لأن الأعداد طازة وساخنة وستزن أكثر ... وهو عمل على أية حال خير ألف مرَّة من طرحها في السوق ثم إعادتها من جديد، ثم بيعها بعد ذلك، ثم هو أيضًا حل لمشاكل كثيرة بالنسبة لنا ... فلم يكُن معنا نقود، ولم يكُن لدينا سجاير، وكنا نشعر بالإحباط.

وفعلًا غادرتُ المطبعة قرب الفجر إلى شارع محمد علي، وعُدتُ إلى المطبعة ومعي تاجر ورق يجرُّ عربة يد وميزان لزوم الوزن بالأقة ... ورُحنا نحمل الأعداد ساخنة من المطبعة إلى الميزان ... ولهفنا أكثر من ثلاثين جنيهًا دفعة واحدة ... اقتسمناها على الفور، واحتفظ كلٌّ منَّا بنسخة من المجلة، وانصرفنا على غير موعد وإلى غير لقاء.

ولم يشعر صاحب المجلة بالأمر إلا بعد أسبوع، عندما ذهب إلى دار المجلة ليكتشف أن المكاتب نفسها غير موجودة، فقد أصبح فهمي هو المتردِّد الوحيد على المجلة بعد غيابنا ... ولما يئس من حضور أحد ... باع المكاتب لتاجر في وكالة البلح واختفى هو الآخَر أيضًا!

ولقد غاظني جدًّا ما قام به فهمي وحده، فلقد خرج من الصفقة بنصيب الأسد، وبينما اقتسمتُ أنا وعلي مبلغ الثلاثين جنيهًا خرج هو بستين جنيهًا دفعة واحدة ... لذلك رُحتُ أتردَّد على منزله لعلَّني أجده فأعكمه من قفاه وأتناول نصيبي من الغنيمة، ولكني دخت دوخة الأرملة وراه دون أن أعثر له على أثر.

وذات مرة صمَّمتُ على أن أنتظره، وظللت عند الباب أنتظره حتى انتصف الليل، وفجأة رأيته قادمًا من أول الزقاق في البالطو الجلد إياه وجوانتي مُطعَّم بالفرو ونفس الطاقية الفرو فوق رأسه، منظر أمير من أمراء بطرسبرج في عصر غابر ولا يتفق أبدًا مع منظر الزقاق الفقير المُظلِم الذي تنضح من حيطانه رائحة عفنة ... وعندما رآني ... وكنت مُصرًّا تلك الليلة على أن أتناول حقي أو أرتكب جريمة! فلم يكُن معي نقود ولم يكُن هناك عمل آخَر، ولكن عندما طلع الصباح علينا ونحن في حجرته القذرة ... كنت قد نسيتُ كلَّ شيء، ولم أعُد أشعر نحوه إلا بالأسف والشفقة.

كانت الحجرة عارية تمامًا من أي أثاث، وعلى الحائط صورة ضخمة لفهمي نفسه في ملابسه الأنيقة وفي فمه بايب وحلقات الدخان تبدو في الصورة وعلى رأسه قبعة وفي بوز مفتعل كأنه ممثِّل في رواية، وكانت المَرْتبة القذرة مُلقاة على الأرض البلاط ولم يكُن لديه غطاء إلا البالطو، ولكنه كان يحتفظ في ركن الحجرة بأعداد مجلة الأسبوع التي نشر فيها قصصه، وأكثر من خطاب مُرسَل إليه من بعض رؤساء تحرير الصحف الكبرى، وكانت كلها ردًّا على خطابات أرسلها إليهم بصفته قارئًا معجبًا بهم على نحو ما!

وعندما دعاني على العشاء معه سحب علبة فاصوليا ناشفة من ركن في الحجرة، ووضع العلبة نفسها على النار ثم سحب عدة أرغفة من العيش الناشف وكمية من المخلل كان يحتفظ بها، وعلى رشفات الشاي الساخن الذي أعدَّه على عجَل راح يحكي لي متاعبه في الحياة، متاعب لا حصر لها مع أسرته ومع صاحب البيت والبقَّال ومع فتاة على علاقة بها، وسحب من تحت المرتبة صورة لبنت بضَّة وممتلئة وشعرها أسود وعلى شفتَيها ترتسم ابتسامة ساذجة ... وغبطة بيني وبين نفسي على البنت وعلى الصورة التي معه ... فلم أكُن حتى هذه اللحظة على علاقة بأي فتاة ... وكل علاقاتي كانت عابرة وبالصدفة ... ولم يكُن لديَّ الوقت ولا المال لأهتم بشيءٍ آخَر غير البحث المستمر الدائب عن عمل ... أو مأوى أو فلوس!

وسألتُه عن سر متاعبه مع الفتاة فحكى لي بصراحة أنها طالبة في الجامعة، وأبوها موظَّف كبير في الحكومة ... وقد تعرَّف عليها في حفلة وقدَّم نفسه إليها بصفته خريج جامعات موسكو ... وصحفي وكاتب قصة ومن أسرة ثرية وقوية وتمتلك مئات الأفدنة في الصعيد.

ولقد تعرَّف عليها في بداية الأمر ليعبث بها وليهبر منها ما يستطيع من الفلوس، ولكنه لا يستطيع التقدُّم إليها، مع أنها ترفض الزواج من غيره وتريده، وهو يخاف لأن كل المعلومات التي قدَّمَها عن نفسه كاذبة، ولأنه أيضًا لا يجد ثمن إفطاره كلَّ صباح، ولما سألتُه عن مصير المبلغ الذي هبره من بيع المكاتب، سحب كشفًا من تحت المرتبة وراح يقرأ ... خمسة جنيهات للبقَّال، خمسة جنيهات للجزار، خمسة جنيهات للترزي، عشرة جنيهات لأمه المريضة في المستشفى، جنيهان لشقيقه الأصغر الذي يدرس في الأورمان، خمسة جنيهات للمطعم، جنيه ثمن حذاء، جنيه مش عارف إيه، جنيه لمين ... ومن واقع الكشف المكتوب تبيَّنتُ أنه لم يعُد معه شيء! وأقسمَ لي وصياح الديكة يتصاعد حولنا في الزقاق أنه لم يحصل منذ عامين على أي دخل من أي نوع على الإطلاق، وأنه قادم الآن من العباسية إلى عابدين سيرًا على القدمين!

وشهور كثيرة مرَّت بعد ذلك رهيبة وسوداء أسود من جلد الفيل ... ولكن وقَعَ خلالها حادث كان له أثر كبير في حياتي ... فقد اصطحبني طوغان معه ذات مغربية إلى نقابة الصحفيين ... ولم يكُن طوغان عضوًا في النقابة، وكان من أحلامه أن يصبح يومًا ما عضوًا فيها، وعندما دخلنا سألنا موظَّف الاستعلامات عن الاسم والمهنة والعضو الذي نبغي زيارته، وذكر طوغان اسم العضو الذي يعرفه ... زهدي الرسَّام.

ودخلنا النقابة ولكن زهدي لم يكُن هناك، واستقبلنا رجل آخَر سمين وطيِّب وفنَّان كانت له شهرة كالطبل تلك الأيام، ولم أصدِّق أنا أن هذا الرجل البسيط الخجول الطيِّب هو نفسه الفنان الكبير الذي كانت شهرته تطبق الآفاق، كان الفنان هو رخا ... وتلك الليلة لا أنساها مدى الحياة ... فقد عامَلَنا رخا باحترام زائد. ولعبَ معنا طاولة وعزمنا على العشاء.

وكانت النقابة تزدحم بعشرات من الصحفيين اللامعين، وكانت بها حجرة للقمار سهرنا فيها نتفرَّج على اللاعبين حتى الفجر، ثم خرجنا مع رخا إلى ميدان باب الخلق، وأكلنا فطيرًا على الرصيف، ثم ركبنا معه تاكسي حتى ميدان الجيزة، وأقسمَ ونحن نودِّعه أن نحضر إلى النقابة كلَّ ليلة وأكَّد لنا أنه سيكون في انتظارنا هذا المساء!

ولكني تردَّدتُ في الذهاب إلى النقابة بعد ذلك، وأخذتُ أحكي للناس في كل مجلس عن أحداث تلك الليلة الخالدة، وبمناسبة وبغير مناسبة كنت أحشر اسم رخا في الحديث، أحيانًا كان الحديث يكون عن حرب فلسطين المتوقعة بعد انسحاب الإنجليز ... فأتدخَّل في الحديث ... «مش ممكن هتحصل حرب، دنا ليلة ما كنت سهران مع رخا، تناقشتُ في هذا الموضوع، وعرفتُ كذا وكيت وكذا»!

وليالٍ كثيرة كنت أذهب حتى باب النقابة ثم أحجم عن الدخول، فقد كانت ملابسي غير لائقة، وكنت أشعر بخجل شديد من عيون الناس وهي تُعرِبد في عيوب الجاكتة ومساوئ القميص، ولعلَّ تلك الأيام هي السر في أنني سأظل بقية حياتي أشعر بضعف شديد أمام الملابس الجديدة وسيظل بي شغف شديد بالأناقة وحرص أشد على أن أبدو دائمًا في ثوب قشيب.

وهكذا وبعد شهور طويلة ... بالبدلة المكرمشة التي بليَتْ من طول الاستعمال، والحذاء المضروب المخبوط، زحفتُ ذات صباح نحو أول مجلة محترمة قُدِّر لي أن أعمل بها، وكانت المجلة في شارع فاروق ولها دار كبرى وماكينات طباعة خاصة بها، وكان صاحبها يشتغل بالترجمة واستطاع بعد كفاح مرير أن يهز السوق الصحفي هزًّا بمجلة ذات طابع جديد هي مجلة مسامرات الجيب.

وقد ضربت المجلة عند صدورها مجلات دار الهلال ضربًا شديدًا، ثم وقفت تناطح مجلات أخبار اليوم في السوق ... وعندما تولَّى أبو الخير نجيب رئاسة تحريرها واتجه بها نحو المعارضة ومالَ بها نحو الوفد ... كانت المجلة قد وصلت إلى أعلى رقم وصلت إليه مجلة من نوعها في التوزيع، وكانت المجلة تعتمد في توزيعها إلى جانب الرأي، على قصص من لون جديد يكتبها شاب ناشئ وضابط في الجيش اسمه يوسف السباعي.

وكان رسوم الحسين فوزي تلهب خيال القرَّاء بطابعها المميز وأسلوبها الفريد، ولكن عندما وصلت إليها كانت الدار التي تصدر عدة مجلات قد أخذت تتدحرج، وهجرها أكبر محرِّريها لمماطلة صاحب الدار في دفع المرتبات، ثم فقدت أغلب قُرَّائها عندما هادنت المجلة الحكومة السعدية وفتحت أبوابها لكل مَن يريد أن يعمل فيها بلا أجر.

وفي هذه المجلة تعرَّفتُ بكل أبناء جيلي من الصحفيين ... بعضهم يتولون المسئولية في صحف هذه الأيام ... وبعضهم تدحرج ولا يزال يقف مكانه محلك سر، وبعضهم ترك المهنة كلها وضاع في الحياة، ولكن سيظل أبرزهم على الإطلاق ثلاثة: عبد المنعم الحمزاوي الذي جاء ذات يوم من الصعيد ليعيش مع خاله في القاهرة، فلما فشل في الدراسة راح يسرح وراء خاله في حواري الجيزة يبيع الجاز، ثم اشتغل في الحكومة موظفًا في الدرجة التاسعة، ثم تسلَّل إلى الصحافة بموهبة فذة وخبرة هائلة وعلم قليل.

وبعد فترة قصيرة اتخذ لنفسه ركنًا في مقهى بشارع إبراهيم باشا واجتمعت حوله شلة من الأدباء الشبَّان الصياع، وأصبحت يومًا ما عضوًا في هذه الشلة ولكن لفترة وجيزة، ذلك أن رجلًا مثلي كان ينحدر من شلة زكريا الحجاوي سرعان ما اكتشف تفاهة وضياع أكثر الجالسين في الحلقة، وكان أحدهم واسمه أحمد يثير ضحكي كلما هَمَّ بالكلام، كان قصيرًا وأحول ويلف حول رقبته خرقة مبللة فقد كان مصابًا بالبرد على الدوام ... وكان إذا فشخ بقه بدا كأنه حمار على وشك النهيق، وكانت أحكامه الأدبية لا تفترق كثيرًا عن أحكام بائع موز يتصدى للأمور العلمية!

وكان ثمَّة تلميذ آخَر من تلاميذ هذه المدرسة يُدعَى صمويل، وقد ملَّ صمويل حياته ولم يُطِق الصبر على الفلس والجوع، فتخلَّص من هذه الحياة ذات صباح، بأن شنق نفسه بالكرافتة الوحيدة التي كانت هي كل ممتلكاته! ولقد أسفت على النهاية الحزينة التي انتهى إليها، فقد كان أكثرهم علمًا وأكثرهم خبرة بالأدب والفن والحياة!

والحق أقول إن عبد المنعم الحمزاوي نفسه كان على شيء ... ولو أُتيحَ له أن يقرأ ما ينبغي لمثله أن يقرأه ... لكان له شأن آخَر، فقد كان يتمتَّع بمواهب خارقة، وكانت تجربته في الحياة أطول بكثير من سنوات حياته وأعرَض بكثير من حياة الآخَرين!

وكان الرجل الثاني الذي عرفتُه في مجلة مسامرات الجيب، هو سيد حمد الله وكان في الأصل كاتب محامي استطاع أن يصِل إلى منصب رئيس التحرير، وكان صاحب أسلوب جميل ولكنه كان شديد الهيافة، واهتماماته كلها كانت تنحصر في الليل والسهر والانصهار داخل الحياة اللذيذة.

ولم يكُن يهتم بالسياسة على أي نحو، وعلاقته بالأدب تنحصر فيما تنشره المجلات من قصص هايفة، وما يذيعه الراديو من أحاديث للأدباء، وكان إلى جانب عمله كرئيس للتحرير مشغولًا دائمًا بالحصول على إعلانات من أصدقائه الفنَّانين للمجلة.

وكان شديد الزهو لعلاقات الصداقة التي تربطه بكبار الممثلين، وكان يعتقد أن الحكمة والفن والفلسفة تكمن كلها في رأس ممثلة حمقاء كانت تبادله الحب، ولذلك كانت صورها تحتل صفحات المجلة، وكلماتها الساذجة ينشرها في براويز كمادة لتثقيف القراء، وعندما أغلقت المجلة التي كان يتولى رئاسة تحريرها أبوابها، لم يستطع الصمود طويلًا، ولم يلبث أن تدحرج حتى كنسه النسيان!

أما الرجل الثالث فكان عالِمًا بحق، ومثقَّفًا على نحو رفيع، وطيِّبًا يمسح — رغم بؤسه وضياعه — على جراح الآخَرين ... وكان قد هجر وظيفته الدائمة والمرتب المستقر إلى الصحافة ولكنه فوجئ بعد شهور بأن المهنة التي اختارها، هي مهنة صياعة وضياعة وعدم استقرار ... ولكن نفسه الفنانة وهي نفس أمارة بالسوء، كانت تلحُّ عليه أن يبقى حيث هو، وأن يمضي في طريقه وسط الأشواك والصخور، ومن هذا الرجل تعلَّمتُ الكثير في صباي، وأغلب الكتب التي قرأتها تلك الأيام اقتبستها من عنده!

وكان هو أول مَن زرع الثقة في نفسي، وأول مَن جعلني أتشبَّث بأسناني بمهنة الصحافة رغم طول ووعورة الطريق! ولقد قُدِّر لهذا الرجل أن يشق طريقه بعد ذلك بنجاح، وأن يتغلَّب على كل العقبات والصعاب، وأن يلمع ليصبح أحد نجوم الصحافة وكتَّابها الكبار، وكان الدور الذي لعبه في حياتي هامًّا وجوهريًّا وخطيرًا، وكانت علاقتي به بداية مرحلة جديدة ... وما أكثر المراحل التي خضتُ فيها خلال رحلتي القصيرة العريضة في الحياة الرجل الطيِّب اسمه محمد عودة الكاتب الشهير الذي يتألَّق دائمًا في الأزمات.

٤

كان الرجل الطيِّب حين الْتَقيتُ به أول مرة خارجًا لتوِّه من محنة شديدة حطَّمَت قلبه وأفقدته الثقة في كل شيء، وبدا لي أنه يُعاني قلقًا شديدًا وأنه يشعر بمرارة لا حدَّ لها، وحين وقَع نظره عليَّ أول مرة لم يتجاهلني ولم يُشِح بأنفه شأن المربيين الكبار حين يلتقون بأمثالي من المتردِّدين على أبواب الصحف، ولكنه ابتسم لي في ود وألقى نظرة على المقال الذي كنتُ أكتبه وأطلقَ ضحكة صافية من قلبه وقهقه في براءة وقال هو يهزني بعنف: «أنت لك أسلوب ساخر لو استطعت أن تستخدمه بمهارة سيصبح لك شأن!» ولم أكُن قد سمعتُ تقريظًا من أحد حتى هذه اللحظة.

والكلمات الطيِّبة التي كنت قد سمعتُها من قبل كانت كلمات مجاملة أكثر منها كلمات استحسان ... ولذلك نظرتُ إليه في دهشة وبتفرُّس لأكتشف إذا كان صادقًا في القول أم مجرَّد هازل يسخر مني في قالب مدح، ولكنه أعاد نفس كلماته وأضاف إليها كلمات أخرى مماثلة، وسحبني من يدي إلى قهوة إيزافيتش، وانبهرتُ جدًّا بالمقهى وبالزبائن الجالسين في خيلاء، وبالجرسون الجريجي الذي كان يبدو أنيقًا ووسيمًا مثل نجوم السينما المشهورين.

واكتشفتُ أن الجرسون صديق للرجل الطيِّب، فقد حضر وحيَّانا في ودٍّ ثم وقف يناقش الرجل الطيِّب في السياسة ... وجاءت شلة من الأفندية وانضمَّت إلينا، واكتشفتُ أنهم جميعًا طوال القامة، وأن رءوسهم جميعًا صلعاء، وأنهم يهتمون على نحو خاص بشواربهم، وهي شوارب ليست عادية، ولكنها كثَّة وسوداء، ولها أطراف تتدلَّى إلى أسفل، ولما سألتُ الرجل الطيِّب عن سر هذه الظاهرة، قال ببساطة كأنه يفسِّر ظاهرة طبيعية: «دول بيقلدوا ستالين!»

ولقد دخل الجميع في نقاش صاخب حاد حول الموقف السياسي ... وتطوَّرَ النقاش إلى سباب، ثم تبادلوا الاتهامات الخطيرة! وخُيِّل إليَّ أن المسألة ستتطوَّر إلى شجار، وأنهم

لن يلبثوا أن ينهضوا جميعًا ليتراشقوا بالكراسي واللكمات، وأن دماءً كثيرة ستسيل حتمًا وأن بعضهم سيُنقَل لا محالة إلى المستشفيات على عربة إسعاف!

ولكن شيئًا من هذا كله لم يحدث … فسرعان ما هدأت الضجة والْتَفَّ الجميع حول أطباق الفول يلتهمونها بشهية، ثم طلب الجميع الشاي وراحوا ينظرون في هدوء نحو الشارع متربِّصين بعيونهم لكل أنثى تعبر الطريق … وكانت رءوسهم تستدير في حركة رتيبة هادئة وتلتوي أعناقهم من أقصى اليسار إلى أقصى اليمين أو بالعكس ثم تعود الرءوس إلى وضعها الطبيعي عندما تبتعد الأنثى عن الأنظار.

وكان أحدهم يعلِّق بكلمة دائمًا عقب مرور كل أنثى … وكأنه واجب يؤدِّيه، أو كأنه ناقد نسائي مطلوب سماع رأيه في كلِّ أنثى تعبر الطريق … وكانت تعليقاته قصيرة وحاسمة: «دي رجليها وحشة» أو «دي كتافها نازلة» أو «صدرها كبير»، وعندما تكون الأنثى لا عيب فيها يكتفي بهز رأسه استحسانًا ويعلِّق بكلمة واحدة «ظبط»! ولم أشترك معهم في المناقشة ولم أشترك معهم أيضًا في البصبصة! وعندما نهضوا ليغادروا المقهى نهضنا معهم، وجاء الجرسون على عجَل يطلب الحساب، وتقدَّمتُ أنا فغادرت المقهى إلى الشارع … ولكن جذبني إلى داخل المقهى صوت الجرسون يشتم ويسب ويلعن سنسفيل جدودهم جميعًا … ووقفت دقائق أستمع إلى حوار ساخن بين الجرسون والأفندية جميعًا، ثم تركهم يمضون وهو يلعن ويسب أجداد الجميع، واكتشفت أن الجرسون الجريجي له دين ثقيل في أعناقهم، وأنهم يُماطلون في الدفع منذ شهور!

ومنذ تلك اللحظة تعلَّمتُ ألا تخدعني المظاهر، وألا أنبهر بالقشور الزائفة، فقد كنت أمُرُّ يوميًّا على مقهى إيزافيتش وألقي نظرة على المقهى والزبائن المسترخين على مقاعدها! وكنت أتوهَّم أن الجالسين في المقهى هم البشوات والبهوات وأثرياء القوم، وكان منظر الزبائن ومنظر المقهى ومنظر الجرسونات الجريج يوحي بذلك، ولكن هذا الموقف كشف الغطاء عن الحقيقة المُرَّة، وعرَّى كلَّ شيء أمامي.

ولكني رغم ذلك أُعجبت جدًّا بشجاعة هؤلاء الأفندية الذين دخلوا مع الجرسون الجريجي في حوار صريح مكشوف وأمام جميع الزبائن دون أي شعور بالخجل، ولعلَّ سبب إعجابي بهم هو جُبني الشديد في مواجهة هذه المواقف، وهو جُبن دفعني إلى عدم الاستدانة من أحد، وعدم المماطلة في الدفع، وأن أحجم عن ارتياد مثل هذه الأماكن إلا إذا كان في جيبي ما أدفعه ثمنًا لطعامي وشرابي! بل لقد دفعني هذا الجبن أيضًا إلى التخلُّف عن شلة الأصدقاء أيام الطفولة إذا دخلوا عند حلواني أو فكهاني، وأتظاهر بأنني مشغول بشيء في الخارج حتى لا أحرج نفسي ولا أتسبَّب في إحراج أحد.

وكان على عكسي تمامًا طوغان، فقد كان يقتحم المحل على رأس الشلة، ويدور بين الأصناف ينتقي ويختار! فقد كان شديد الضعف أمام إغراء الحلوى والفول السوداني والبلح الأمهات، وكان يأكل كفايته، ثم يُعلِن بعد ذلك للشلة أنه يعاني الإفلاس، ولكن حتى طوغان كان يفعل ذلك أمام شلة من الأصدقاء، وكان يجد دائمًا من بينهم مَن يدفع حسابه!

ولكن هؤلاء الأفندية لم يدفعوا الحساب ولم يدفع لهم أحد، بل وناقشوا الجرسون الجريجي وأمام جميع الزبائن وفي شموخ وكبرياء، وكأنهم محامون يترافعون في أعظم القضايا، ولقد صادقتهم بعد ذلك وأصبحت واحدًا من شلة المقهى لسنوات طويلة، واكتشفتُ أنهم جميعًا كانوا أعضاء في التنظيمات اليسارية عند بدء تكوين هذه التنظيمات في مصر، ثم هجروا التنظيمات السياسية واكتفوا بالجلوس على المقهى والاشتغال بالسياسة كهواة … وكانوا شديدي الضِّيق بكل شيء، كافرين بكل إنسان، وجميع الناس خونة وعملاء للاستعمار ما عدا أفراد الشلة، وكانوا يشعرون بالرضا عن أنفسهم؛ لأنهم قد وصلوا إلى الحقيقة! فكل الزعماء متعاونون مع القصر، وكل الأحزاب متعاونة مع الاستعمار، وكل الصحف مأجورة، وكل الناس — حتى الجرسون الجريجي — متعاونون مع البوليس، وكل الأفلام تافهة، وكل الكتب حقيرة، وكل الأغاني هايفة، وكل الموظفين مرتشون، وكل النساء مومسات، وكل الرجال يستحقون القتل!

وكانوا لا يرون في الحياة إلا لونين، الأسود الفاحم والأبيض الناصع، فأنت إما خائن وإما شهيد، وأنت إما ثائر وإما بوليس، ولقد ظلَّت الشلة قعيدة المقهى ولسنوات طويلة، حتى جاء يوم فاختفت كلها، بعضهم دخل السجن في قضية اختلاس، والبعض الآخَر هجر المقهى إلى البارات ليغرق نفسه في الخمر! ولكن صديقي الطيِّب لم يكُن واحدًا منهم، وكان على خلاف معهم، وعندما أبديتُ إعجابي بهم كمثقَّفين قال في امتعاض شديد … ما يغركش الكلام المقعر اللي بيقولوه، المثقف الحقيقي هو اللي يعيش حياة الناس ويعبِّر عنها بطريقة بسيطة!

وأعجبني تعريفه للمثقَّف ولكن لم يُعجبني تعريفه للشلة، فقد وصف أفرادها بأنهم «حشرات مريضة» فقد وقع في نفس الخطأ الذي وقعت فيه الشلة، كما أنهم لم يكونوا حشرات مريضة، ولكنهم كانوا نماذج لألوف من أبناء الجيل فقدوا الثقة في كل شيء حتى في الخلاص من المصير المحتوم، ثم أسلمهم اليأس إلى الانطواء داخل أنفسهم والفرجة على ما يجري دون أن يكلِّفوا أنفسهم عناء الاشتراك في التغيير، خصوصًا أن التغيير كان يكلِّف

كثيرًا ... فقد كان قانون صدقي باشا بتحريم المبادئ الهدامة (!) قد صدر حديثًا، وأصبح السجن مصير كل شاب يحاول التصدي لفساد القصر أو انحرافات الأحزاب.

ولما كانوا غير مستعدين لدفع الثمن، فقد انسحبوا نهائيًّا إلى المقهى، ولكنهم لم يرتضوا أن يُلقوا السلاح نهائيًّا فاكتفوا بالكلام على المقهى كمحاولة للاشتراك في التغيير دون أن ينالهم من وراء ذلك أي عقاب! لذلك كان كلامهم حماسيًّا للغاية ومتطرِّفًا أكثر من اللازم، ولعلَّ ذلك يرجع إلى إحساسهم بأن الكلام هو كل بضاعتهم ولذلك يجب أن يكون من أحسن وأجود الأصناف.

ولكن برغم كل شيء فقد كانت هذه الشلة تمارس حريتها على أوسَع نطاق، ولم يكُن يقيِّدهم أي قيد، وكانوا مُثقَّفين على نحوٍ ما، ولكنهم لم يشعروا أبدًا بلذة اقتحام حياة الناس والالتحام مع الجماهير العريضة، بالرغم من اعتقادهم الراسخ بأنهم وحدهم ممثِّلو الأمة وترجمان الشعب ولسان حال الملايين.

ولقد لعبت شلة إيزافيتش دورًا في الحياة السياسية والثقافية في مصر، رغم أنه كان دورًا على الهامش، وذاعت أخبار الشلة واشتهر أفرادها، ولكن أبرزهم، وكان مهيب المنظر أرستقراطي الحركات مُفلسًا على الدوام، يحكي دائمًا وفي كل مناسبة عن دوره الطليعي في قيادة الشعب، وعن مقاومته الباسلة لرجال البوليس السياسي، وكان أكثر الجميع تطرُّفًا وأشدهم صلابة كما كان أكثرهم حركة!

فقد كان من عادته دائمًا أن يغادر المقهى أحيانًا إلى مكاتب الصحف البائرة يكتب فيها مقالات ضد الاستعمار وضد الحكومة، وكان أحيانًا يتقاضى مبالغ زهيدة لقاء هذا النشر لا تتجاوز الخمسة جنيهات وأحيانًا تصل إلى عدة شلنات، وكان متزوِّجًا وصاحب مشاكل عائلية لا تنتهي، وكان يرتدي في الصيف بنطلون شورت وصندل أبيض وقميص حرير هفَّاف، ويبدو في زيِّه الصيفي كأنه سائح إنجليزي عجوز جاء إلى مصر ليقف فترة بين المتاحف والآثار!

ولقد قُدِّر لي بعد ذلك أن أعيش معه فترة من الوقت داخل زنزانة واحدة في السجن، وقضيت الليالي الطويلة ساهرًا معه حتى الفجر، فقد كان أشد الجميع انهيارًا وأكثرهم بكاءً، وكان يجلس طول الليل ساهرًا لا يغمض له جفن! وكان على استعداد لأنْ يدفع نصف حياته ثمنًا لكأس واحد من الخمر! واعتقدت أنه انهارَ هذه المرَّة فقط بعد أن ناضلَ كثيرًا داخل الزنازين الباردة وخلف الأسوار الصمَّاء.

ولكن الذين عاصروه في الماضي، أكَّدوا جميعًا أن هذا هو طابعه، وأنه مُنهار بالفطرة، وأنه بكى في نفس اللحظة التي صافحت فيها أقدامه أرضية السجن أول مرَّة، وأنه شديد الانهيار عندما يكون في الزنزانة، شديد المقاومة والصلابة عندما يكون على مقهى إيزافيتش!

ولقد ودَّعت صديق سجني ذات مساء عندما فتح السجَّان باب الزنزانة ودعاه إلى الخروج لأمر عاجل، وخرج ولم يعُد، وعرفنا بعد ذلك أنه أُفرِج عنه في نفس الليلة، وأنه عاد لاستئناف حياته ورواية حكاياته على مقهى إيزافيتش!

ولقد صحبتُ الرجل الطيِّب بعد ذلك سنوات طويلة، وكان دائمًا يُبدي إعجابه بما أكتب، وكان أول مَن نصحني بكتابة رواية طويلة، ولقد استمعتُ إلى النصيحة وكتبت رواية طويلة اسمها «حارة السمك» لم يُقدَّر لها أن تتم ولم يُقدَّر لها أن تُنشَر، وضاعت ضمن ما ضاع لي من أوراق على مَرِّ السنين.

وقال لي ذات مساء ونحن جلوس على مقهى إيزافيتش: أنت أول كاتب يخرج من الحارة المصرية وعليك أن تعبِّر عن هذه الحارة وأن تكون نائبها في برلمان الأبدية! وفي مساء آخَر قال لي وعيناه تبرقان ووجهه كله يرتعش: لا تقع في مصيدة العبارات البرَّاقة، اكتب كما تتكلَّم وستصبح شيئًا فريدًا بين أدباء الجيل، واقرأ كثيرًا ولكن اجتهد أن تنسى كل ما تقرأ، وحاول أن تُتقن لغة أجنبية فهي الجسر الذي تعبر عليه إلى رحاب التراث العالمي. وأول سفارة دخلتها في حياتي كانت في صحبته، وكانت سفارة الهند، وقد تناولت عشاءً فاخرًا وشربنا زجاجة ويسكي كاملة ودخَّنتُ علبة سجاير أمريكية وقضينا الليلة نتفرَّج على الرقص والغناء.

ظللتُ شهرًا بعدها أحلم بذكرى تلك الليلة المجيدة! وأعطتني تلك الليلة شعورًا بالثقة لا حدَّ له، وقضيتُ ساعات أرطن باللغة الإنجليزية مع موظِّفي السفارة، وقد اندهش صديقي الطيِّب لأنني أجيد اللغة الإنجليزية نطقًا ولا أجيدها كتابة! وقال لي وهو يضحك من الأعماق … إنك مثل تراجمة نزلة السمان يُجيدون الحديث بكل اللغات، ولكنهم يجهلون شكل الحروف وطريقة الكتابة، ولم يكُن صديقي الطيِّب يعرف حتى هذه اللحظة أنني كنت أعمل ترجمانًا لفترة طويلة من الزمان!

وأول بيت محترم سهرتُ فيه كان مع صديقي الطيِّب أيضًا، وفي بيت في الدقي استرعتني نظافته الشديدة وفخامة العفش وكثرة التحف المبعثرة في أنحائه، وجلستُ مؤدَّبًا كتلميذ خائب يجلس في حضرة أستاذه، وتلعثمت فلم أستطع أن أتكلَّم، وكانت صاحبة الشقة ألمانية في الخامسة والأربعين من عمرها، ولكنها ظلَّت رغم هذه السنين

تحتفظ بشبابها! وكانت لها صديقة مثلها في ربيعها الخمسين، وكانت أيضًا صبية ومليحة وعاشقة للفن، وسهرنا حتى الفجر نستمع إلى موسيقى تشايكوفسكي، وكلنا صامتون كأننا في جنازة، وكانت السيدة الألمانية ذات الخمسين ربيعًا تتولَّى خدمتي طوال السهرة وتُقدِّم لي الكأس بعد الآخَر، وأحيانًا كانت تسألني عن رأيي في الموسيقى فأهزُّ رأسي وأفشخ بقي عن ابتسامة بلهاء!

وقبل نهاية السهرة بدقائق مسحَتْ على شَعري بيدها، وقالت أنت تُشبه الإسبان ... هل أنت مصري حقًّا، وقلتُ في سرِّي: أنا مصري ابن مصري ابن مصري وآدَم بتاع أسرتنا كان مصري ومن حارة مُظلِمة وقذرة في بقعة من الأرض المصرية يعلمها الله.

وعندما نهضنا لنغادر الشقة انحنَتْ على شفتي وقبَّلتني! وشعرت بخجل لا مزيد عليه، ووددتُ لو تبتلعني الأرض فلا أعود أظهر لها، ونكستُ رأسي في خِزي كأنني ارتكبتُ جريمة! ونهرني صديقي الطيِّب ونحن نسير في الشارع بعد منتصف الليل: لماذا كنت مكبوسًا في السهرة إلى هذا الحد؟ وادَّعيتُ لصديقي أن الجو لم يُعجبني، وكنت كاذبًا إلى حدٍّ بعيد، فقد أعجبني الجو والجلسة والشقة والست العجوزة!

ولكن كنت أشعر باضطراب شديد، وكنت فاقدًا للثقة فلم يكُن يخطر ببالي أن أكون ندًّا لست خوجاية تعيش في مثل هذا القصر العظيم.

ولقد صارحتُه بحقيقة الأمر بعد ذلك فطمأنني إلى أنني بشبابي وبهيئتي المصرية وبذكائي وخفَّة دمي يُمكن أن أكون محبوبًا لدى قطاع عريض من النساء، ولم أصدِّق صاحبي الطيِّب وقضيت ليلة بأكملها أمام المرآة أتفرَّس في وجهي وهيئتي، ولكني لم أقتنع أبدًا برأي صديقي الطيِّب، ولكن يبدو أن المسائل كلها عادة، فبعد زيارة ثانية وثالثة ورابعة أصبحتُ أنا عمدة القعدة، بل تطاولت على الخوجاية العجوز ونهرتها عن الصراخ بهذا الشكل المزعج، وحزنت الست الخواجاية جدًّا وقضت السهرة كلها تسترضيني!

ولقد ظلَّت مجلة مسامرات الجيب تنحدر حتى وصلت إلى الحضيض، وبينما كان صديقي الطيِّب يتقاضى أربعين جنيهًا شهريًّا كان لا يحصل إلا على خمسة جنيهات وأحيانًا على عشرة، وكان مرتبي ثمانية جنيهات، ولكني كنت أحصل على جنيهين وأحيانًا لا أحصل على شيء ... وكان فؤاد أفندي هو صرَّاف المجلة، وكان رجلًا بارد الأعصاب ميِّت النظرات، وهي ميزة كل رجال الحسابات وأمناء المخازن وصرَّافي البنوك والخزائن، ولعلَّها صفات يكتسبونها خلال عملهم الرتيب القاتل المُمِل الذي يُصلِّت على رقابهم سيف

المسئولية الحاد القاطع، وكنا نعرف أحوال الخزانة من نظرات فؤاد أفندي، ولكن نظراته في الشهور الأخيرة كانت تنمُّ عن الإفلاس والبوار والخيبة الثقيلة!

وكانت ديوني قد أخذت تتضاعف عند البقَّال الذي يحتلُّ ركنًا تحت دار المجلة، ويئستُ أخيرًا من العثور على القرشين صاغ اللازمة للوصول إلى المجلة، فقد كان عليَّ أن أركب بقرش صاغ إلى ميدان قصر النيل ثم أحتفظ بقرش صاغ آخَر لأعود به مرة أخرى إلى الجيزة! وكان هذا المبلغ عبئًا ثقيلًا لم أستطع أن أحتمله! فقرَّرتُ عدم الذهاب كلَّ يوم إلى دار المجلة والاكتفاء بثلاثة أيام في الأسبوع، ونفَّذتُ هذا القرار أسبوعًا واحدًا ثم عدلت عن قراري وعُدتُ إلى دار المجلة، فقد اكتشفتُ أن الذهاب إلى المجلة أكثر ربحًا؛ لأن وجودي هناك يُتيح لي التدخين بالمجان ... وأيضًا شرب الشاي والقهوة على الحساب، وتحوَّلت مجلة مسامرات الجيب من مجلة إلى قهوة، وأصبحَت مكانًا للِّقاء والدردشة أكثر منها مكانًا للعمل.

وكان صاحب المجلة قد راح يسرح في كل مكان عارضًا الدار للبيع وبأي ثمن، وكانت حرب فلسطين قد نشبت، وحكومة الأقلية راحت تنشب أظفارها بقسوة في عنق الشعب، وأصبحَت الحياة غير مُحتمَلة، وفجأة جاءنا محرِّر في المجلة بخبر هزَّ أعصابنا هزًّا، وفتح أمامنا بابًا من الأمل في مستقبل أكثر استقرارًا وسعادة للجميع.

٥

كان الخبر الذي هزَّ أعصابنا هزًّا، والذي حمله إلينا محرِّر في المجلة أن دار روز اليوسف ودار الهلال في حاجة إلى محرِّرين، وأن اثنين من محرِّري مسامرات الجيب قد الْتَحقا فعلًا بالعمل في روز اليوسف، وأن البعض الآخَر قد ذهب فعلًا إلى دار الهلال، ولقد استقبلتُ الخبر ببرود ظاهري رغم أنه في الحقيقة هزَّني من الأعماق، ها هي مرحلة جديدة في الصحافة تُوشِك أن تبدأ في حياتي، وهي لا شك ستكون فاصلة، فإمَّا إلى الصحافة وإما إلى الصياعة!

وقضيتُ ثلاثة أيام متتالية أقلِّب الأمر على جميع الوجوه، وأقارن بين روز اليوسف ودار الهلال، ولم يكُن لي حتى هذه اللحظة أي علاقة بروز اليوسف إلا كقارئ، وكان بيني وبين بعض محرِّريها علاقات صداقة غير وطيدة، وكنت أتردَّد عليها أحيانًا مع طوغان الذي كان يعمل بها رسَّامًا لفترة من الزمان.

ولقد راعني منظرها أول مرة رأيتُها من الداخل، منظر المكاتب المحطمة والجدران المشقوقة، وعشرات من المحرِّرين اللامعين يتخاطفون ساندويتشًا واحدًا، أو يبحثون معًا عن سيجارة، ولكن هذا المظهر لم يكُن يخفى عن العين الفاحصة حقيقة الموضوع، فلقد كانت هذه المجموعة التي تعمل في روز اليوسف أغلبهم ثوار وأصحاب قضية ... وحتى المحرِّرون المحترفون فيها كانوا ينصهرون في الجو العام للدار، فيُصبح من الصعب على الزائر أن يفرِّق بين الصحفي والثوري!

وكانت العلاقة بين رئيس التحرير والمحرِّرين نموذجية، كان واحدًا منهم، وكثيرًا ما كان يترك مكتبه ويجلس في الصالة يتفرَّج على لوحات الفنَّانين، وكانت تربطني بروز اليوسف رابطة أخرى هي أن الصداقة توطَّدت بيني وبين أحد محرِّريها المسئولين وهو في أخريات أيام حياته، كان اسمه عز الدين وكان شابًّا وسيمًا وفنَّانًا ووحيدًا، وقد تعرَّفت

عليه في مستشفى القصر العيني وهو يُعاني من مرض السل الرهيب، وقد طالَ به المرض قبل أن يفتك به، أو في الحقيقة قبل أن يفتك هو بنفسه، وذات مرَّة حذَّرَه الأطباء أمامي من السهر ومن التدخين ومن الانفعال ومن الكلام.

وابتسم عز الدين في هدوء وقال وهو يناولني سيجارة ويُشعل لنفسه سيجارة أخرى: إنهم يحذِّرونني من الحياة. وظللتُ أتردَّد على عز الدين في المستشفى حتى مات، وقد ترك موته في نفسي أثرًا رهيبًا، فلقد كنتُ قبل أن أراه أتوهَّم أني مريض بالسل، وبعد أن عرفتُه تأكدت من أنني مريض، وظللتُ بعد ذلك أعوامًا طويلة أعيش الحياة على أنني مسلول، ولم يدفعني هذا الشعور إلى الحياة بحذر، بل دفعني إلى الحياة بجنون! فما دام المصير هو الموت، فأي فائدة يجنيها الإنسان من التردُّد والخوف والوقوف على مشارف الحياة يتفرج عليها.

ولكني رغم ذلك اخترت دار الهلال وفضَّلتُها على روز اليوسف والسبب أن روز اليوسف كانت تعامل محرِّريها بالقطعة، ودار الهلال كانت تنهج نفس السبيل، ولكن روز اليوسف كانت تدفع على ما يُنشَر، وكانت دار الهلال تدفع على ما يُكتَب، وبينما كانت دار الهلال تدفع ثلاثة جنيهات على الموضوع، كانت روز اليوسف تدفع خمسين قرشًا، وأحيانًا كانت تدفع عشرة قروش على الخبر، أما الخبر الذي يُنشَر بحروف بارزة فكانت تدفع مقابله ريالًا كاملًا!

ورغم أنني قارنت واخترت، فإنني لم أذهب إلى دار الهلال إلا بعد ذلك بستة شهور، ذلك أن الطريق إلى هناك لم يكُن سهلًا، وخلال الشهور الستة الأخيرة في مسامرات الجيب عانيتُ الكثير.

كان الرجل الطيِّب دائم التجوال بين البانسونات كأنه أحد الأعراب الرُّحَّل، ولم يكُن الانتقال بدافع السياحة أو التغيير، ولكن السبب الحقيقي كان ضِيق ذات اليد، وعدم استطاعة صاحبات البنسيونات الصبر، حتى تنفرج الأمور وتتعدَّل الأحوال!

وذات مساء ونحن جلوس نتأهَّب لترتيب الكتب في بنسيون جديد كان الرجل الطيِّب قد انتقل إليه، فجأة، عرض عليَّ أن أتزوج! ولم يكُن يخطر ببالي شيء من هذا ولم أكُن أستطيع حتى الارتباط الاجتماعي بشقة أستأجرها أو ترزي يقبل التفصيل لي على الحساب، كنت حتى تلك اللحظة كأبناء الغجر، أهلب رزقي بالعافية، وأتناول الطعام ليس لأنني جائع ولكن لأنني وجدته، وأنام عندما يغمى عليَّ من شدة الإرهاق، وأذهب إلى أي مكان ما دامت هناك دعوة، وكانت حياتي كلها مضطربة، ولكن علاقاتي الجنسية كانت أكثر اضطرابًا.

وكانت آخِر مرة اتصلتُ فيها بامرأة منذ أسبوع من هذا العرض الذي جاء فجأةً وبلا مناسبة من الرجل الطيِّب.

وكانت مغامرة شقية ليس لها نظير، وحماقة لا يرتكب مثلها إلا المجانين أو المجرمون العتاة.

فقد تعرَّفنا إلى امرأة ليس لها شكل، تجلس وحيدة في كازينو شهريار، وكنا عشرة شبَّان ورجلًا عاقلًا يعمل مدرِّسًا في إحدى الجامعات، وكان شديد الخجل شديد الطيبة، منعَتْه ظروف أسرته المحافِظة وعمله المحترم وعُمره الذي شارف الأربعين من أن تكون له أية مغامرات من أي نوع.

ولقد وجد في صُحبتنا لونًا من الحياة لم يألفه وإنْ كان يتمنَّاه، وعوَّضته شقاوتنا عن استقامته التي كانت مضرب الأمثال، وكان شديد المحافظة على المظهر في الخارج، فإذا ضمَّه معنا منزل واحد بدا على طبيعته المرحة، وسلك سلوكًا يختلف تمامًا عن السلوك الذي كان يُبديه أمام الناس.

وفي تلك الليلة نصَحَنا بألَّا نقترب من المرأة التي تجلس وحيدة وأكَّد أنها تنتظر رجلًا، وهدَّدَنا بأنه سيغادر الكازينو إذا نحن أقدَمْنا على عمل طائش من هذا النوع، ولكننا لم نستمع لنصيحته وقمتُ أنا وغزالي، وبعد لحظة كنا نجلس مع السيدة التي تجلس وحيدة، ولم تلبث ضحكاتنا نحن الثلاثة أن ارتفعت تُعلن للجمع المتربِّص بنا أننا في غاية الود والانسجام!

وسرعان ما غيَّر الرجل الطيِّب رأيه فلم يُغادر الكازينو، ولم يحتج علينا، بل أرسل إلينا مَن يخبرنا أننا نستطيع أن نطلب ما نشاء من الطلبات وأنه سيدفع الحساب!

وبعد قليل نهضنا مع الست خارج الكازينو في طريقنا إلى المنزل، ولم يكُن لدينا منزل كما لم يكُن هناك منزل لدى أحد من الشلة التي تتعقبنا، ورحنا نفكِّر أنا وغزالي في مكان نقصد إليه، ولم نهتدِ في النهاية إلا إلى بيت طالب أزهري اسمه الصدفي، كان يسكن وحده في الجيزة في شقة في بيت له مظهر البيوت الأنيقة، رغم أنه في الداخل لم يكُن يحتوي إلا على سرير شديد القذارة ومشنة عيش كانت دائمًا فارغة، وثلاثة كراسي كلها محطَّمة كأنها متخلِّفة من خناقة بين بعض الفتوَّات العتاة!

وكان الصدفي نفسه شديد الغرابة، مظهره يدعو إلى الإضحاك، كان قصيرًا ومشوَّهًا ويتكلم بالفصحى وبصوت عالٍ كأنه يخطب على الدوام، كان سعديًّا متحمِّسًا وهي ظاهرة شاذة تأملتها كثيرًا، ولكن لم أستطِع تفسيرها على الإطلاق، فلقد كان هناك وزراء سعديون، ونوَّاب سعديون، وشيوخ سعديون، ولكن أبدًا لم يكُن هناك شبَّان سعديون.

كان الشباب موزعًا تلك الأيام بين الوفد ومصر الفتاة والشيوعيين والإخوان، وكان الصدفي هو الشاب السعدي الوحيد الذي قابلته في حياتي، وكنت دائم العراك معه، شديد السخرية به، هازئًا من معتقداته، متهمًا إيَّاه بالرشوة إذ لا يُعقَل أن يكون الإنسان سعديًّا بضميره، خصوصًا إذا كان شابًّا، ولا بد أن يكون لهذا الموقف الغريب ثمن مدفوع!

وأعتقد الآن أن موقف الصدفي كان مدفوع الأجر، وأنه كان أجرًا زهيدًا لأنه كان دائم الشكوى من الإفلاس، وكان يبدو دائمًا شديد الإرهاق والشحوب.

ولقد استقبلنا الصيرفي بفرح شديد، وعندما وقَع بصره على المرأة التي معنا لمَعَت عيناه ببريق غريب، واستقبلَتْه المرأة بفتور وباحتقار شديد، فقد كان يرتدي جلبابًا مخططًا وحافي القدمين، وكانت فانلته تبرز من فتحة جلبابه وكان فيها من الثقوب أكثر مما فيها من القماش.

واعتقدَت المرأة أنه خادم في المنزل وعاملَتْه طول السهرة على هذا الأساس.

ولم تلبث شلة الأصدقاء أن اقتحمت علينا المنزل، وكعادة الفقراء أردنا أن نزيف الواقع المُر وأن نخدع أنفسنا، وأن نضفي على الجو مسحة من الشاعرية والخيال، واكتتبنا جميعًا لنحصل على زجاجة رخيصة من الكونياك الرديء، ومن جهاز الراديو العتيق الذي تعشِّش فيه الصراصير رُحنا نستمع إلى موسيقى حالمة، وصعد غزالي على أكتاف أحدنا ولفَّ حول لمبة النور قطعة من الورق الأحمر، ورحنا نسهر فرحين في هذا الجو الهزيل، جو كلما تذكرته الآن اقشعرَّ بدني من هول ما كنا فيه، جو تجتمع فيه امرأة صايعة قبيحة وعشرة شبان ورجل رزين وزجاجة خمر رخيصة وراديو كان لا يواصل الغناء إلا بخبطة يد قوية تهز أجهزته العتيقة التي تودُّ أن ترتاح من هذا الشقاء اللعين!

المهم أن السهرة اكتملت، وعندما جاء الصباح كان علينا أنا وغزالي أن نواجه الموقف الصعب، ولم يكُن معنا سوى ستين قرشًا هي كل ما مع الشلة من نقود، خمسون قرشًا دفعها الرجل الرزين وعشرة قروش هي كل ثروة الآخَرين!

كانت المرأة تقف أمام المرآة تسوِّي شَعرها وتغنِّي بصوت مسلوخ أغنية شائعة، وكان الصدفي يقف في الصالة محمومًا وعيناه مصوبتان نحونا كأنهما فُوَّهتا بندقية مستعدة للإطلاق ... والسبب أن المرأة الصايعة رفضت بشدة أن يختلي بها الصدفي وكان هذا تصرُّفًا طبيعيًّا من جانب المرأة. فهكذا الفقراء دائمًا يريدون في أي مناسبة أن يؤكدوا لأنفسهم أن هناك مَن هُم أفقر منهم، وهكذا الحقراء أيضًا يريدون أن يثبتوا ولو لأنفسهم أن هناك مَن هم أحقَر منهم.

وكانت تلك الليلة هي فرصة الست الصايعة، ولقد أصرَّت على موقفها وظلَّت متمسِّكة برأسها لا تتزحزح، ورغم التوسُّلات والشفاعات فإنها رفضت بشدة، وبدا عليها في لحظة أنها مسألة مبدئية، وأنها على استعداد لتواجه الموت في سبيل هذا المبدأ العظيم!

ولما ضاعت كل المحاولات عبثًا، قرَّرنا تجاهل الأمر تمامًا، واتفقنا على ضرب الصدفي لو اعترض طريقنا أو حاول أن يقوم بحركة انتقام من أي نوع.

وكانت المرأة الصايعة قد انتهت من زينتها عندما أقبلت علينا تتقصَّع كأنها ممثلة سينما ... وبدت تلك اللحظة بشعة كغوريلا مزوقة، ووقفت أمامنا فجأة ومدَّت يدها تطلب النقود وهمس غزالي في أذنها أن الحساب سيتم في الخارج وليس أمام الصدفي الغاضب المتحفِّز المطعون في كبريائه، ولكن الست رفضت بشدة أن تتزحزح خطوة إلا بعد أن تحصل على النقود.

ومد غزالي يده بالمبلغ الموجود، ولكنها شهقت وتقصَّعت وألقت بالمبلغ على الأرض وطلبت عشرة جنيهات لا تنقص مليمًا وإلا فالويل والثبور وعظائم الأمور!

وضحكتُ أنا وغزالي، فلم نكُن في هذه اللحظة قد رأينا عشرة جنيهات كاملة، وكان اليوم آخر شهر ولو أننا فتَّشْنا الجيزة كلها فلم نكُن نعثر على عشرة جنيهات.

ولقد كنا متعبين للغاية بعد أحداث تلك الليلة الحافلة ... ولم نكُن قادرين على النِّقاش، كما أننا لم نكُن مستعدين لمواجهة امرأة متنمرة وفي بيت رجل أكثر تنمُّرًا!

ولذلك — وبدون اتفاق — فتحنا الباب فجأة بعد أن جمعنا النقود المبعثرة على الأرض وانطلقنا هاربين إلى الشارع، ولكنا لم نبتعد كثيرًا حتى توقفنا في عرض الطريق نستمع إلى الصراخ الذي انبعث من داخل المنزل، ولم يكُن الذي سمعناه هو صراخ المرأة، ولكن صراخ الصدفي!

هذه إذَن هي نهاية الصدفي في هذا اليوم المشئوم! ليلة معذبة بالنسبة له وصُبح أغبر! ولكن الصراخ لم يلبث أن تلاشى ثم هدأ كل شيء.

وتوقعنا أن تخرج المرأة ولكنها لم تفعل، ولمَّا طال غيابها جلسنا على قهوة الحريري القريبة وطلبنا إفطارًا وشربنا الشاي واشترينا علبة سجائر كاملة، وجلسنا ندخِّن في هدوء ... كأننا نستقبل يومًا جديدًا من أيام الحياة في ثقة زائدة.

وفي الظهر خرجت المرأة الصايعة ومعها الصدفي، ووقف معها على محطة الترام حتى ركبت، ولمَّا انطلق بها الترام رفع يده يلوِّح لها كأنه صديق يودِّع صديقته العزيزة وهي تبدأ رحلة ميمونة إلى باريس.

أغرب شيء أن الست الصايغة لم تنقطع عن الجلوس في كازينو شهريار، ولكنها كانت كلما رأتني أنا وغزالي أشاحت عنَّا بوجهها: رغم أن الرجل الرزين أستاذ الجامعة قد تنازل عن كبريائه وتجاهل مركزه الاجتماعي وقضى معها ليلة بأكملها في الكازينو يعتذر لها، ثم اختفت الست من حياتنا ومن الكازينو بعد ذلك ... ثم علمنا أنها تزوجت!

وممَّن؟

من أستاذ الجامعة الرزين نفسه! ودنيا عجيبة وواقع ... ولكن أغرب من الخيال!

لذلك كان عرض الرجل الطيِّب بالزواج موضع دهشتي! فهو أعلم الناس بظروفي كما أنه يعلم تمامًا أنه ليس في حياتي امرأة! وعندما سألتُه عن سبب هذا العرض قال على الفور، أنت محتاج إلى امرأة إلى جوارك، موهبتك ينقصها التنظيم، لو أنك حصلت على كفايتك من النوم وكفايتك من الطعام لاستطعت أن تُنتج شيئًا أعظم، إنك مادة خام طيِّبة وفي حاجة إلى مَن يبنيك!

وعندما سألته: ولكن أين هي الزوجة التي ترضى بهذه الصفقة الخاسرة؟

أجابني في هدوء وقد رفع وجهه عن الكتاب الذي يقرؤه: صفية!

وكانت صفية امرأة رغم أنها لم تتزوج قط، وكانت من أسرة ثرية، وتتمتَّع بروح متشرِّدة، وكانت تتردَّد على دور الصحف مقنعة نفسها أنها مثقفة وأنها عالمة، وأن عليها واجبًا ثقيلًا هو تعليم الشعب ورفع مستواه، وكانت متبجِّحة لا تدرك كم هي غبية وحمقاء ومزيفة! وكان الشعب في نظرها هو مجموعة المثقفين الذين تجلس معهم وهم شلة الأفندية الذين تقضي أوقاتًا سعيدة في صحبتهم.

ولَّما أبديتُ له رأيي في صفية، قال في حسم، تتزوَّج لا لتُصلح أحوال الكون، ولكن لتُصلح من شأنك وأنت في حاجة إليها لمدة عامين أو ثلاثة، ثم تصرَّف بعد ذلك كما تهوى!

ورُحتُ أفكِّر في الأمر ... وبعد أسبوع وافقتُ على العرض ولم يبقَ إلا التنفيذ ... وتمَّ الأمر في هدوء ... سحبها الرجل الطيب إلى كازينو شهريار ذات يوم لكي تتعرَّف عن قرب إلى الولد الشقي الذي سيكون زوجًا لها في المستقبل ودعوتها أنا على الغداء، فتة ولحمة راس وطرشي بلدي، وجلسَتْ تتفرَّس في الطعام كأنها خوجاية من بلجيكا تشاهد قطعة أنتيكا مصرية لأول مرة! ثم صحبتها في جولة داخل الجيزة وهي مدهوشة لِما ترى ولِما تسمع، وانطلقتُ على سجيتي أنكِّت وأضحك وأصافح كلَّ مَن ألقاه من أبناء البلد الطيِّبين، ويعلم الله كيف استدنت لأواجه نفقات هذه الدعوة، فقد أنفقتُ يومها ما يقرب من جنيه!

وفي المساء انصرفَت الست صفية، ثم علمتُ في اليوم التالي أنها رفضت، والسبب ... أنني بلدي.

ولقد حدثت هذه المسرحية بين الست صفية وثلاثة شبَّان آخَرين غيري، أحدهم الآن نجم من نجوم السياسة في مصر، والآخَرون من رجال الأعمال الناجحين للغاية، وقد رفضتهم الست جميعًا.

وأنا أدرك السبب الآن، فلقد كانت صفية تتمنَّى من أعماقها أن تتزوج الرجل الطيب! وإلى هذا الحد كان الرجل الطيب يعرفها، ولذلك آثَر أن يبتعد عنها، ولما يئس من العثور لها على زوج مناسب، تزوَّج الرجل الطيب فجأة وغادر مصر إلى الهند وقضى هناك سنوات طويلة، ولا تزال الست صفية وهي الآن في خريف العمر — تنتظر الزوج المناسب! ولكنها لم تعُد نفس السيدة التي كنت أعرفها من قبل، ذبلت وجفَّت وانزوت، وأصبحت كقطعة قماش قديمة ممزَّقة وباهتة اللون!

ولقد غادر الرجل الطيِّب مصر فجأة ذات يوم من عام ١٩٤٨ وكانت حرب فلسطين على الأبواب، ولقد حضرنا اجتماعًا ساخنًا في فندق شبرد حضره «زعماء العروبة» وقتئذٍ، وفي نهاية الاجتماع أخرج أحدهم مسدسه وأطلق منه عيارًا في الهواء، وقال كلمة صارت مثلًا: تكلَّمَ السيف فاسكت أيها القلم!

وكتبتُ يومئذٍ كلمة قصيرة عن الاجتماع، وعلَّقتُ في نهايتها على الكلمة المأثورة التي أطلقها الزعيم إياه!

تكلَّمَ السيف فاسكت أيها القلم!

وقلت: وسكت القلم، وتكلَّم السيف ... سيف الإسلام عبد الله!

مجرَّد نكتة حزقتني ولكنها كانت الحقيقة المرَّة، وشعرتُ بضياع شديد وفراغ لا حدَّ له بعد سفر الرجل الطيب.

ها أنا ذا وحدي مرَّة أخرى بلا أي سلاح، والرجل الطيِّب غادر مصر إلى الهند، ويبدو أنه سيغادرها نهائيًّا، ولكن أنا محكوم عليَّ بالبقاء في الحضيض إلى الأبد.

فلا أنا أستطيع أن أجد مكانًا لقدمي في الزحام، ولا أنا أستطيع أن أبحث عن هذا المكان بعيدًا عن مصر، وفكرة الهجرة نفسها لم تكُن تروق لي، فأنا أشعر بارتباط حقيقي وبحنين جارف إلى الأرض، ولا يوجد مكان في الحياة يستطيع أن يعوِّضني عن حَوَاري الجيزة وميدان الساعة وشريط الترام وشاطئ النهر.

وطاف بخاطري أن أعود مرَّة أخرى إلى الوظيفة، ولكن سُرعان ما تخلَّيتُ عن هذه الفكرة نهائيًّا، فأنا لا أطيق الحركة في نطاق روتين لا يتغيَّر، كما أنني لا أتقيَّد بمواعيد، ولا أحسن عملًا أُجبَر عليه، وأنا في حقيقة أمري صايع أكتب أحيانًا، ولو تُرِكَت لي حرية

الاختيار لاخترتُ أن أكون مجذوبًا أطوف حول ضريح السيدة أصرخ في الليل كالذئاب بكلام غير مفهوم.

وألذ لحظات حياتي هي تلك التي أقضيها وأنا على سفر، وفي أي لحظة أستمع فيها إلى صفير قطار يسابق الريح أحسُّ برغبة شديدة في البكاء، وكلما رأيتُ طيارة تحلِّق في الجو انتابتني حالة غريبة، فأتوقَّف عن السير وأظل رافعًا رأسي إلى أعلى أتتبعها حتى تختفي عن ناظري.

وأعظم أغنية حرَّكَت مشاعري وأنا طفل وألهمتني لحظات عظيمة من الكآبة والحزن كانت أغنية شائعة منذ أكثر من ثلاثين عامًا في مصر ... وكانت كلماتها تقول: «يا طير يا مروح على بلدك ليه بتنوح؟!»

الوظيفة إذَن لا تصلح لي، وأنا لا أصلح لها.

وهكذا عُدتُ من جديد إلى الجيزة، وإلى شارع عباس ... وإلى رجل كانت تربطني به صِلة صداقة عميقة، ويشدُّني إليه إعجابي به على نحو ما ... ولكني عُدتُ إليه وقد تغيَّرَت سحنتي وتغيَّرَت هيئتي، عُدتُ إليه وقد غيَّرَت مني الأيام، وأكلَت مني الأحداث، وشيَّبَتني الأيام السُّود التي عاصرتُها.

وهكذا عُدتُ إلى الجلوس على باب دكان عبده المكوجي ... عُدتُ إلى عالَمي العجيب الرائع، عالَم حسنين الطبَّاخ وصابر السفرجي، والمعلم قطب.

ولكني ولأول مرَّة في حياتي بدأتُ أخشى المستقبل ... وأتحسَّس طريقي وسط الظلام الذي لا تبدو من ظلامه بارقة أمل ضئيلة!

وذات صباح وصلني خطاب خلَّصَني من قلقي وهمي، وكان الخطاب من جهة رسمية، ويحمل ثلاثة سطور لا غير، وكان يدعوني إلى التجنيد الإجباري في صفوف الجيش.

٦

كان استدعائي للجيش حلًّا لجميع المشاكل، وكنت فخورًا على نحو ما، ولأنني ضمن أول دفعة تدخل الجيش بعد إلغاء نظام البدل ... وهكذا غادرتُ الجيزة ذات صباح بعد أن استعرتُ بالطو قديم من أحد أصدقائي، وسافرتُ إلى قريتنا وقضيتُ في القرية عدَّة أيام استراحت فيها نفسي من القلق والعذاب ... ها هي ترعة سبك التي أحبها وكأنها كائن حي!

ففي قاع هذه الترعة كثيرًا ما قضيتُ أيام طفولتي ساعات طويلة أبلبط في الطين. ومن هذه الترعة أصابتني مأساة حياتي، البلهارسيا، والتي لم أفلح في التخلُّص منها إلا بعد عذاب.

وهنا الرياح المنوفي الذي أشم على شاطئه رائحة غريبة ليس لها مثيل في أي مكان، وهنا منازل الجدود والأعمام وقد رحل معظمهم عن هذه الحياة، وهنا الفلاحون الطيبون الخبثاء البلهاء أفقر وأتعس مخلوقات الله على هذه الأرض.

وفي هذه الأيام راقت في عيني بنت فلاحة تمنَّيتُ من أجلها أن أدخل الجيش وأتزوجها على أن تبقى في القرية وأزورها أحيانًا، وكانت مليحة وبضة وفيها ملامح ممثلة أمريكية شهيرة كنت أعشق أفلامها، وكان جمالها طازجًا وعفيًّا، وكانت جريئة تهوى المزاح والغناء، وكانت حين تغنِّي يسيل من صوتها المبحوح نبرات حزينة كأنها البكاء، ولكني رحلتُ ذات صباح من القرية دون كلمة وداع من البنت الفلاحة، ولم أرحل وحدي ولكن مع قافلة حزينة من عشرة شبان فلاحين، صادق ويوسف وجاد الحق وآخَرين.

وكان بعضهم أصدقائي، والبعض الآخَر أراه لأول مرة، وخرجتُ أنا على رأس الموكب أركب حمارًا وفلاح قريبي يجري من خلفي، وخرج جدي الشيخ خليل يودِّعنا حتى شاطئ الرياح، ثم منحني جنيهًا وتمنَّى لي السلامة ... وعاد! وخطفتُ نظرة على جدي وهو يحثُّ

الخُطا نحو القرية، وأدركتُ عندئذٍ أنني أنتقل إلى حياة جديدة مختلفة، وأنني لأول مرة أواجه المرحلة الجديدة بلا أصدقاء.

كانت الشمس على وشك أن تتوسَّط السماء حين وصلنا إلى مركز بوليس الباجور، وفي دقائق انتهت إجراءات تسليمنا وصافحنا الخفراء ومضوا، وواجه شاويش المركز مشكلة وجودنا في المركز حتى الصباح، وراح يسأل كل مسئول عن المركز عن حل مناسب للمشكلة، كانت المشكلة تتلخَّص في أننا عهدة لديه، وكان السؤال: هل يُلقي بنا في الحجز؟ ولكننا لسنا وش ذلك كما أفتى أحد الصولات الطيبين! إذَن هل يتركنا نتجول في فناء المركز؟ ولكن مَن يدري ... فقد يهرب أحدنا، خصوصًا أن بعضنا كان يبكي بحرقة وكأنه ذاهب إلى الإعدام.

وفي المساء ذهب الشاويش وأحضرَ كاتب المركز، وهو رجل مسئول خطير المسئولية، وكان شابًّا صغيرًا حديث العهد بالوظيفة، عندما وقع بصره علينا، صاح على الفور: «ارموهم في الحجز» وعلى الفور انطلقت الصيحات والنبي يا بيه احنا غلابة، نبوس رجلك يا بيه ربنا يخليك ... وانقلب المركز إلى مناحة، ولكن البيه لم يتزحزح خطوة ... وأصرَّ على موقفه وكان لا بد من تنفيذ الأمر.

وانهالت الكرابيج فجأةً تمزِّق الهواء وتمزِّق الجلود، وسرعان ما هدأت الضجة، وانفتح باب السجن الكبير ليدخل عشرة رجال سيصبحون بعد أيام عساكر في جيش مصر! وقبل أن نخطو داخل الزنزانة القذرة المعتمة ناداني الأفندي الكاتب وقال وهو يهزني برفق: إنت مش محمود؟ ولَمَّا أجبتُ بالإيجاب صافحني بحرارة ... وتبيَّنتُ وأنا أتفرَّس في وجهه أنه فخري صديقي القديم وزميلي في مدرسة المعهد العلمي. وقضيتُ الليل كله في حجرة فخري نشرب الشاي وندخِّن السجاير، ونستعيد ذكريات الشقاوة في شارع سلامة أيام التلمذة ولأجل خاطري أفرجَ عن الآخَرين وسمح لهم بالنوم في فناء المركز على ضمانتي.

وفي الصباح أوصى الشاويش الذي صحبنا إلى القاهرة أن يعاملني معاملة كريمة، وسِرنا من جديد إلى محطة السكة الحديد، الفلاحون مُقيَّدون بالحبال، وأنا أسير بجوار الشاويش نتبادل الحديث والسجاير والفلوس أيضًا، فقد حدث أن وقفنا ننتظر القطار في محطة بنها، وكان علينا أن ننتظر لمدة ساعة واستأذنتُ من الشاويش لمدة دقائق أزور خلالها خالتي التي تسكن في بنها، وعندما عُدتُ لم أجِد أحدًا في المحطة، واكتشفتُ أنني تأخرت كثيرًا وأنني تحت إلحاح خالتي تناولت طعام الفطور وشربتُ الشاي ثم خرجتُ أتجوَّل في شوارع بنها قبل أن أذهب إلى المحطة، وركبت القطار الآخَر وفي نيتي أن أفعل

شيئًا ... إذا وجدت القافلة في انتظاري في محطة مصر كان بها ... وإذا لم أعثر فالفرار إذَن هو الشيء الوحيد الذي يجب أن أفعله. فلقد عانيت كثيرًا خلال الساعات الأخيرة، وشعرت بمرارة من منظري وأنا أزحف إلى جوار الشاويش ومن كلمات النفاق التي تناولناها خلال الرحلة، وهي كلمات زائفة، وباردة، كما أنني لم أكُن تعوَّدتُ قبل ذلك أن أنهض بأمر وأسير بأمر ... وأتوقَّف بأمر، وإذا كان هذا هو الحال والأمر وأنا في يد البوليس، فكيف يكون الحال عندما يصبح في يد الجيش؟!

دخل القطار محطة مصر ... ورحت أتلفَّتُ على الرصيف، ولكني لم أعثُر على أحد هناك، وعندئذٍ قرَّرتُ أن أهرب ... ولكن إلى أين ... إلى الجيزة؟ إنهم سيبحثون عني حتمًا في الجيزة وسيقبضون عليَّ ... إذَن أهرب إلى مكان آخَر، ولكن أين هو هذا المكان؟ ورُحتُ أستعرض في ذاكرتي كلَّ الأماكن التي أستطيع أن أهرب إليها، ولكن قبل أن أستقرَّ على مكان لمحتُ ضجَّة من بعيد، وصراخ يتصاعد في فناء المحطة ... وشدَّني فضولي إلى هناك ... وهو فضول سيسبِّب لي متاعب لا حصر لها في المستقبل، واخترقتُ الحلقة المضروبة حول الرجل الذي يصيح وعندما أصبحتُ أمام الحلقة، اكتشفتُ أنني أصبحت وجهًا لوجه أمام الشاويش ... وأنه هو نفسه الذي يبكي ... ومدَّ يدًا عملاقة جبارة وقبض على عنقي، وعبثًا حاولت أن أخلِّص نفسي منه دون جدوى، ولم يترك عنقي يفلت من بين أصابعه إلا في معسكرات الجيش.

كان المعسكر الذي ضمَّنا يقع على مشارف الصحراء في أطراف العباسية وكان اسمه معسكر العزل.

ومن أول دقيقة تم تفنيطنا ... وعزلوني بعيدًا عن زملاء الرحلة، ووضعوني في خيمة مع سبعة أفندية متعلِّمين، هم حصيلة هذا اليوم من المجنَّدين أصحاب المؤهلات ... كان الأفندية السبعة كلهم من الريف، وأبناء عم جميعًا، ومستورين، وكانت أُسَرهم قد انتقلَت إلى المدينة خلفهم ساعين بالوسائط والشفاعات لدى أصحاب النفوذ ليخرجوا «الأولاد» من هذه المحنة.

وكان المعسكر يسلِّم روَّاده ماركات بخمسة قروش ليشتري من البوفيه طعامه وشرابه ولكن سكان خيمتي كانوا يتبرعون بالماركات لشاويش المعسكر، الشاويش خلاف ... وهو رجل له صوت مكنة طحين خربانة، وقلب من بلاط، وعقل أغلب الظن أنه من مصاصة قصب، وكان شديد الزهو بهيئته، شديد الإصرار على تنفيذ الأوامر كما هي دون أدنى تقصير.

ورغم أنه فلاح فقد كان يحتقر الفلاحين من أعماقه، وكان يُطلق على زملائنا في المعسكر من أبناء الريف وصف الطلاينة، وكان يعتقد أن الطلاينة هم أسوأ ناس على ظهر الأرض، وكان يتردَّد علينا دائمًا أثناء تناول وجبات الطعام، وكان يتلكَّأ عندما ندعوه إلى الأكل معنا ثم يُقبِل بعد إلحاح، ولكنه بعد أيام، أصبح يهجم على الطعام دون دعوة، بل أصبح يوصي بأصناف معيَّنة، وأكثر من هذا كان يوجِّه نقدًا لبعض أصناف الطعام، ولم تكُن خيمتنا تستهلك من الطعام إلا ألذه وأشهاه: فطير مشلتت، فراخ محمرة، وعسل نحل، قشطة فلاحي، جبنة قديمة، بيض مسلوق، رز معمر! وكان خلَّاف يعشق الرز المعمر إلى درجة الجنون، وذات مساء أكَّد لنا ونحن جلوس أمام باب الخيمة أن الذي يأكل الرز المعمر في كل وجبة يعمر إلى سن المائة، ويبقى في صحة جيدة إلى آخِر يوم من أيام العمر، وأن معنى معمر مأخوذة من العمر الطويل، وفي ذلك المساء نهض خلَّاف فجأة في منتصف الليل وأطلق صفارة طويلة وسرعان ما استيقظ جميع الوافدين للتجنيد، ولما سألتُه عن السبب قال في هدوء، عشان يلموا ورق! ولما لم يكُن هناك ورقة واحدة في أنحاء المعسكر، فقد هزَّ خلاف رأسه وقال: يلموا أي حاجة دول طلاينة!

وخلال سبعة أيام في المعسكر رأيت أشياء عجيبة، المجنَّدون — ما عدا الأفندية — تحولوا إلى مجموعات، أبناء المنوفية وحدهم، وأبناء الشرقية وحدهم، والصعايدة وحدهم، ولكن أنشط وأعظَم مجموعة كانت تضمُّ أبناء الإسكندرية، ولقد جاء أبناء الإسكندرية إلى المعسكر ليس كما يجيء الناس، جاءوا فرادى ومع كلٍّ منهم عسكري، وفي يد كلٍّ منهم جوز كلبشات وأمر من البوليس بمراقبة النفر، فإذا دخل الجيش كان بها، وإذا أُعفِي من التجنيد فلا بد من تسليمه للبوليس، واكتشفت أنهم جميعًا من بحري والأنفوشي، وأنهم جميعًا مراقبون بعد سجن طويل من أجل جرائم لا تمس الشرف، وكانوا يسهرون الليل بطوله مضفين على جو المعسكر ساعات من البهجة والمرح وكانوا جميعًا يحفظون ألحان سيد درويش، ويتعصَّبون لكل ما هو سكندري.

وكانت الإسكندرية في رأيهم هي مركز الكون ومحور العالم، كما أن أهلها هم أذكى ناس على ظهر الأرض! وكانوا يحتقرون الشاويش خلَّاف بشدة، ويتعمدون عدم تنفيذ أوامره، وكانوا يسمونه القُفَّة ردًّا على تسميته لهم بالطلاينة، ولكن رغم هذا التحدي فقد سارت الأمور عدة أيام في هدوء قبل أن ينفجر الموقف داخل المعسكر ... ورغم رذالة الشاويش خلَّاف فإنه كان محتملًا، فقد كان خفيف الدم، وكانت تطلُّعاته محدودة، ومطالبه سهلة ولكن الصول شفيق كان أكبر مصيبة حطَّت علينا نحن الأفندية.

كان يسهر معنا طول الليل مصرًّا على أن يقرأ علينا كشاكيل ضخمة من إنتاجه الأدبي ... وكان مصرًّا على أنه لو صادف بعض الحظ الحسن في الحياة لأصبح مثل طه حسين والعقاد، وكان يحلم بأن يترك الخدمة يومًا ما ليصبح كاتبًا كبيرًا ذائع الصِّيت. وعندما قرأ أول سطر في الكشكول الضخم الذي سحبه علينا، تبيَّنتُ كم هو مُدَّع وكاذب مهبول: «بينما كنت أسير في منازل الزرع الأخضر، بين النسيم العليل والهواء البليل والطيور تغرِّد على أفنانها، والحيوان يتبخطر في أرجائها» ... وسكت فجأة ليسألنا سؤالًا مفاجئًا، عارفين يتبخطر يعني إيه؟ وأجاب بنفسه على الفور، يعني يتمخطر، شايفين الفن؟! ولم يكُن في كلامه فن ولا حتى صنعة، ومع ذلك ظلَّ يقرأ علينا كل يوم كشكولًا ضخمًا، ونحن نستمع إليه في أدب وفي خوف، وكنا أحيانًا نردِّد أمامه عبارات الإعجاب وكان هو ساذجًا ومغرورًا إلى حد أنه صدَّق كلَّ حرف قُلناه!

وذات صباح نشبَت المعركة في المعسكر، طلب الشاويش خلَّاف من أبناء الإسكندرية أن يجمعوا الورق، ولَّما لم يكُن هناك أي ورق، فقد رفضوا تنفيذ الأمر، ومدَّ الشاويش يده ولهف أحدهم قلمًا ولكن قبل أن تصل يده إلى المكان الذي اعتادت أن تصل إليه، كان الشاويش خلَّاف قد أصبح جثة ممددة على الأرض والدماء تنزف من كل جزء فيه، وطاح عيال إسكندرية في المعسكر كله، وضربوا الشاويشية والصول والمجندين، وزعق النفير: كبسة! وتدفَّقت قوات كبيرة حاصرت المعسكر، وسرعان ما هدأت المعركة، وتم عزل أبناء الإسكندرية في معسكر آخَر قريب.

وذهبنا للكشف الطبي في النضارة، ووقفنا جميعًا عرايا في حوش واسع تنبعث منه روائح كريهة أشبه بالروائح التي تنبعث من بيت الأسد في حديقة الحيوان، وعندما عُدنا إلى المعسكر كنا قد أصبحنا جنودًا في الجيش، أما الآخَرون فقد أطلقوا سراحهم بعد الكشف، ولم يعُد معي من أبناء بلدنا إلا واحد فقط، والباقون جميعًا شرك، وكان السبب واحدًا: ضعف الرؤية إلى درجة العمى!

ولقد أتيح لي أن أعيش عشرين يومًا في المعسكر ثم استطاع أحد أفراد أسرتي وهو مستوظف، وكان على علاقة بأحد الأحزاب، استطاع أن ينتزعني من المعسكر ومن الجيش كله لأعود من جديد إلى الجيزة تحت الطلب! وكانت تحت الطلب تعني أنني أكون مستعدًّا دائمًا لدخول الجيش عند أي لحظة خطر يتعرَّض لها الوطن! وهي نكتة بالطبع لأنني خرجتُ من الجيش والوطن يتعرَّض فعلًا للخطر، ولم أكُن أنا وحدي الذي خرجتُ، خرج معي كل الأفندية، وتركنا الطلاينة خلفنا للشاويش خلَّاف وللصول الذي يحلم بالشهرة عن طريق الأدب.

وخرجت من المعسكر إلى دكان عبده بكر، وبعد شهر واحد أصبحتُ محرِّرًا في دار الهلال، ولكن خلال هذا الشهر وقع حادث غريب، فقد هبط عليَّ ذات مساء شاب كان يعمل معنا لفترة في مسامرات الجيب، وكان اسمه خلف وكان وسيمًا وصحيح البدن وله هيئة وشكل أبناء الذوات الهنود، وكان يعمل محاميًا ولكنه صادف كثيرًا من المتاعب فلجأ إلى الصحافة وكان قريبًا إلى قلب الرجل الطيِّب، ولقد نصحه الرجل الطيِّب بأن يتجه إلى الترجمة، وكان رأي الرجل الطيِّب أن المترجم الذي ينقل أدب الشعوب إلى لغتنا ينبغي أن يكون أديبًا وفنَّانًا ومحبًّا للشعب.

ولقد وافق خلف على هذا الرأي فعلًا وانهمك في ترجمة كتاب لدستوفسكي، ولكنه سرعان ما هجر دستوفسكي إلى سمرست موم، ثم هجر الجميع إلى كاتب فرنسي وترجم له فصولًا من كتاب فلسفة الحب! ثم ما لبث أن اختفى نهائيًّا من المجلة ولم أرَه بعد ذلك إلا عندما هبط علينا في دكان عبده بكر.

ولقد ارتعتُ بشدة عندما رأيته، كان يبدو عليلًا ومنهكًا للغاية، وكان منظره يدعو إلى الأسى، وعيناه متقرِّحتان، وفي وجهه بثور، وحذاؤه مخبوط ومضروب في أكثر من موضع ... وبنطلونه ممزَّق وجاكتته باهتة اللون وقميصه مُمَزَّق كأنه خارج لتوِّه من خناقة حامية، وعندما استفسرتُ منه عن حاله لم يتكلَّم ... آثَرَ الصمت البليغ وسرح في ملكوت الله ... وبدا لي وأنا أتفرَّس فيه كأنه مجذوب يعيش حول ضريح سيدنا الحسين.

وفي آخِر الليل طلب منَّا أن نسمح له بالنوم في دكان عبده حتى الصباح ... ورفض عبده في أول الأمر، ظنًّا منه أن خلف لا بد أن يكون لصًّا عريقًا اعتاد الإجرام، وهاربًا من البوليس ويبحث عن مكان يلجأ إليه ... وفي النهاية وافق بشرط أن يغادر الدكان في الصباح الباكر قبل أن يكتشف وجوده أحد ... ومع ذلك فقد نام خلف في دكان عبده أسبوعًا كاملًا، وكان أكثر المتحمِّسين له عبده نفسه، وكان شديد الكرم معه، يشتري له الطعام ويعد له الشاي ويمده بين الحين والآخَر بالسجائر.

ولكن عبده الذكي كان يرمي إلى شيء آخَر، فقد كان عبده هاويًا للمسرح وكانت له فرقة مسرحية خاصة به، وأراد أن يستغل خلف في تأليف الروايات ... ولكن خلف المسحوق تمامًا لم يستطع أن يكذب طويلًا على عبده، ولم يلبث أن غادر الدكان ذات صباح ولم يعُد، ولقد عرفتُ من الرجل الطيِّب بعد ذلك أنَّ خلف فقدَ عقله، وأنه نزيل مستشفى المجاذيب، ثم عرفتُ بعد ذلك أنه مات في الطريق، صدمَتْه عربة في مصر الجديدة ولفظ أنفاسه على الفور.

ولقد قُدِّرَ لي أنا أيضًا أن أغادر دكان عبده المكوجي إلى غير رجعة، وبعد رحلة قصيرة إلى دار الهلال ومقابلة لم تستمر طويلًا مع رئيس التحرير، وحديث قصير بالتليفون من إسماعيل الحبروك، أصبحت محررًا في دار الهلال ... ولقد بدت دار الهلال أمام عيني شامخة وجليلة، والدار نفسها كانت نظيفة والرخام يلمع بشدة والسكون يشمل كل شيء على غير عادة دُور الصحف وكأننا في مستشفى من مستشفيات العاصمة الأنيقة.

ولقد تحدَّث معي رئيس التحرير حديثًا خاطفًا ولكنه بَلْوَر ولخَّص فيه كل فلسفة دار الهلال وكل أهدافها: نحن هنا نهتم بتسلية الناس، وعلينا أن نقدِّم للقارئ كل ما ينشده، إنه يبحث دائمًا عن كل شيء طريف! ولم أفهم وقتئذٍ ما هي الطرافة، وحسبتُ أنه يقصد الظرف وأن الشيء الطريف هو الشيء الظريف ... وعندما استفسرتُ عمَّا يقصده رئيس التحرير، أجابني أحد المحرِّرين بحماس، يعني لازم تجيب شيء جديد، القارئ يحب الجديد، وضرب لي أمثلة حية من إنتاجه هو شخصيًّا.

وسحب عددًا من مجلة الاثنين ... وراح يتصفَّحها ببطء ثم توقف عند صفحة معيَّنة وقال: بص، دا موضوع طريف، أنا عامله! وكان الموضوع في دولاب ممثلة شهيرة، وعدة صور عن ملابس الشتاء القادم ثم الممثلة نفسها وهي تعرِّي فخذيها، ثم الممثلة أيضًا وقد برز صدرها للهواء النقي!

ورأيت توقيع المحرر «بقلم طلال مرزوق» واندهشتُ لأنه لم يكُن في الصفحة أي شيء بقلم هذا الأستاذ، والموضوع المنشور كله بعدسة المصور، ولكن المجد كله للأستاذ مرزوق.

وتنهَّد الأستاذ بعد أن انتهى من شرحه العملي، ورفع سماعة التليفون في رشاقة وطلب الست الممثلة، وراح يدردش معها دردشة طويلة عن الموضوع، وما بذله في سبيل نشره وانتهى الكلام بموعد مع الممثلة في المساء، وعندما نهض واقفًا نظر نحوي في زهو ممتزج ببلاهة، وقال قبل أن يغادر الحجرة، إذا كنت عاوز أي حاجة أنا تحت أمرك ... ثم قذف أمامي بكارت ... وعلى الكارت كان اسمه بارزًا بحروف صفراء في لون الذهب، الأستاذ مرزوق، صحافي! ووضعت الكارت في جيبي وتمنَّيتُ أن يكون لي مثله في قادم الأيام!

كان فوج المحرِّرين الجدد الذين اقتحموا دار الهلال أخيرًا يتكدَّس أفراده جميعًا في حجرة واحدة، وكان منظر الحجرة الخشن البائس يُوحي للزائرين أن هذه الحجرة قد انفصلت نهائيًّا عن دار الهلال، كما أن كل الأصوات النشاز التي كانت تتصاعد في جو الدار الهادئة هدوء المقابر كان مصدرها هذه الحجرة التي أصبحت مقرًّا لهذا الفوج البائس من المحرِّرين الجدد.

وكانت النظرة الأولى إلى هؤلاء المحرِّرين تؤكد أنهم حديثو الصِّلة بالدار، فقد كان المحرِّرون القُدامى جميعًا يرتدون قمصان حرير وبِدَلًا أنيقة وأربطة عنق غاية في الحلاوة والجمال، وكان أحدهم واسمه نصرت عبد الحليم يرتدي نظَّارات ملوَّنة ويضع السيجارة دائمًا بين شفتَيه ويتكلَّم من طراطيف أنفه ويفلسف كل شيء وكأنه الفيلسوف جان جاك روسو نهض من قبره فجأةً ليهدي البشرية إلى طريق السلام.

وكان الأستاذ نصرت قد كتب عدَّة قصص قصيرة في مجلة الاثنين الواسعة الانتشار فأصبح نجمًا من نجوم المجتمع المصري ولكن لعدة شهور، ثم ما لبث أن اختفى اسمه من المجلة ثم اختفى هو نفسه من المجتمع، وقنع بركن في كازينو أوبرا كل مساء يدخِّن فيه الشيشة ويجتمع ببعض الأصدقاء الذين كانوا يؤمنون بعبقرية الأستاذ، ورغم انطفاء اسمه وذبول أحلامه في الشهرة والانتشار إلا أن وظيفته في دار الهلال كانت تُتيح له سيطرة كاملة على المحرِّرين، فقد كان يقوم بدور المراجع، وكان يستطيع أن يمنحك مائة جنيه كلَّ شهر، أو يمنحك نصف جنيه فقط لا غير لو أراد … ولذلك كان يقضي الساعات الطويلة في الحجرة البائسة مع قطيع المحرِّرين الجدد يحكي لهم أمجاده العريضة في الصحافة، ويصحِّح لهم معلوماتهم الخاطئة عن الحياة، وكان يصحبه خلال هذه الساعات صمت عميق من جانب المحرِّرين … ويضمن أيضًا نفاقًا لا حدَّ له من جانب البعض الطامع في مزيد من عطف الأستاذ ومزيد من فلوس الدار.

ولكني اكتشفت من أول لقاء أن الأستاذ فاضي تمامًا من كل ثقافة، وخاوي تمامًا من كل موهبة … وأنه قبل مجيئه إلى هنا كان باشتمورجي هرب من عيادة طبيب والْتَحق بدار الهلال كموظف في الإدارة، ولكنه استطاع بفضل نبوغه في النفاق أن يُنقَل من الأرشيف إلى التحرير، واستطاع أن ينشر عددًا من القصص … ثم ارتكب غلطته الكبرى عندما نسي أنه يحتل هذا المكان ليس بفضل عبقريته الفذة ولكن بفضل سلوكه كتابع أمين لأصحاب النفوذ في الدار … فلما شمخ بأنفه عليهم، عزلوه ببساطة وجرَّدوه من كل شيء … وأغلقوا عليه باب حجرة ضيِّقة ليراجع فيها أعمال المحرِّرين، غير أنه كان شديد الثورة ضد النظم القائمة في الدار، هذه النظم نفسها التي رفعته من كاتب في الأرشيف إلى كاتب قصة، وكان يزعم أن حقد أصحاب الدار عليه ليس إلا لكبريائه الوطني وثقافته العريضة!

وكان يحلم دائمًا بإصدار مجلة تقضي على مجلة الاثنين ثم تقضي على دار الهلال نفسها، وكان يؤكِّد دائمًا أن لديه مائة قصة جاهزة لنشرها في المجلة المزعومة!

ومضى شهر كامل وأنا أعمل في دار الهلال دون أن أعرف المبلغ الذي سأتقاضاه آخِر الشهر، كان عليَّ أن أقدم ما أستطيع من الموضوعات وكانت هذه الموضوعات تخضع لتقييم

وتقدير مدير التحرير، وكانت العلاقة بيني وبين مدير التحرير لا تسمح بالخوض في هذا الموضوع، فقد كان رجلًا قصيرًا مشوَّهًا وحاد المزاج، وكان يسهر في نقابة الصحفيين يلعب القمار حتى الصباح ولكنه والحق أقول كان على دراية بهذا النوع من العمل في دار الهلال فقد كان يعرف الخط العام للمجلة والسياسة التي ينبغي أن تسير عليها، وكانت كل اهتماماته محصورة في الطريف والظريف من الأمور، وكان كل أصدقائه من المقامرين، وكل صديقاته من بين بنات الكومبارس المتردِّدات على أستوديوهات السينما، وكان أحيانًا ينشر لبعضهن صورًا بالمايوه عند اقتراب فصل الصيف باعتبارهن من بنات الأُسَر التي اعتادت الاصطياف وكانت له بطانة من المحرِّرين يسهرون معه أحيانًا ويتكلَّمون باسمه أحيانًا.

وكان هؤلاء المحرِّرون ينفقون عن سعة، ويدخِّنون نفس الصنف الذي يدخِّنه مدير التحرير ويرتدون نفس الألوان التي يرتديها ... بل كانوا أحيانًا يقصُّون علينا نفس الحكايات التي يقصها عليهم، وعلى أنها حدثت لهم شخصيًّا وليس لمدير التحرير!

وجاء آخِر الشهر، ووقفتُ أمام عم حبيب صرَّاف الدار كبائع غلبان معكوم تحرِّي، وسألني عن اسمي عدة مرات، ثم ألقى نظرة على كشف أمامه، ثم أدخل يده في درج ... ثم أخرج رزمة أوراق مالية وراح يعدُ فيها، وأدركتُ أن الرجل أخطأ، فهو يعد أوراقًا مالية من فئة العشرة جنيهات، وأنا شخصيًّا لم أكُن أطمع في أكثر من ستة جنيهات أو ثمانية، هذا إذا كنت سعيد الحظ! ولكن عم حبيب واصل العد ثم راح يفرد الأوراق أمامي، أوراق بلغت خمسين جنيهًا ثم ورقة من فئة الخمسة جنيهات، ثم ورقتين من فئة الجنيه ثم أوراقًا صغيرة من فئة العشرة قروش، وكاد يغمى عليَّ ... فأنا لم أحلم أبدًا منذ أن احترفت الصحافة بأن أمتلك مبلغًا بهذا القدر، وأنا كنت أعتقد حتى هذه اللحظة أن الوزير يتقاضى خمسين جنيهًا في الشهر، وأن الملك يتقاضى أكثر من مائة جنيه ... وها أنا ذا في لحظة أقفز إلى درجة الوزير، وها هو عم حبيب يمنحني خمسين جنيهًا وأكثر مرة واحدة ... وأمسكت بالنقود في خوف ... وتردَّدتُ في التوقيع فقد كنت متأكدًا أن النقود ليست لي ... لعلَّها لرجل آخَر اختلط اسمي باسمه في ذهن عم حبيب.

وقرَّرتُ أن أصارح عم حبيب بالأمر؛ لكي أثبت له أنني رجل شهم وأمين ... ولا أقبل المال الحرام مهما كان قدره ومهما كان مصدره! ولكن عم حبيب شخط شخطة عنترية أفزعتني، ودعاني إلى التوقيع لأفسح المجال لغيري من المنتظرين، ووقَّعتُ فعلًا، ولهفت المبلغ وخرجت من دار الهلال أجري، كأنني قاتل تطارده عشرة كلاب متوحشة!

وسبعة أيام كاملة وأنا صايع في الشوارع دون هدف ... أرتاد البارات والمقاهي وأستعمل التاكسيات ... وأدخِّن السجاير الأمريكاني التي يدخِّنها طاقم المحرِّرين الملتف حول رئيس التحرير ... واشتريت لنفسي حذاءً جديدًا ... فقد كان حذائي القديم قد بلي من كثرة الاستعمال، وكانت المياه المتخلفة من الأمطار تتسرَّب إلى قدمي من خلال الثقوب الكثيرة التي طرأت عليه ... وكان لونه أجرب لم تعُد تنفع فيه الأصباغ ولا الورنيش ولقد ارتديتُ الحذاء الجديد داخل المحل، ثم قذفت بالحذاء القديم في الميدان الكبير وانصرفت هاربًا، وأحسستُ براحة لا حدَّ لها، وكأنني امرأة زانية تخلَّصت من جنينها الذي رُزِقَت به في الحرام.

وعُدتُ من جديد إلى دار الهلال ... عُدتُ إليها وقد تغيَّرت كثيرًا، واكتشفت خلال الأسبوع الذي مضى أنني أصبحت أكثر رقة وأكثر طيبة وأقل غلظة وأقل حِدَّة عن ذي قبل ... وجلست في سكون في ركن الحجرة أكتب، وقد اعتراني فجأة إحساس بأن ما أكتبه مهم، كنت أكتب موضوعًا عن فنَّان الشعب، الرجل أبو أرغول الذي يحتل كل أسبوع ركنًا في سوق الثلاثاء يغنِّي مواويل أدهم الشرقاوي ومسعود ووجيدة، ولقد وافق عليه رئيس التحرير بصعوبة، ووصفه بأنه شحاتة، وقال إن الفنَّان هو مَن يعمل في المسرح أو في السينما، أو البنت التي ترقص في الصالات ... ونطق الكلمة بإنجليزية ARTIST وقال إن الكلمة ينبغي عدم ابتذالها ... واستبدل العنوان بعنوان آخَر ... مطرب الشعب!

وفجأة هبط علينا محرِّر من طاقم المحرِّرين إياهم، وجلس أمامي، وتفرسني بشدة، وسألني وهو يهز رأسه ويغمز لي بعينيه: هيه مبسوط؟

– الحمد لله!

– رحمي بك عمل لك مبلغ محترم.

– آه فعلًا!

– شكرته ولَّا لا؟

– لا والله!

– شوف العبط ... مش تروح تشكره؟!

– بكرة بقى إن شاء الله!

– أقولك ... تعرف إسكابينو؟

ولم أكُن أعرف إسكابينو، ولم أكُن قد سمعتُ به من قبل، وخُيِّل إليَّ أنه محل جاتوه مثل جروبي ... أو كاتزانس، وربما هو قهوة مثل بوديجا والشمس ... ولما بدا جهلي الشديد، أضاف الرجل الخبير: إسكابينو بتاع الكرافتات!

وهززت رأسي وقلت كاذبًا: آه.

طيِّب فوت عليه بعد الضهر، عنده تشكيله جديدة رائعة، هات نص دستة لرحمي بك وروح بكرة اشكره.

ونهض الرجل الخبير على الفور ولم يترك لي أي فرصة للرفض أو للرد ... وجلست أفكِّر في هذا العرض المريب، نص دستة كرافتات لرحمي بك وأنا نفسي أرتدي بدل الكرافتة شيئًا يشبه الحبل. ولو عثرت على دستة كرافتات فمن المؤكَّد أنني سأستعمل بعضها وأبيع البعض الآخَر، كما أنني حتى هذه اللحظة لم أكُن قد تلقَّيتُ أي هدية في حياتي، ولم أكُن قدَّمتُ أي هدية لأحد على الإطلاق ... ثم هل هذه هدية؟ أم رشوة؟ وهل النقود التي قبضتها هي أجر ما كتبت ... أم في أموالنا حق معلوم لمدير التحرير المسئول؟ وهل هذا النظام معمول به هنا فقط أم في كل دُور الصحف الأخرى؟ وهل هذه هي الصحافة؟ وهذا هو الطريق الوحيد المؤدي إليها؟ أم ماذا؟

وقرَّرتُ في النهاية أمرًا ... لن أذهب إلى سكابينو ... ولن أهدي شيئًا لرحمي بك ... ومضَت الحياة عادية في دار الهلال حتى جاء أول الشهر ... وعندما وقفت أمام حبيب صرَّاف الدار اكتشفت أن المبلغ هبط من سبعة وخمسين جنيهًا إلى سبعة عشر جنيهًا، وهبط في الشهر التالي إلى ستة جنيهات، ثم إلى لا شيء في الشهر الرابع، وأصبحتُ محرِّرًا بلا أجر في دار الهلال ... واقتراحاتي كلها مرفوضة وموضوعاتي كلها مردودة وحركاتي كلها سخيفة ودمي بايخ وصوتي مزعج بشكل رهيب!

ورحت أقترض من المحرِّرين الرائجين، ثم رحت أتناول منهم أجرًا لقاء ما أكتبه لهم، وذاع صِيتي في الدار، فأصبحت «كاتب عمومي» أكتب موضوعات المحرِّرين لقاء أجر معلوم أتقاضاه آخِر الشهر ثم احتكر جهودي محرِّران أحدهما يعمل الآن مندوبًا للإعلانات وآخَر ضاع في الحياة وعاد إلى قريته بعد أن داخ دوخة الأرملة في مصر!

كان الرجل الأول شديد الذكاء شديد الطموح ولكن إمكانياته لم تكُن تُسعفه لتحقيق أغراضه ... وكانت كل حصيلته في الثقافة قبل أن يصبح محرِّرًا في دار الهلال هي عشر روايات جيب لأرسين لوبين، وروايات السينما المصرية، وكان واسع الاطلاع عليها، وعلى صِلة وثيقة بجميع مؤلِّفي الأغاني في مصر وكان يطلق عليهم وصف الشعراء ... وكان صديقًا لأحدهم وهو مؤلف وتاجر فراخ، وكان يكتب عنه كل شهر موضوعًا في المجلة، ويلتقط له صورًا وهو يؤلِّف إلى جانب أقفاص الفراخ وكان يكتب في الفرق بين صوت الديك وصوت الشاعر.

وكان الشاعر الفرارجي كريمًا فقد كان يُهدي المحرِّر إياه خمسة أجواز فراخ كل أسبوع، وكان المحرِّر كريمًا هو الآخَر، فكان يستولي على الهدية أسبوعًا، ويرسل بها إلى بيت مدير التحرير أسبوعًا آخَر ... وعندما اطمأنَّ إلى كفاءتي وإتقاني في العمل، ترك لي مهمة كتابة المواضيع وتسليمها باسمه وتفرَّغ هو لعمله الآخَر فقد أصبح مديرًا لدعاية شركة أفلام!

أما الرجل الآخَر فكان من الأرياف ... وكان مدرِّسًا إلزاميًّا قبل أن يعمل بالصحافة، وأغرب شيء أنه استقال من وظيفته ليتفرَّغ لعمله الآخر كسكرتير لوكيل عام أحد الأحزاب السياسية الكبرى، ومن خلال عمله في الحزب تسلَّل إلى دُور الصحف المختلفة، ومنها إلى دار الهلال ... ورغم أن الحزب الذي كان يعمل داخله كان حزبًا عقائديًّا، فإن اهتمامات الأستاذ حلمي كانت كلها نسائية، وكان وثيق الصِّلات بكل الجمعيات النسائية في مصر، وكان قادرًا على الحديث مع السيدات بالساعات دون أن يكل.

وكانت اهتماماته تافهة تدور كلها حول الطبيخ وأصناف الطعام والحلوى اللازمة لبناء الجسم، وكان يؤكِّد في كل مناسبة أن الأرز هو الطعام الكامل ... وأن الحلويات تُساعد على تكاثر الدم، وأن شرب الماء على الطعام يسبب كوارث عظمى، وأن الرجل الكامل هو الذي يأكل ثم يشرب بعد الانتهاء من الأكل بساعتين.

ورغم أن الأستاذ حلمي كان أعزب فإنه كان قد دخل تجربة الزواج مرتين! مرة في بداية الحرب العالمية الثانية وكان يسكن في حارة في عابدين وعلى رأس الحارة كانت إحدى الفتيات تبيع الجاز بدون كوبون وبسعر مرتفع، وكان حلمي يحصل لها على الكوبونات بنفوذه في دوائر وزارة التموين، وكانت تربح من وراء هذا العمل مبالغ طائلة، كان حلمي يحصل على بعضها مقابل خدماته.

ولقد تطوَّرَت الصِّلة بينهما إلى حُب ثم إلى زواج، ولكن حلمي سرعان ما سئم حياته فهجرها ... ولكن البنت الغلبانة التي جرَّبت الزواج من رجل يتمتَّع في الحياة بنفوذ لم تقبل أن تفرِّط فيه بسهولة وقاتلَت في سبيله بأسنانها وبأظفارها ... وأدى بها الأمر إلى انتظاره كلَّ صباح أمام دار الهلال، والصراخ داخل الدار! ورغم الفضيحة فقد أصرَّ حلمي على موقفه، ولم تجِد البنت بدًّا من رفع الأمر إلى القضاء ... وفعلًا ... حصلت على حُكم ضد علوي بالنفقة أو السجن.

ولَّما لم يكُن مع حلمي ما يدفعه، فقد ألقوا به ذات صباح في السجن ثم قبلَ العودة إليها فأفرجوا عنه، ولبث معها شهرًا ثم هجرها مرَّة أخرى ولكن بدون مشاكل ولا قضاء!

ثم تزوَّج مرَّة أخرى من بنت كومبارس جاءت إلى دار الهلال لتظهر في موضوع عن ملابس الخريف، وبعد الموضوع خرجَت البنت مع علوي إلى مأذون السيدة زينب ... وعادا في المساء إلى بيت حلمي زوجين سعيدين للغاية، ولكن يبدو أن الأمور تكشَّفَت لهما بعد ذلك، فانفصلا دون ضجة، فقد ظنَّت البنت أنها حصلت على الشهرة والمجد بزواجها من حلمي، وظنَّ هو أنه حصل على الاستقرار المادي بزواجه منها، ثم اكتشف بعد شهر أنها مفلسة، واكتشفت هي أنه هايف وتم الطلاق في هدوء وعاد يسعى من جديد على رزقه في دار الهلال.

ولقد كان حلمي نموذجًا غريبًا من البشر لم أصادف مثله في حياتي ... بل لعله أغرب نموذج الْتَقيتُ به في الحياة، ورغم أن والده كان من رجال الدين، ورغم أنه كان من بيت طيب، فإنه لم يكُن يشعر بخجل تجاه أي شيء ... وكان يقبل القيام بأي عمل لرؤسائه حتى ولو تحوَّل إلى قوَّاد دون أي غضاضة! ورغم أنه كان يصنع أي شيء وكل شيء فإنه لم يكُن طمَّاعًا أو طموحًا ... فلم يكُن يهدف إلى شيء إلا أن يعيش في هدوء.

وكانت كل أمنيته في الحياة أن يعيش في شقة بمفرده ... وأن يصبح دخله ثلاثين جنيهًا كل شهر، وكان يتمتَّع بقوة ثور ولا يشكو من مرض على الإطلاق، وكان يبدو لاهيًا وسعيدًا ومبسوطًا رغم المشاكل العديدة التي تلاحقه في كل مكان ... ولقد تسبَّب في انقسام مروع داخل الحزب وتسبَّب في طرد وكيل الحزب وعدد من أعضائه الكبار، ولكنَّه لم يشعر بالذنب أبدًا، وكان يلقي اللوم على عقلية زعماء الحزب التي لا تريد ولا تقبل أي جديد، ولم يكُن هذا الجديد سوى شقة استأجرها حلمي في ميدان شهير وكان وكيل الحزب يتردَّد عليها، وكان حلمي يتولى إعداد كل شيء من النساء إلى الخمور إلى الحشيش.

ومع النساء والحشيش كان وكيل الحزب يجمع أنصاره داخل الحزب لمناقشة الأمور السياسية، ولاتخاذ موقف موحد يهدف في النهاية إلى خلع رئيس الحزب وبعض أعوانه، وذات مرَّة تسلَّل واحد من أنصار رئيس الحزب إلى الشقة وصادق حلمي وأغدق عليه بالفلوس والهدايا وانبسط علوي شديد الانبساط، وانشكع غاية الانشكاع وأطلعه على كل أسراره، بل جعله عمدة، في الحشيش ... هو الذي يرص، وفي الخمر هو الذي يصب، وفي الليالي الطرية هو الذي يتولَّى كل شيء، وهو الذي يفهم كل شيء.

ودحرج حلمي أكثر حتى ترك له مفاتيح الشقة، وكأنه ترك مفاتيح الكرار للقط، واهتبل القط الأسود — حتى مع الاعتذار للإذاعة — هذه الفرصة وهبر من مكتب حلمي في البيت كل الأوراق المطلوبة وكل الوثائق التي تدين الوكيل والأنصار والأخ حلمي، ولكن

بقيت وثيقة واحدة، وهي وثيقة هامة وحاسمة وفاصلة عند الحساب، ولكي يحصل رئيس الحزب وأنصاره على هذه الوثيقة فلا بد من تعاون حلمي معهم، وكانت مشكلة ولا مشكلة كوريا، ولكن القط الأسود لم يكُن من النوع الذي تقف أمامه عقبة أو يمنعه عن الوصول إلى أغراضه أحد ما، خصوصًا إذا كان هذا الأحد رجلًا طيِّبًا ومنهارًا ومستعدًّا لأي شيء وكل شيء مثل الأستاذ حلمي.

وفعلًا تم الأمر على خير ما يشتهي القط الأسود، دفع للأستاذ حلمي ببعض النقود وغمره ببعض الهدايا ويسَّر له كثيرًا من الأمور، ثم اتفق معه على أن يسجِّل قعدة من هذه القعدات للسيد الوكيل وبطانته، وليه؟ للذكرى والتاريخ! ولكي تنفع عندما تمرُّ أيام الحظ الحلوة ويصبح التسجيل هو الشيء الحي الباقي لأيام الحظ الفانية! وصدق علوي بالطبع! وانبسط جدًّا لهذا الاقتراح الرائع الذي يحفظ الذكريات والقعدات والسهرات الطرية!

ولكي يتم الأمر على خير وجه، قام حلمي بالتسجيل لكي يكون الأمر كله مفاجأة للوكيل الطيِّب الساذج الذي أسلم روحه ونفسه للأخ حلمي!

وذات مساء حافل رهيب، كان بيت حلمي يشغي بالناس، سياسيون من عيِّنة الوكيل، وفتيات في عمر الورود، وشبَّان كالغزلان وخمر وحشيش، وكل ما لذَّ وطاب مما تعصر المعاصر وممَّا تنبت الأرض، جلست الشلة والتسجيل دائر، حلمي مبسوط لأنه يعدُّ مفاجأة عظيمة وحلوة، والبيه الوكيل أيضًا مبسوط لأنه يسهر سهرة من سهرات العمر! وتطرَّق الحديث خلال السهرة إلى السياسة ومن السياسة إلى المؤامرة! وخلال الحديث ضحكات وهمسات وقرصات مفيش بأس.

وانتهت السهرة، وانتهى الرجل الطيِّب ... وعلى صوت التسجيل الدائر في مقر الحزب، استطاع رئيس الحزب اليقظ المدرب الوصول إلى خلع الوكيل والأنصار والأخ حلمي، وكانت التهمة الموجَّهة إليهم جميعًا هي خروجهم عن الخلق اللائق، وارتكابهم ما يخجل وما يشين دون وازع من دين أو ضمير.

وتكرَّر اسم حلمي في بيان الحزب أكثر من مرَّة ... ومع ذلك كان شديد الإصرار على أن الأمور يومًا ستستقيم، وأنه يومًا ما سيعود على رأس الحزب من جديد!

٧

ثلاثة شهور وأنا في دار الهلال أكتب للمحرِّرين وأقبض منهم ولا أحد يدري في الدار، وكان رحمي بك مدير التحرير يلتقي بي أحيانًا فتبدو عليه الدهشة؛ لأني ما زلت مقيمًا في الدار مع أني لا أتقاضى شيئًا، ولو كان رحمي بك يقوم بعمله على خير وجه، لاكتشف أن كل أعمال الأستاذ حلمي الجديدة بخطي، وكذلك أعمال الأستاذ الآخَر صديق المؤلِّف تاجر الفراخ! ولكن رحمي بك لم يكُن يؤدِّي عمله على الوجه الأكمل، وكان يترك عمله في الدار لبعض المساعدين، متفرِّغًا في النهاية لقبول الهدايا من المحرِّرين ولعب القمار في الليل والسهر في الشاليه الذي كان يملكه محرِّر في شارع الهرم على ربوة عالية تطل على قرية نزلة السمان.

وفي هذا الشاليه البعيد عن العمران وعن المدينة، كان رحمي بك يسهر أحيانًا وسط شلة من بنات الكومبارس في المسرح والسينما، وكان حلمي يحضر أحيانًا هذه السهرات، وكان يحكي دائمًا في الصباح لكل من يلقاه عن أدق تفاصيل السهرة، وكان يبدو عليه الغيظ الشديد؛ لأنه لا يملك شاليه من هذا الطراز، وكان يحلم دائمًا بأنه سيصبح له شاليه يومًا ما، وعندئذٍ يستطيع تحقيق أحلامه في عالم الصحافة، ويضمن الاستقرار الذي ينشده منذ زمن بعيد.

وذات صباح ذهبت إلى دار الهلال على غير العادة وكانت الحجرة خالية ولا أحد هناك، وكنت أشعر بقلق بالغ لا أدري سببه ورحت أتمشَّى في الحجرة جيئة وذهابًا كأنني نمر هائج في قفص في حديقة الحيوان، وفجأةً دخل الحجرة رجل مهيب يرتدي بنطلونًا وقميصًا من حرير ويرتدي فوق كُمِّ القميص كُمًّا آخَر من قماش رخيص أسود اللون، ثم نظر نحوي وأجال بصره في أرجاء الحجرة، ولَمَّا لم أكُن أعرف مَن هو هذا الرجل الغريب، فقد جلست على المكتب الذي كان بالقرب منِّي لحظة دخوله الحجرة، ولكن الرجل أبدى

دهشة بالغة ارتسمت على قسمات وجهه لجلوسي فوق المكتب، وكأنني ارتكبت عارًا لم يرتكبه أحد من قبل، واقترب مني في خطوات بطيئة وأشار نحو المكتب وسألني في غرور ولا غرور حكمدار يسأل بائع لبن غشَّاش: إيه ده؟

ولَّما كان إصبعه اتجه نحو المكتب فقد أجبته على الفور: دا مكتب.

وبنفس الطريقة أشار نحو الكرسي وقال: وإيه ده؟

ولَّما كان إصبعه قد اتجه نحو الكرسي فقد أجبته على الفور: دا كرسي.

وقال الأستاذ المهيب وكأنه اكتشف سر الحياة فجأة: والناس بتقعد ع الكرسي ولَّا ع المكتب؟

وقلت أنا ببلاهة وبعدم مبالاة: ساعات تقعد ع المكتب، وساعات تقعد ع الكرسي.

وهزَّ الأستاذ رأسه، ثم سألني عن اسمي قبل أن ينصرف، وبعد لحظة حضر فرَّاش نشيط وأبلغني أنني مطلوب حالًا لمقابلة الأستاذ الجريديني، ولم أكُن أعرف ما هو الجريديني هذا، كما لم أكُن أعرف أي شيء عن مهنته بالضبط، وعندما ذهبت لأكلِّم الجريديني، اكتشفتُ أنه يجلس في حجرة من زجاج كأنه سلعة معروضة للبيع في محلات عمر أفندي، كانت الحجرة الزجاجية مستديرة وتتوسَّط قاعة كبيرة؛ لكي يتمكَّن الأستاذ الجريديني هذا من إلقاء نظرة شاملة على كل ما حوله، ولم يكُن حوله شيء يستحق النظر، فقد كان كلُّ مَن حوله عددًا من الموظفين الغلابة العجائز، هم كل موظفي الأرشيف والإدارة في الدار، واقتحمت الباب وقد نويت شرًّا، فأنا الآن شديد الزهق شديد الغلب، ودار الهلال أصبحت جهنم الحمراء بالنسبة لي، فلا أنا محرِّر فيها، ولا أنا أستطيع الاستغناء عنها، ولا أنا أبحث لنفسي عن عمل آخَر. ووقفت أمام الجريديني وقد اتخذت موقف المتحدِّي، وسألني الأستاذ وقد راح يتمرجح على مقعده الهزَّاز الدائري: إنت بتشتغل إيه هنا يا أستاذ؟

– محرِّر.

وقلَّب بين أصابعه عدة أوراق اكتشفتُ من إلقاء نظرة عليها أنها الدوسيه الخاص بي، وقال وأصابعه تعبث في الأوراق: لكن دا انت بقالك كام شهر ما لكش إنتاج!

– أصلي زهقان.

ورفعَ الجريديني رأسه وألقى على العبد لله نظرة فاحصة وقال وهو شديد الدهشة: زهقان؟ زهقان من إيه؟

– ماليش نفس أشتغل.

– حضرتك مؤهلاتك إيه؟

– مهندس!

– مهندس ... اتفضل!

وأشار الجريديني إلى المقعد الوحيد في الحجرة، وعلى الفور جلستُ ووضعتُ ساقًا على ساق، واندهشتُ جدًّا لتصرُّف هذا الأبله المعتوه الذي أقعدني بشدة لمجرَّد كذبة حمقاء بأنني مهندس، مع أنني أعمل في دار المفروض أنها تُنتج الثقافة والفن والأدب!

وتبسَّط الجريديني معي في الحديث وسألني في ودٍّ بالغ: وحضرتك خريج جامعة فؤاد؟

– لا أنا خريج جامعات ألمانيا.

– ما شاء الله ... وبتعرف ألماني؟

– طبعًا!

– وتخصُّصك إيه يا أستاذ؟

– مباني.

– عال قوي، طيِّب دنا هاحتاجك قُريِّب، أصل عندنا مشروع عشان دار الهلال، إيه رأيك يا أستاذ تبقى تتعاون معانا.

– إذا كان هناك فرصة.

– طيِّب أنا أسف على اللي حصل مني، أنا ما كنتش أعرف سعادتك.

وضغط الجريديني على الزر وطلب للعبد لله واحد قهوة مظبوط وانتشرت في الدار حكاية لقائي بالجريديني، وهرع أكثر المحرِّرين ليتفرَّجوا على العبد لله وهو جالس مع الجريديني ساقًا على ساق وكاعب السيجارة في فمه ولا رئيس تحرير الأهرام!

وسرعان ما انتشرت إشاعة في أنحاء الدار أنني مرشَّح لوظيفة هامة في الدار وأنني على وشك أن أكون سكرتيرًا للتحرير في إحدى المجلات! وهكذا أدركت بعد انتهاء المقابلة أن الجريديني هو أهم رجل في الدار بعد أصحابها، بل هو أهم من أصحابها، وأنه شقيق المستشار القانوني للدار، وأنه ثري أمثل، وأنه مدير عام الدار، وأنه يتدخَّل في كل شيء، في الإدارة والإعلان والتحرير أيضًا.

ولو أردت أن أمضي في هذا الشوط إلى النهاية لكان لي ما أردتُ ولكني كنت زهقان من دار الهلال إلى الحد الذي لم يكُن في استطاعتي أن أمضي داخلها وقتًا آخَر، وكان شيء جديد آخَر قد حدث داخل الدار، فقد عُيِّنَ حديثًا مديرًا للتحرير طالبٌ في الجامعة

الأمريكية. وكان شابًّا طيِّبًا وساذجًا عديم الخبرة، من أول لقاء بيني وبينه أدركت أنه تعلَّم كل شيء عن الصحافة في أمريكا، ولكنه لم يكُن يعرف حرفًا واحدًا عن الصحافة في مصر.

ولقد أوصانا جميعًا في أول اجتماع بالاتجاه إلى الترجمة، ولم يكُن يدري أن كل المحرِّرين لا يعرفون حرفًا واحدًا من الإنجليزية، وأن كل معلوماتهم عن الإنجليزي، أنه عسكري احتلال موجود في مصر! كما أنني تضايقت أكثر من تصرُّفات ولد نصَّاب اسمه الجرجاوي، كان وجهه مثل وجه الخنزير الحديث الولادة، وكان من النوع الذي تكتشف محاسنه عند أول نظرة ثم تقضي العمر كله تُحصي عيوبه دون جدوى.

كان يمتاز بمواهب عتاة المجرمين، فلا ينفعل ولا يغتاظ ولا يحتج أبدًا، وكان خبيرًا في التغرير بالفتيات وكان يسلبهن نقودهن وحُليَّهن ثم يفر منهن في النهاية، ولكنه كان موهوبًا وكان صاحب أسلوب مشرق وذكي ولو أنه استغلَّ موهبته الفذة في موضعها الصحيح، ولو أنه تمسَّك بعض الشيء بالقيم والشرف والأمانة والصدق لكان اليوم علَمًا من أعلام الحياة الصحفية والأدبية في مصر، ولكنه لمع فترة، ثم اختفى قبل الأوان، ولقد قضى الناس عليه، ولكنه قضى على نفسه أولًا، واحترف الكذب في النهاية ولم يسلم رجل شريف واحد في مصر من لسانه، ولكنه كان صديقًا لكل المرتشين والمنحرفين وأصحاب السلوك والسمعة الشائنة، وعندما الْتَقيتُ به أول مرَّة ادَّعى أنه ينشئ دارًا للنشر، وأنه اشترى كتبًا من العقاد والحكيم وطه حسين، وأنه ينوي إصدار كتاب لي في السلسلة الأدبية الكبرى أو هكذا سيُطلق عليها! وفي النهاية طلب مني عشرة قروش فكة؛ لأن كل النقود التي معه أوراق من فئة العشرة جنيهات!

وفي دار الهلال أيضًا الْتَقيتُ بمحرِّر آخَر مدَّعٍ وجاهل وحقير غاية الحقارة، وكان اسمه سميح الكاتب ولكني اكتشفت أنه ليس اسمه، وأنه اضطر لكي يطلق على نفسه صفة الكاتب أن يغير شهادة ميلاده، وكان يكتب قصصًا خرافية على شاكلة قصص طرزان، وكان مغرورًا إلى الحد الذي تصور نفسه فيه أعظم كاتب أنجبته مصر، وكان جاهلًا إلى الحد الذي لم يستطع فيه أن يكتشف عظمة نجيب محفوظ، مُفضِّلًا عليه هلفوت مثله اسمه أمين حب الرمان!

ولقد ظلَّ أمين هذا متصوِّرًا لفترة طويلة من الزمان أنه أنبَغ ما أنجبت مصر من الكُتَّاب حتى قرأتُ خبرًا ذات مرة عن انتحاره، ثم فوجئت به بلحمه ودمه يقتحم عليَّ مكتبي في إحدى دُور الصحف، وعرفتُ أنه لم ينتحر، ولكنه هدَّد فقط بالانتحار لضِيق ذات اليد، ثم طلب مني أن أجمع له من المحرِّرين زملائي عشرة جنيهات إعانة، وهدَّدَني بأنه سينتحر إذا لم يحصل على هذه النقود!

شيء آخَر جعلني أفرُّ من دار الهلال، فقد أرادوا تطعيم الدار بدم جديد من الشباب يتولى المسئولية في مجلة جديدة، واختاروا فعلًا أحد الشبان الذين دخلوا الدار مع فوج المحرِّرين البائسين الذي كنت أنا أحد أفراده، وكان المحرِّر الذي وقع الاختيار عليه ليكون أول مدير تحرير للمجلة الجديدة يُدعَى سمير كان أكثرنا وسامة وأكثرنا أناقة وأشدنا جهلًا ... وأغرب شيء أن هذا الدم الجديد لم يكُن جديدًا على الإطلاق، ولكنه كان أكثر فسادًا من الدم القديم ... فلقد حول المجلة إلى بورصة للسمسرة وجعل صفحاتها معروضة للبيع والإيجار ... وقام فترة تولِّيه مسئولية التحرير التي امتدَّت زمنًا طويلًا في منزل أحد المطربين المشهورين بالبلاهة والغباء.

وكان يوم اختيار سمير هو آخِر أيامي في دار الهلال، فلقد اكتشفتُ أنني لكي أشق طريقي في الدار فلا بد أن أكون من طراز سمير ولمَّا كنت عكسه تمامًا، فقد كان المستقبل شاقًّا أمامي، وأن عليَّ أن أهجر الدار قبل فوات الأوان، ولقد هجرتها فعلًا ... ولكن إلى أين؟ كان البحث عن مكان آخَر هو مشكلة حياتي! كان في السوق عدة جرائد ومجلات صغيرة مثل الحوادث والخبر والصباح والغريب والشباب، ولكنها جميعًا كانت مفلسة وكانت لا تدفع نقودًا لأحد، وكانت هناك الجرائد اليومية الكبرى، ودخولها أصعب من دخول الجنة، ثمَّة مجلة أخرى كانت في السوق وكانت تتأرجح بين الانتشار وقلة التوزيع وكانت وفدية يشرف عليها أحد نوَّاب الوفد وهو في الوقت نفسه شقيق أكبر مسئول في الحزب! وكانت المجلة تستكتب عددًا من كبار الكتَّاب مثل طه حسين والدكتور مندور وسلامة موسى وعزيز أحمد فهمي، وكان يعمل فيها مجموعة من الشباب الناضجين وعدد من الصحفيين القدامى وكانت تصدر مجلة أسبوعية أدبية يتولى رئاسة تحريرها الدكتور إبراهيم ناجي ويعاونه عدد من الأدباء الشبان سيحتلون فيما بعد صدارة الحياة الأدبية والفنية بعد ذلك، ولقد اخترتُ هذه المجلة بعد تفكير شديد ولعدة أسباب، أولًا لأنها المجلة الوحيدة التي يمكن العمل فيها والتي يُمكِن في الوقت نفسه الحصول منها على بعض الجنيهات كلَّ شهر، وثانيًا لأن رئيس التحرير كان صديقي، وكان رجلًا طيِّبًا وخدومًا واستطاع أن يحتفظ بنقائه وسط غابة الصحافة الشريرة ... كان قاسم جودة هو رئيس التحرير، وكان قاسم في بداية حياته صحفيًّا لامعًا وشابًّا وفديًّا متحمِّسًا، ثم انشقَّ عن الوفد مع مكرم عبيد واشترك في وضع الكتاب الأسود، وهو موقف خاطئ دفع مستقبله ثمنًا له، فلقد كان حزب الوفد حزبًا شعبيًّا وجماهيريًّا ومناضلًا ضد الاستعمار وضد الطغاة من أسرة محمد علي، وكان أيضًا حزبًا فاسدًا ومنخورًا من الداخل، ولكن كان ورغم ذلك من أعظم الأحزاب الموجودة، وأشدها صلابة وأكثرها التصاقًا بالجماهير وتعبيرًا عنها.

وكان الكتاب الأسود صورة صادقة لفساد الوفد، ولكنه كان لمصلحة مَن هم أكثر فسادًا، وكان يخدم في النهاية مصالح الاستعمار والقصر! ولقد كان مكرم عبيد رجلًا صادقًا ولكنه كان رجلًا مُنفعِلًا، ولقد استطاع القصر وبطانته التأثير عليه في لحظة انفعال فخرج على الوفد محاولًا طعنه بشدة، ولعلَّه أفاق بعد ذلك بسنوات؛ ليجد نفسه وحيدًا وقد خسر أكبر سند له في حزب الوفد، واكتشف أنه وقع فريسة في يد الملك وأحزاب الأقلية، ولعلَّه أراد أن يكفِّر عن خطيئته بالعودة إلى حزب الوفد، ولكن الوفد كان لا يرحم مَن يخرج عليه، ولا يقبل بين صفوفه مرَّة أخرى مَن يطعنه في ظهره، وكان الوفد هو الشعب كله، ولكن بلا تنظيم ولا جهاز يحرِّك قلبه، ولقد ظلَّ سنوات طويلة ينبض بالحرارة ولكن دون حركة، ورغم ضعفه، وشيخوخته فقد ظلَّ هو الممثل الطبيعي والحقيقي للشعب المصري إلى أن قامت الثورة، وكل الذين خرجوا عليه ذهبوا إلى النسيان وكنسهم التاريخ في ترابه، ولعلَّ قاسم جودة قد أفاق لنفسه هو الآخَر، فعاد إلى حزب الوفد ولكن من الباب الخلفي وكانت مجلة النداء هي الباب الخلفي الذي دخل منه قاسم!

وعندما ذهبت إليه في قهوة الأنجلو أطلب عملًا استقبلني بحفاوة وصافحني وطلب لي زجاجة بيرة وجلس يسألني عن أحوالي، وحكيت له ما أعانيه في دار الهلال، وما جرى فيها من مآسٍ ورسم على شفتَيه علامة ازدراء كبرى وقال وقد اكتسى وجهه بحمرة فاقعة: تعرف ... الدار دي مش بتاعة صحافة ... دي كان لازم تكون محل خردوات زي محل عمر أفندي.

ثم طيَّب خاطري ووعدني بالبحث عن عمل لي في مجلة النداء في أقرب فرصة، وطلب مني أن أمرَّ عليه مرَّة أخرى في القريب وهكذا اضطررت إلى البقاء في دار الهلال فترة أخرى في انتظار أن يحقِّق قاسم جودة وعده، وفي خلال تلك الأيام التي قضيتها في دار الهلال أنتظر، تمردت على المحررين الذين أكتب لهم وطلبت رفع السعر إلى الضعف، فوافق الأستاذ صديق المؤلف الفرارجي، ورفض الأستاذ حلمي لضيق ذات اليد، ولكنه لكي يُغريني على التعامل معه دعاني إلى الغداء عنده في المنزل، وكان يسكن في حي طولون، وفي حارة ضيِّقة تقع على دحديرة خلف المسجد، وكان البيت قديمًا تفوح منه روائح عطنة، وتتزاحم البيوت في الحارة وتتشابك ويتداخل بعضها في بعض، حتى إني كنت أسمع الجيران يتكلمون في البيت الرابع، وعندما أصبحنا داخل الشقة انشغل حلمي بإعداد طعام الغداء، وبعد أن انتهينا من الطعام نهض ليُعِدَّ لنا الشاي، ثم فتح الباب وراح ينادي بصوت مزعج، وسرعان ما لبَّى نداءه صوت نسائي فيه بحَّة ولسعة نفذت إلى عظامي، ولم تلبث صاحبة

الصوت أن اقتحمت علينا الشقة في جرأة، وقد ارتدت قميص نوم رخيصًا وأرسلَت شَعرها الأسود الناعم خلف عنقها وعلى كتفَيها، وكانت جميلة رغم فقرها، وجسمها يكاد يبرز من القميص الرخيص الذي ترتديه، وصدرها بارز بشكل مثير، حتى خُيِّلَ إليَّ أنه يبرز بعوامل صناعية، وعندما صافحتُها في أدب غضضتُ بصري خجلًا، ولكن حلمي مدَّ يده وعبث في صدرها أمامي وقال وهو يضحك: بذمتك مش سعاد تنفع في السينما؟!

ولما أمَّنتُ على كلامه، سألَتْني في لهفة: صحيح والنبي؟

ثم جلست تحكي لحلمي ما حدث لها بالأمس وكان حلمي قد أرسلها بتوصية خاصة إلى مُخرج صديقه لتعمل كومبارس في فيلم من الأفلام، ولقد اشتغلت طول الليل مقابل جنيه، وستذهب مرَّة أخرى مساء الغد، وستعمل معهم لمدة أسبوع وستلهف عشرة جنيهات كاملة، وقالت لحلمي بعد أن انتهت من قصتها وهي تضربه بيدها على رأسه: اكتب عني بقى!

وأشار حلمي نحوي وقال: ده اللي هيكتب عنك، صحيح هوه صغير كده لكن ده رئيسي في الشغل.

ونظرت البنت نحوي نظرة فاحصة أربكتني، وقالت وهي تتقصَّع: رئيسك؟! مش معقول، إنت عاوز تهرب مني. وقال حلمي وهو يُقسِم بكل المقدَّسات: زي ما بقولك كده. احكي له على قصة حياتك وهو هيكتبها، وهيطلَّع صورتك في المجلة.

ونهض حلمي وارتدى ملابسه، ثم استأذن في الانصراف وخرج دون وداع، واكتشفتُ أنني أصبحت وحيدًا مع البنت المستوية في شقة حلمي، وأحسست بأنني ارتعشت كلي ... وضربت معي لخمة فلم أعرف كيف أتصرَّف معها، وفجأة، نهضتُ، ومددتُ يدي أصافحها وأستأذن، ولكن البنت المجربة شهقت وتقصَّعت، وضربت صدرها بيدها وقالت: إيه يا دلعدي، قرفت مننا ولَّا إيه؟ عامل بيه؟ دانت اللي يدور عليك يلاقي الست أمك كانت غسالة.

٨

كانت البنت مجربة وشجاعة وتتمتَّع بشخصية قوية أجبرتني في النهاية على الجلوس في ركن الحجرة كاليتيم البائس أعتذر لها بكلمات لا معنى لها، ولم أكُن في الحقيقة أقصد إهانتها، ولكني كنت أنجو بنفسي من مواجهة موقف لم أواجهه من قبل.

وجلست البنت بعد أن هدأت ثورتها تحكي لي قصة حياتها وجلستُ أنا أمامها أتصنَّع الاهتمام الزائد كمَن سيكتب هذه القصة يومًا ما، واكتشفتُ وهي تحكي أنها لا تحكي شيئًا من الواقع، ولكنها تُفبرك قصة صحفية سينمائية تصلح للشاشة وفي نفس المستوى الذي شاهدته البنت في أفلام تلك الأيام، وقالت إنها أحبَّت شابًّا طيارًا يسكن في حارتها! مع أنني أستطيع أن أقسم بأغلظ الأيمان أن أحدًا من سكَّان حارتهم لم يرَ الطيارة في حياته، وأن ركوبها بالنسبة لأي واحد منهم حلم لا يتحقَّق إلا بلقاء الجن أو العثور على خاتم سليمان!

المهم أن البنت وقعت في غرام الولد الطيار، والولد الطيَّار وقع في غرام البنت، وأنهما كانا يقضيان أغلب الوقت في حديقة الأورمان، وأحيانًا في حديقة الأندلس، ثم وعدها بالزواج ثم سلبها أعزَّ ما تملك، ثم يا فرحة ما تمَّت خطفها الغراب وطار، وطار الواد الطيار ولم يعُد، سقطت به الطائرة واحترقت، واحترق أملها الكبير مع الحطام!

ومن لحظتها أقسمَت ألا تتزوَّج، وألَّا تحب، فقد مات الذي كانت تحبه، وهي لذلك تقتحم ميدان العمل، ولذلك أيضًا اختارت السينما لكي تتمكَّن يومًا من إنتاج قصة حياتها على الشاشة! واقترحت في نهاية القصة أن أكتبها تحت عنوان «حب من غير أمل!»

وقلت لها إنها قصة عظيمة، وإنها ستحقِّق نجاحًا لا حدَّ له، وأرباحًا طائلة ليس لها نظير! وقضيت لحظات سعيدة طيبة مع البنت ثم جلستُ أنتظر حلمي وحيدًا في الشقة، ولما يئستُ من حضوره انصرفتُ تاركًا له ورقة بأنني سألقاه في صباح الغد.

ولقد استولت عليَّ الدهشة عندما الْتَقيتُ بحلمي في اليوم التالي ولكنه لم يفاتحني في شيء ممَّا حدث بالأمس! ولكنه قدَّم لي موضوعًا لأعيد صياغته من جديد ثم استأذن في الانصراف؛ لأنه على موعد هام في حزب النهضة … وكان حزب النهضة حزبًا نسائيًّا تديره امرأة قبيحة شمطاء … وكانت تتخذ من شقة في شارع دوبريه مقرًّا للحزب، وكانت هذه الشقة ملتقى بنات الذوات ورجال السلك السياسي والمشتغلين بالصحافة والأدب والفن، وكنت قد تردَّدتُ على هذا الحزب عدة مرات مع الرجل الطيب، وتعرَّفتُ هناك على بنت اسمها تهاني كان أبوها تاجرًا كبيرًا في وكالة البلح … وكانت يتيمة وحزينة وشاردة على الدوام … ولقد دعوتها ذات مرَّة على الغداء وجلست معها على شاطئ النهر، وخُيِّلَ لي أنها مُتيَّمة وأنها واقعة في حب العبد لله، فضممتُها إلى صدري وطبعتُ على فمها قُبلة، ولكن البنت التي ظننتُها مُتيَّمة وواقعة في حبي، بكت فجأة، وعبثًا حاولتُ أن أسكتها دون جدوى، وعندما قُمتُ معها لتوصيلها إلى المنزل غادرت التاكسي دون أن تنظر في وجهي، ولم أرَها بعد ذلك أبدًا، ولم تعُد تتردَّد على حزب نهضة مصر بعد ذلك.

وفي هذا الحزب تعرَّفتُ على بنت قبيحة عجفاء مشوَّهة كانت طالبة في إحدى الكليات، وقد ظلَّت طالبة لمدة عشرة أعوام، وقد وقع في حبها اثنان من أصدقائي وكان أحدهما خياليًّا إلى حدٍّ بعيد، وكان الآخَر عكسه تمامًا، ولذلك فاز الرجل الآخَر بالبنت المشوهة، وأثرت هذه الحادثة على قلب الرجل الحالم، ولعلَّها لا تزال تؤثِّر فيه حتى الآن.

ولقد عرفت البنت العجفاء أكثر شبَّان مصر وأكثر رجالها. وألقت بنفسها في أحضان أجيال متعاقبة، ولذلك ستجد في دفتر قلبها توقيعات بعض الشيوخ وبعض الرجال وبعض الشبَّان وبعض الصبيان أيضًا، ولقد كنت أعجب كيف استطاعت بنت شكلها مثل شكلي وجسمها في حجم جسم ولد صايع يتسكَّع في ميدان الجيزة، كيف استطاعت مثل هذه البنت أن تحصل على كل هؤلاء المعجبين؟!

ولقد ناضلت طويلًا داخل هذا الحزب حتى وقعت ذات مرَّة في امرأة مناضلة من مناضلات الحزب، كانت في الأربعين من عمرها، ولكنها كانت تبدو أصغر سنًّا، وكانت جميلة حقًّا وخفيفة الدم إلى درجة تجعل مَن يراها مرَّة لا يستطيع أن ينساها أبدًا.

وكانت متزوِّجة أكثر من مرَّة ولكن عندما عرفتها كانت وحيدة، وكانت قد هجرت زوجها الأخير منذ شهر واحد، وحكمة الله أن جميع أزواجها كانوا من العجائز الأثرياء، ولقد خرجت من كلِّ صفقة زواج بربح مادي كبير، فأصبحت هي الأخرى من كبار الأثرياء، وكان لها نفوذ كبير في دوائر الحزب، فقد كانت تمده بالمساعدات المادية … وكانت تقيم

الولائم لعضواته، وهي ولائم كانت تجمع بين الكرم والترف، وكانت هذه الحفلات السياسية الهامة فرصة للتعارف بين الجنسين!

وذات حفلة كنت أتوسَّط حلقة وكانت السيدة صاحبة البيت تجلس في ركن قريب، عندما أصدرت فتوى خلاصتها أن المرأة تفقد سحرها بعد سن الخامسة والعشرين، وكان رأيًا فجًّا من شاب صغير عديم التجربة والخبرة، ولكن المرأة الثرية المجرِّبة أخذت المسألة مأخذ الجد فاقتربت مني وزجرتني بنظرة حادَّة ثم تجاهلتني بقية السهرة وقرَّرتُ أنا أن أختفي من دار الحزب، ومن حفلات السيدة الثرية، ولكنها الْتَقَت بي مصادفة بعد شهر، وسألتني عن سر غيابي وأعطَتْني رقم تليفونها وعندما اتصلت بها دعتني إلى منزلها، وسألتها في سذاجة: هوه في حفلة النهارده؟

وأجابت هي بالإيجاب ووعدتها بتلبية الدعوة، وحلقتُ شَعري الذي كان يغطِّي قفاي كالخنافس، ولَّمعتُ الحذاء مرتين وحرصت على أن أقترض ربطة عنق ملائمة، وتوجهتُ إلى الحفلة وفي نيتي أن أقع على صيد ثمين يعوِّضني جفاف الأيام التي مضت مني!

ولم أكتشف أنه لا حفلة هناك ولا يحزنون حتى بعد أن دخلت المنزل، وجلست وحيدًا في حجرة الصالون أنتظر قدوم الست المضيفة، وعندما حضرت غندورة كالعهد بها، رائعة الجمال كأنها تمثال في متحف ... سألتها عن سر تأخُّر الضيوف فقالت في بساطة: مفيش ضيوف غيرك الليلة!

وشعرت عندئذٍ أنني على أبواب مغامرة لذيذة، وأنني مُقْبِل على القيام بدور لم يسبق لي القيام به من قبل!

وجلسَتْ أمامي تصب خمرًا في كأس وهي في ثوب شفَّاف يكشف عن مفاتنها وراحت تتحدَّث حديثًا فيَّاضًا في السياسة والأدب والعلم وسرعان ما طردتُ الخاطر السيئ الذي راودني وشرعت في الحديث بطلاقة ورُحتُ أرغي كأنني بالع راديو في أشياء شتى، ولكنها فجأةً ضحكت وجذبتني من شعري نحوها وانحنت فقبَّلتني وقالت وهي تضحك: دمك خفيف يا مضروب!

وانتهزتُ الفرصة كأي ساذج وجذبتها نحوي أنا الآخَر، ورحنا نتبادل القبلات والعناق! ولما كنت وقتئذٍ في العشرين وهي في الأربعين فقد كنتُ أصدَق منها في التعبير عما يجيش بصدري، وكانت هي أقدَر مني على قيادة نفسها بحكمة وحنكة ومعلمة ليس لها نظير، وعندما هممت بها ردَّتْني في لطف ... ثم ردَّتْني في عنف، وانكسفت كما بنت بِكر فاجأها شاب عابث في الطريق ... واعتذرتُ لها عن سوء سلوكي وقلة أدبي وفساد ظني،

وقبلت الاعتذار على الفور ثم فتحَتْ حديثًا آخَر جادًّا غاية الجد، ودخلتُ أنا الآخَر في موجة الجد التي شملتها ولكنها بعد قليل ضحكت ضحكة أشعلتني ثم مدَّت يدها وقرصتني ومددتُ يدي أنا الآخَر وبادلتها القرص، ثم احتضنتها بشدة وقبَّلتُها كالمجنون، ثم هممتُ بها، ولكنها مرَّة أخرى ردَّتني في لطف ثم ردَّتني في عنف، ثم أنَّبَتني بشدة على مسلكي المتوحِّش ... واعتذرتُ لها مرة أخرى وجلست مكسوفًا كتلميذ راسب عدة أعوام في مادة واحدة! وقبلت السيدة الكريمة اعتذاري ثم راحت تصبُّ لي كأسًا آخَر، ومع الكأس راحت تتحدَّث في السياسة.

وتكرَّر المشهد بعد ذلك أكثر من مرَّة، تبدأ هي بالمناغشة ثم أبادلها، ثم أندفع أكثر، ثم أقفز محاولًا الوصول إلى آخِر الشوط ... ثم تنهرني بشدة وتنهاني بعنف ثم أجلس مكسوفًا وأعتذر ... وحتى الفجر كنت قد اعتذرتُ عشرين مرَّة، وأدركتُ أنني لعبة الست الكريمة تلك الليلة، وأنها تردُّ على رأيي بأسلوب عملي؛ لكي أتعلَّم الأدب في الحديث في المستقبل.

كان الفجر على الأبواب عندما غادرتُ الفيلا سكران حزينًا شديد الهم، مكسوفًا أكاد أطلب من الأرض أن تنشق لتبتلعني وتخفيني بعيدًا عن الأنظار! ولقد ظللت أعوامًا طويلة بعد ذلك أغضُّ من بصري كلما واجهتها في أي مكان، ثم تحاشيت لقاءها بعد ذلك، ولم ينقذني منها إلا اختفاؤها هي نفسها من الحياة العامة.

ولكن الدرس الذي علَّمَتني إياه كان رهيبًا وقاسيًا على نفسي، ولقد أثَّر في نفسي إلى حدٍّ أنني جبنت عدة سنوات عن أن أخطو الخطوة الأولى مع أي امرأة، وفقدت الثقة بنفسي إلى حدٍّ أنني كنت أخشى مغازلة أي امرأة ولو كانت خدَّامة خشية أن ترفضني، ولم تضعف المرأة الخبيثة ثقتي بنفسي بالنسبة لها فقط بل إنني كنت أخشى النظر في عيني أي سيدة في حزب النهضة، فقد كنت أعتقد أنها روت قصتي لكلِّ مَن تعرفهم!

وعُدت إلى دار الهلال مهمومًا قلِقًا أريد أن أهرب من الدار ومن القاهرة كلها، وخطر لي أن أغادر مصر كلها على ظهر مركب، وفعلًا رُحتُ أسأل كلَّ مَن ألقاه عن أسلوب العمل في المراكب! وهل أصلح أنا للعمل في المراكب وخصوصًا وأنني معتل الصحة؟ وهل يوجد على ظهر المراكب عمل خفيف لائق؟ ثم تخلَّيتُ عن هذه الفكرة عندما استطعتُ أن أمسح من ذاكرتي أحداث تلك الليلة الغريبة.

ولكن حلمي لم يقطع صِلته بحزب النهضة، كما أنه كان على علاقات وثيقة ومتينة بكافة الأحزاب النسائية في مصر، وكانت هذه الأحزاب هي المنجم الخصب الذي يحصل

منه حلمي على المواد الخام لسهرات الشاليه الذي يقع فوق الربوة عند الهرم ... وكانت بعض سيدات السياسة المصرية يشعرن حقًّا بالسعادة؛ لأنهن سيقضين السهرة مع بعض رؤساء التحرير والمحرِّرين المسئولين في صحف دار الهلال!

ولقد طلبتُ من حلمي أن يصحبني معه مرَّة في إحدى هذه السهرات، ولكنه فتح فمه ونظر نحوي بدهشة وكأنني مجنون ... وقال وهو يمسكني من كتفي ويهزني بشدة: إنت عاوز تخرب بيتي، دا رحمي بك لو شافك هيرفدني، دي قعدات خاصة ومقفولة، دا رحمي بك لو عرف إني بقولك يرفدني ... يا خبر اسود، دا انت باين عليك مجنون!

ولم يدرك حلمي أنني لم أكُن أعرف حقيقة ما يدور في الشاليه منه وحده، لقد كنت أعرف الحقيقة كاملة من أكثر من مصدر، كان حلمي حقًّا هو أهم مصدر، ولكن كانت هناك مصادر أخرى غيره! وكانت أخبار هذه السهرات منتشرة في المدينة في الوقت الذي كان رحمي بك يظن فيه أنها جلسات مقفولة وخاصة.

وفي هذه السهرات كان رحمي بك يلعب القمار مع شلة المحرِّرين أصدقائه ... وكان هؤلاء يتعمَّدون الخسارة ليكسب، وكانت هذه الخسارة بمثابة رشوة لرحمي بك لكي يرضى، ولذلك وصلت مُرتَّبات بعض هؤلاء المحرِّرين إلى مائتي جنيه في الشهر، وهو مبلغ يفوق ستمائة جنيه من عملة هذه الأيام، ولقد بلغت بي السذاجة حدًّا جعلني أحاول الثورة ضد نظام العمل في دار الهلال وفعلًا فاتحتُ عددًا من المحرِّرين المضطهدين بضرورة رفع أصواتنا بالشكوى من نظام العمل في الدار، وطالبتُ بأن يكون هدفنا إلغاء نظام القطعة ووَضْع مُرتَّبات ثابتة حتى لا يكون هناك مجال لأي تلاعب، وللقضاء على نفوذ رؤساء التحرير ومديري التحرير، ولقطع الطريق على الرشوة والمحسوبية.

واتخذت من مقهى في الجيزة مكانًا للقاء وإعداد الثورة المنتظرة، وهجم على المقهى عدد من المحرِّرين لم أكُن أنتظر منهم استجابة لهذا العمل الذي ننوي القيام به بالمرَّة، وظننتُ أنني قطعتُ شوطًا بعيدًا في سبيل تحقيق الأحلام، وفي هذه الجلسات التي كنتُ أعقدها كلَّ مساء في القهوة قلت كلَّ ما أعرفه مما يدور في الشاليه، والكرافتات التي طلبها مني صديق رئيس التحرير والموضوعات التي أكتبها باسم ميخائيل وحلمي، وبدلًا من أن تكون هذه الأسرار والأخبار وقودًا للثورة المنتظرة اكتشفتُ أن أسراري كلها وأخباري كلها تصل إلى رحمي بك أولًا بأول ... وأنه يعلم خطواتنا كلَّ ليلة بدقة أكثر من الدقة التي يعلمها بعض المشتركين في الثورة.

أغرب شيء أن السذاجة بلغَتْ بنا حدًّا لم نكتشف معه أن بعض هؤلاء الذين أخذوا يتردَّدون على المقهى ويحضرون جلساتنا ويشتركون في المناقشات معنا، كانوا من بطانة

رحمي بك ... وكانوا من سماسرته ... وأنهم من جلسائه كل ليلة في الشاليه، ومن المشتركين معه في الحوار السياسي الذي يدور كلَّ ليلة مع بعض سيدات السياسة المصرية! ولكن هكذا شاءت الأقدار لنا ... أو إن شئتم الدقة هكذا شاءت غفلتنا وسذاجتنا وعدم خبرتنا بالحياة وبالناس!

وذات صباح، فوجئت بالبوَّاب يمنعني من دخول الدار، واكتشفت أن على الباب ورقة معلَّقة من الإدارة تعلن فيها أنه ممنوع دخول غير المحرِّرين المدونين في الكشوف الرسمية، ودخلت في حوار مع البوَّاب ثم في عراك ... أصررتُ على الدخول لأجمع أشيائي التي في الدار، رغم أنه لم يكُن لي شيء في الداخل على الإطلاق ... ولقد سمحوا لي بالدخول مع أحد الموظفين لأجمع حاجياتي المزعومة، ولَمَّا لم يكُن لي أي شيء هناك، فقد اتهمتُ الدار بالسرقة، وأشعتُ جوًّا من الصخب والضجيج في أنحاء الدار ... وانتهى صخبي بالخروج مطرودًا في صحبة الموظف حتى الباب.

وتذكَّرتُ بعد أيام وأنا جالس على المقهى في الجيزة وعد قاسم جودة ... فقمت أسعى إلى مجلة النداء ... واستقبلني قاسم بحفاوة ... وقال وهو يهزُّ ذراعي في حماس: إنت فين يا راجل، دنا بادوَّر عليك، خلاص يا عم مبروك المدير وافق إنك تشتغل بمُرتَّب عشرة جنيه في الشهر.

وكان هذا هو أعظم خبر سمعتُه في حياتي ... ها أنا ذا بعد تعب شديد أصبح لي مُرتَّب ثابت ووظيفة مُعيَّنة ... وها أنا ذا الآن أستطيع أن أكتب في هدوء وأن أنشر على مهل، وأن أبذل أقصى جهدي لكي أرد لقاسم جودة جميله الذي يطوق عنقي، وأن أثبت للجميع أن موقف قاسم مني لم يكُن مجاملة وإنما لأنني أستحق هذا وأكثر منه بكثير!

وجاءني رجل عجوز من محرِّري المجلة القُدامى ونصحني بأن أتجه إلى الحصول على الأخبار لأنها الصحافة الحقيقية، وقال دعك من كتابة الموضوعات، إنها لا تضمن العيش حتى لأكبر الأدباء ... وضرب أمثلة عديدة بإبراهيم عبد القادر المازني والشيخ عبد العزيز البشري والدكتور زكي مبارك، وقال الرجل العجوز وهو ينصحني ... الكاتب كالفراش كلاهما يُمكِن الاستغناء عنه في أي لحظة، ثم نهض واتجه إلى مكتب آخَر أمامي وجلس وبسمَلَ وحمدَ الله، ثم أخرج أوراقًا بيضاء من مظروف كان يحمله تحت إبطه ... ثم انهمك في الكتابة ولكن بصعوبة بدَتْ من خلال توقفه الطويل أحيانًا ... وكان يلعق شفتَيه خلال هذه الفترات ويضغط على جبهته بيده، ويخبط على المكتب خبطًا شديدًا ... وبعد ساعات نهضتُ من مكاني واقتربت منه، وألقيتُ نظرة على الورق الذي أمامه ...

كانت صفحة واحدة مكتوبة وتحت عنوان كبير ... وأسلوب مثل أسلوب تلاميذ المدارس ... وعندما اكتشف وجودي فوق رأسه، نظر نحوي ثم نظر نحو الورقة التي أمامه وقال وهو يهز رأسه: أهي دي الكتابة، دي الصحافة اللي تأكل عيش!

وهززتُ رأسي موافقًا وانصرفتُ.

٩

كانت مجلة النداء أشبه بسوق الثلاثاء، كل شيء فيها معروض للقرَّاء ... كل شيء وكل لون وكل صِنف، وكانت مرآة صادقة لحزب الوفد، وكان حزب الوفد قد بلغ حدًّا من القوة جعل كلَّ الشعب فيه، وكان أيضًا قد بلغ حدًّا من الضعف جعل كل المتناقضات داخله.

وعلى صفحات النداء مثلًا كان ينشر سلامة موسى مقالاته عن العلم، وكان مصطفى محمد فهمي ينشر مقالاته في عالم الخرافة والهيلولة التي على قفا الشفق، وكان مصطفى محمد فهمي نموذجًا حيًّا على فساد العصر، كان عندما الْتقيتُ به حطام إنسان مدمن على كل أنواع الحشيش والأفيون، وكان يأكل الحشيش علنًا وكان يدَّعي أن بلسانه مرضًا خبيثًا لا يشفيه إلا المخدرات، وكان قبيح الوجه إلى درجة لا تُطَاق، شَعرُ رأسه تساقط منذ زمن بعيد، وفمه المفتوح دائمًا يشبه قبرًا مهجورًا نبشته الذئاب.

وقد تتضح أبعاد المأساة أمام القارئ إذا علم أن مصطفى محمد فهمي كان منذ عشرين عامًا سابقة على ذلك العام الذي الْتَقينا فيه، كان ألَمَع وأجمَل شاب في مصر، وكان كاتبًا فريدًا من نوعه، وكان صاحب أسلوب لاذع للغاية، ساخر غاية السخرية وكان عدوًّا للوفد، شن حملة هوجاء ضد الوفد ورئيسه، جعلت بعض الألاضيش يُدبِّرون له كمينًا دخل بسببه السجن ... وكانت التُّهمة الموجَّهة له: إحراز المخدرات، وخرج مصطفى من السجن شخصًا آخَر، تحول الكاتب اللامع الساخر العظيم إلى شخص هلامي وعلى باب الله، منظره منظر شحات، وعقله عقل مجذوب، وتصرُّفاته تصرُّف مدمن أهلكته المخدرات! وراح يتدحرج شيئًا فشيئًا حتى وصل إلى القاع.

وعندما وصل إلى مجلة النداء كان قد سقط من القاع إلى شيء يُشبه الفضاء، وراح يدور مع الريح مغمى عليه حتى غادر الدنيا ذات صباح في حجرة عارية من الأثاث في

زقاق مظلم بارد كئيب، ولحظة صعود روحه إلى خالقها لم يكُن معه في الحجرة سوى قطة مريضة كانت تربطه بها صِلة صداقة عميقة امتدَّت عدة سنوات.

وكان سلامة عيسى نموذجًا آخَر لفساد العصر ولكن على نحوٍ آخَر، كان واسع الثقافة، وصاحب موقف اجتماعي، وكان شديد الثورة على كل القيم البالية والمقدسات القديمة، ولكنه كان يكتب في النداء أي كلام، ويقبل أي معاملة نظير حفنة جنيهات لا تزيد على عشرة، وكان هو في غِنًى عنها تمامًا؛ إذ كان ميسور الحال قليل النفقات، لا يدخِّن ولا يسهر ولا يشرب الخمر.

ولقد تعجَّبتُ من مسلكه هذا، وتعجَّبتُ أكثر لهذا الرجل المثقَّف إلى هذا الحد، الذي كان في أعماق أعماقه متعصِّبًا إلى هذا الحد.

ولعلَّ هذا نفسه هو الذي دفعه في نهاية حياته إلى العمل في دار صحيفة كبرى كان يُناصبها العداء ويهاجم أفكارها بشدة، ولعلَّه نفس الموقف الذي دعاه في النهاية إلى أن يكتب كلامًا كان يرفضه ويحاربه من قبل.

وإلى جانب هؤلاء الأعلام كان يعمل عشرات الأرزقية هم في الأصل محاسيب بعض الشيوخ والنواب المحترفين، وكان يعمل أيضًا عشرات من الصحفيين المحترفين يكتبون ما يُطلَب إليهم بالأجر ولم يكُن لهؤلاء أدنى اهتمام بشيء، وكان كل همهم تحقيق مصالح شخصية على حساب المجلة.

وكان فيها أيضًا شباب يتفجَّرون بالحماس والنشاط، وفي أدمغتهم تدور أفكار جديدة، ولديهم طموح من نوع خاص.

كانت جريدة النداء إذَن عالمًا خاصًّا مستقلًّا، ولم يكُن لها نظير بين دور الصحف الأخرى، وكانت شيئًا وسطًا بين دار الهلال ومسامرات الجيب، فهنا مُحرِّرون محترفون يعملون بالأجر، وهنا أيضًا صياع وعلى باب الكريم، وهنا أساتذة وأصحاب رأي علموا الأجيال المتعاقبة، وهنا كل شيء وأي شيء يحتفظ بالشكل أما الجوهر فلا شيء يهم.

الجريدة تظهر كلَّ أسبوع كالمعتاد، والمحرِّرون يعملون كلَّ يوم كالمعتاد، ومع ذلك فليس للمجلة قارئ واحد مواظب، وإنما تقع في أيدي القرَّاء مصادفة وتمضي بهم ولا تؤثِّر فيهم.

ورغم أنني نشرت فيها عشرات المقالات خلال شهر واحد، فإنني لم أسمع من أحد على الإطلاق كلمة استحسان واحدة، أو كلمة استهجان واحدة، أغرب شيء أن المحرِّرين أنفسهم لم يكونوا من قرَّاء المجلة، وكان يوم الصدور بالنسبة لهم يوم عيد لا لشيء إلا لأنه يوم الإجازة!

وكان أمام باب المجلة بقَّال نشيط كلَّ بضاعته جبنة وطرشي وعيش بلدي، وكانت مرتبات المحرِّرين تذهب كلها إلى هذا البقَّال، فقد كان أغلب المحرِّرين عزَّابًا ولم يكُن لهم بيوت وكان كل طعامهم من عند البقَّال، ولَّما كانت الجبنة والطرشي تقطع القلب وتحتاج إلى شاي تقيل ليقتل سمها فقد توسع البقَّال فأصبح بقَّالًا وقهوجيًّا، ولَّما كان الشاي بعد الجبنة يحتاج إلى تدخين سجاير، فقد توسَّع البقَّال فأصبح تاجر سجاير أيضًا.

من خلال الجبنة والشاي والسجاير استطاع البقَّال أن يستولي على مرتبات المحرِّرين كلَّ شهر، وأصبح التعامل بينه وبين الإدارة مباشرة بعد أن تكررت مماطلة المحرِّرين وزوغانهم أول الشهر، واستطاع أن يصِل إلى اتفاق مع الإدارة للحصول على الديون بشرط أن يقدِّم أوراقًا بإمضاء المحرِّر.

ولقد تطوَّرت تجارة السيد البقَّال تطوُّرًا خطيرًا بعد ذلك فأصبح يبيع الحشيش والأفيون، وأغلب الأوراق الممضاة من المحرِّرين التي قدمها البقَّال للإدارة كانت ثمنًا لهذه الأصناف الممنوعة.

ولكن أغرب شيء وقتها خلال الشهر الذي قضيته في المجلة هو أن محرِّرًا طيِّب القلب استطاع العثور على حجرة مهجورة فوق سطوح المجلة، واستطاع الحصول على سرير سفري صغير واحتلَّ الحجرة دون علم أحد، وأصبح يبيت في المجلة كلَّ ليلة وكان يمكنه الاستمرار دون أن يدري أحد، لولا حادثة وقعت ذات مساء عندما حضر ذات ليلة إلى المجلة ومعه فتاة كومبارس، وسمح له البواب باصطحابها، ثمَّ أغلق البوابة وصعد هو الآخَر إلى السطح مُعلِّلًا النفس بقضاء سهرة لطيفة، غير أن المحرِّر رفض أن يشارك البوَّاب في قضاء السهرة، ونهره بشدة وطرده شرَّ طردة.

وفي الصباح كان خبر الحجرة التي فوق السطوح قد بلغ صاحب المجلة، وثار صاحب المجلة بشدة وهدَّد المحرِّر بالطرد ثم أنذره في النهاية بأن يدفع أجر الحجرة وبأثر رجعي أو يستقيل فورًا من الجريدة.

وقبل المحرِّر الاقتراح الأول ودفع أجر الحجرة وأقام فيها بعد ذلك وأصبح ساكنًا وله شأن وأصبح من حقه دعوة مَن يشاء إلى الحجرة دون أن يكون للبوَّاب حق مشاركته السهرة أو الاقتراب من الحجرة في أي وقت!

وفجأة وقبل نهاية الشهر بقليل جاء إلى الجريدة رجل فلاح وموظف بالحكومة، وعلى صدغه عصفورة ناصحة وتكاد تهم بالطيران، جاء الرجل ليتولَّى منصب مدير عام المجلة، وأُعلِنَت الطوارئ في الحال، فقد أُشيعَ أنه جاء ومعه مشروع كامل للتنظيم.

وعندما جاء أول الشهر نزلت ووقفت أمام أحمد عبد العزيز صرَّاف المجلة، وكان رجلًا باردًا كسمكة ميتة، وراح الرجل يتفرَّسُني كأنني عجيبة من مخلوقات الرب انقرضت منذ زمن بعيد، وهزَّ أحمد عبد العزيز رأسه عدة مرَّات وأعلن الخبر الذي لم أكُن أتوقَّعه أبدًا، اسمي ليس في كشف المحرِّرين، بمعنًى آخَر أنا ما زلتُ على باب الكريم وبلا مرتَّب، وحسبت الأمر مجرَّد مزاح، ولكني تأكَّدت أن الأمر جد كلَّ الجد عندما الْتَقيتُ بالمرحوم قاسم جودة وبدا قاسم بائسًا ويائسًا وغير ذي نفوذ.

وخرجت من مكتب قاسم لا أكاد أرى شبرًا واحدًا أمامي، ورغم أنني لم أكُن قد تجاوزت العشرين من العمر، فإنني رُحتُ أجرُّ رجلي جرًّا كأنني قفزت إلى سن المائة فجأة، وأحسستُ بالدموع تنزلق من عيوني إلى جوفي وبأنني أختنق، ورحت أمشي على غير هدى ولم أتنبَّه إلا وأنا على كوبري قصر النيل، وهواء مارس البارد المنعش اللذيذ يضرب وجهي بقسوة.

كانت المشكلة التي أواجهها أكبر من أن تُحَل ... ففي خلال الشهر الذي مضى أحسستُ بزهو لم أحسَّ به من قبل، ولأول مرَّة في حياتي أشعر بنوع من الاستقرار لم أشعر به في حياتي، كنت قد أصبحتُ محرِّرًا وبعشرة جنيهات في الشهر، وأتاح لي هذا المرتَّب الوهمي حرية أوسَع في التعامل مع الناس، وعلى الطريق الموصل إلى بيتي اقترضت من البقَّال ومن القهوجي ومن دكَّان السجاير، وكان الجميع في انتظاري أول يوم في الشهر، وكانوا على أحرِّ من الجمر لعدة أسباب ... أولها: للحصول على ما في ذمتي من نقود.

والسبب الثاني: إن أحدًا منهم لم يكُن يثق في أنني قد استوظفت فعلًا، وأنني يومًا ما سأقبض بأصابع يدي الخمسة على عشرة جنيهات مرة واحدة.

ولقد تحقَّق ظنهم فعلًا، اتضح أنهم كانوا أعلم مني بمهنة الصحافة، وأدرى مني بالأحوال في مجلة النداء.

وما زلت أذكر ما حدث في ذلك اليوم المهبب بالتفصيل، ذهبت كعَّابي إلى حديقة الأورمان واقتحمتها فجأةً، رغم أنني لم أكُن من هواة الحدائق ولم يسبق لي الذهاب إلى أي حديقة إلا لغرض أكل البلح أو معاكسة فتيات المدارس، واخترتُ مكانًا تحت شجرة وجلست كالعاشق الولهان أحدِّق في لا شيء وعقلي يعمل ولكن بلا انتظام كأنه ساعة روسكوف خسرانة، وأحسستُ فجأةً بأنني أحمل عمارة الإيموبيليا فوق رأسي، وأن سيفًا ملتهبًا يخترق عظام رأسي ويستقرُّ في مخي، في أكثر الأجزاء حساسية من مخي، وشعرت بأنني أكاد أسقط مغشيًّا عليَّ، كانت الشمس قد مالت إلى المغيب عندما استيقظت لأجد

نفسي تحت الشجرة وحارس الحديقة يهزُّني بعنف لكي أنهض وأمضي، فقد أغلقت الحديقة أبوابها منذ فترة.

وألقى الرجل الطيِّب على مسامعي سؤالًا وأنا أتحرَّك نحو باب الخروج: هوه إنت غريب يا بني؟

وهززتُ رأسي في فتور وأنا أزحف كسلحفاة عجوزة نحو الخارج. ورحت أتسكَّع في شارع مراد فترة قبل أن أزحف من جديد نحو الجيزة، وعلى أقرب كرسي في قهوة محمد عبد الله جلست وطلبت واحد شاي مظبوط للغاية، وعندما حضر عم عبده ومعه الشاي وقف أمامي وراح يتفرسني وعلى فمه ابتسامة، وقال وهو يهز رأسه برفق: الشاي ده هتدفعه راخر ولَّا من حساب الشهر الجديد؟

ووخزتني كلمة «راخر» فهي تعني ببساطة أن عم عبده قد أصدر حكمًا لا يقبل النقض أن فلوس الشهر الماضي ستُدفَع حتمًا، وأزعجني شعور عم عبده الواثق من نفسه، فهذه الثقة الزائدة عن الحد ستدفعه حتمًا إلى ارتكاب جريمة في اللحظة التي يكتشف فيها أن ثقته لا مبرِّر لها، وأنني لا أملك نقودًا من أي نوع على الإطلاق.

وجلست أفكِّر في وسيلة للهروب من عم عبده، ثم الهروب من البقَّال وبتاع السجاير، فإذا لم أتمكَّن إلا من الهروب من عم عبده، فمعنى ذلك أن على العبد لله أن يبحث لنفسه عن مأوًى ينام فيه تلك الليلة.

وفجأة قطع حبل تفكيري يد هزت كتفي بعنف، وارتعش بدني كله فقد ظننتُ أنه البقَّال، وعندما الْتَفتُّ مذعورًا وقد رسمت على شفتي ابتسامة نفاق مريضة، وجدت صديقي الشاعر كمال العسلي أمامي، وكان كمال قد هجر العمل معنا في مجلة مسامرات الجيب، ثم زهد الحياة في المدينة وآثر العودة إلى مسقط رأسه في الصعيد الجواني، ومضت عليه سنوات لا نسمع عنه خبرًا حتى فوجئت به تلك الليلة، يقف منتفشًا كالديك الرومي، عليه علامات سرور دفينة، وهو الذي يبدو مكتئبًا على الدوام.

وسألني كمال عن الأحوال فحكيت ليه باختصار، ومطَّ شفتَيه في ازدراء وقال بطريقته المشمئزة: لسة الصحافة فيها الوساخات دي؟ هه ... شيء حقير قوي.

وسألته عن أحواله فقال وهو شديد الانبساط أنا كسبت الجايزة الأولى من مجمع اللغة العربية، ودون أن أسأله، قال على الفور: الجائزة ثلاثمائة جنيه!

وسألته في براءة: وهتقبض الجايزة إمتى؟

فقال على الفور: أنا قبضتها خلاص!

وهتفتُ بدون وعي: كذاب!

ولما مطَّ شفتَيه احتقارًا قلتُ متحدِّيًا: طيِّب وريني.

وانتزع كمال رزمة أوراق مالية من فئة العشرة جنيهات! ووقع قلبي في قدمي، ها هو شعار عم سعد بياع العرقسوس يتحقَّق «فرجه قريب»!

وها هو الفرج يتحقَّق فعلًا ومن حيث لا أحتسب ومن حيث لم أكُن أدري!

وقال كمال: انهض بنا نسهر ليلة من ليالي العمر.

وقلت لكمال: أعطني عشرة جنيهات قبل كل شيء وعندئذٍ أستطيع أن أتحرَّك.

وناولني كمال المبلغ واستأذنتُ عدة دقائق دفعت خلالها ديون البقَّال وبتاع السجاير، وعُدت مرَّة أخرى لأدفع لعم عبده، ثم انطلقت مع كمال العسلي لنقضي أيامًا من أحلى أيام العمر، فلقد كنا نملك الشباب والأمل والمستقبل كله، ولأول مرة كنا نملك مع كلِّ هذه الأشياء المال، ولكن المال الذي كان مع كمال العسلي لم يلبث أن تبخَّر، وعدنا من جديد نبحث عن عمل، وما زلتُ أذكر تلك الليلة الممطرة الموحلة التي سبقت رحيل كمال العسلي إلى الصعيد.

كان الوقت شتاءً، وعاصفة رهيبة تصفع وجه القاهرة بشدة، وعبثًا حاولنا اللجوء إلى مكان يحمينا من البرد وبشرط ألا يكلفنا شيئًا، ثم تذكرنا فجأة أن زميلًا من زملاء مسامرات الجيب قد فتح الله عليه فاشتغل في جريدة يومية ميتة لم يكُن يقرؤها أحد على الإطلاق، ولم تكُن تظهر في السوق، ولكنها كانت تطبع مائة نسخة لزوم استهلاك أعضاء الحزب والسفارات الأجنبية، وكان مغرورًا ككل فاشل، فاستعان بزميلنا إياه مديرًا لمكتبه، مع أن البيه رئيس التحرير نفسه لم يكُن في مكتبه شيء أكثر من المقال الفاشل الذي ينشره كلَّ يوم.

ودخلنا على صديقنا في الليل وفي البرد، واستقبلنا في مكتب فاخر، وأكثر من مدفأة تنفث الدفء في أرجاء المكان، وعلى الباب فراش مستعد، وطلب لنا الشاي ثم راح يشرح لنا ما خفي من عبقريته، وما هي العوامل اللازمة للنجاح؟ ولماذا تتوافر فيه هذه العوامل بينما لا تتوافر في أحد سواه؟

وقضينا الليل كله نسمع ولا نعلِّق، والحق أننا قضينا الليل بطوله نشرب الشاي وندخِّن السجاير ونستمتع بالدفء.

وفي الفجر غادرت مكتبه إلى الشارع، وغادره كمال العسلي إلى الصعيد.

كانت تلك هي آخِر ليلة لكمال في القاهرة قبل أن يغادرها لمدة عامين كاملين ثم يعود من جديد ولكن بعزم جديد وفِكر جديد وثقة بالنفس لا حدَّ لها.

فقد كان كمال قد حصل على جائزة الشعر، وكان ديوانه اسمه «الأنداء المحترقة» وقد استغرق الاسم ثلاث ساعات كاملة من وقت اللجنة لكي تتعقب الأصول اللغوية لكلمة الأنداء منذ فجر اللغة.

وفعلًا، عدت من جديد إلى النداء ولكن بمُرتَّب حقيقي، ثمانية جنيهات كلَّ شهر، ونصحني الرجل الفلاح أبو عصفورة الذي هو مدير الإدارة أن أنتبه جيدًا في عملي وأن أحصل على مناشت وهو جمع مكسر غير سالم لكلمة مانشيت!

ولقد وعدت بالحصول على مناشت كثيرة، وضحكت في سرِّي من جهله العظيم، لأنه لو كان قد اشتغل بالصحافة من قبل ولو لمدة يوم واحد لأدرك أن المانشيت يحصل عليه الصحفي المحترف المدرَّب مرَّة كلَّ عدَّة شهور!

وكانت حرب فلسطين قد هدأت وتوقف صوت الرصاص، وكفت صرخات الجرحى عندما أصبحت محررًا وله مرتب ... ولقد بدأت العمل بسلسلة تحقيقات صحفية عن شهدائنا في المعارك، وقدمت أكثر هؤلاء الشهداء في لحظاتهم الأخيرة، وفي أكثر من عشرين صفحة كاملة وكان عملًا صحفيًّا مجيدًا رغم أن أحدًا من الناس لم يشعر به، حتى أُسَر هؤلاء الشهداء أنفسهم لم يشعروا لحظةً واحدة أن هناك مجلة سيارة تكتب قصص أبنائهم! ومع ذلك مضت الحياة هيِّنة لأول مرة، وشعرت لأول مرَّة في حياتي بأنني فعلًا قد أصبحت صحفيًّا، وشعرت أيضًا بواجب القيام بدور الصحفي النشيط في المجتمع! فأسهر حتى الصباح وأنام حتى الظهر، وأكتب في المساء، ثم أنطلق في الحياة بغير حدود!

وذات مساء هبط في مطار القاهرة زعيم من زعماء العالم، وعَلَم من أعلام الفكر والسياسة في العصر الحديث، وقائد لأمة من أكبر أمم أسيا والكرة الأرضية ... هبط مطار القاهرة الزعيم نهرو، ولقد أُتِيح لي أن ألقاه مصادفة، وأن أحصل منه على كلام هزَّ مصر كلها هزًّا وأشعل نار معركة حامية الوطيس بين القصر والوفد، ولكن كيف الْتَقيتُ به وكيف دارَ الحديث بين الزعيم الكبير والصحفي الشقي الذي كان منظره يوحي لَمَن يراه أنه تلميذ عابث أو صبي جرسون في كافيتريا المطار؟!

إنها قصة وقعت فعلًا، ولكنها أغرب من الخيال.

ولقد حدث لي خلال الأسابيع الأولى لعملي المستقر في الصحافة عدة حوادث هامة للغاية، سيكون لها أثر بعيد في نظرتي للأمور عامة وللحياة السياسية في مصر على نحو خاص ... وكانت الحادثة الأولى تتلخَّص في أن رجلًا تركيًّا مهروش المخ أبله لا يكاد يفرِّق بين لاعب الكورة وحمار الوحش، وصل إلى مصر فجأة في زورق شراعي في طريقه إلى رحلة

بحرية حول العالم ... وما إنْ وصل التركي الأبله إلى القاهرة ورسا بزورقه على ضفة النيل الغربية بالقرب من كوبري الجلاء حتى ثارت ضجة هائلة في المدينة حول الأمير الأشقر الوسيم صاحب النظرات الحالمة والذقن المدبَّب، وتهافتت عليه بنات الطبقة الراقية (!!) حتى أصبح الأمير التركي ولا أمير من أمراء المماليك، دعوات وسهرات وحفلات وحوادث طلاق كل يوم وحوادث انتحار وحوادث هروب من بيت الزوجية ... ثم حطَّ الأمير في النهاية على بيت الأمير محمد علي رءوف وأصبحت كل جهوده في دنيا الغرام حكرًا للأميرة نسل شاه أجمل وأشهى بنات أسرة محمد علي!

ولقد قُدِّر لي أن أرى هذا الأمير ذات ليلة من ليالي شهر يونيو الحارة حينما دعا سموه إلى مؤتمر صحفي على ظهر زورقه، ولم يكن في المؤتمر الصحفي سوى محرِّر آخَر مثلي وعشرات من مندوبي الإعلانات جاء كل منهم يسعى على رزقه، وبينما سكت أنا وزميلي الصحفي، راحت الأسئلة تنهمر على رأس الأمير من مندوبي الإعلانات، وسمو الأمير إياه يجيب وقد رسم على شفتَيه ضحكة عريضة بلهاء ليس لها مناسبة.

والحق أن الرجل كان تافهًا غاية التفاهة، جهولًا غاية الجهل، ولكنه كان في الوقت نفسه وسيمًا غاية الوسامة، جميل الصورة كأنه يوسف الصديق، مفتونًا بنفسه كأنه نجمة سينما عالمية مدلَّلة وكان يتمتَّع بشارب دوجلاس، بدا من النظرة الأولى أنه محور حياة صاحبه، وأنه أهم موهبة يتمتَّع بها الأمير.

ولقد كانت الأسئلة التي أخذت تنهمر على رأس الأمير الهايف أكثر هيافة من سموه، وكانت كلها من طراز، هل تنوي سموك مقابلة ملوك العالم؟ هل تنتهز هذه الفرصة لحل بعض المشاكل العالمية؟ ما رأي سموك في مشكلة فلسطين؟

ولقد أجاب سمو الأمير على هذا السؤال بجواب يليق بحجم المشكلة، قال سمو الأمير ونفس الابتسامة البلهاء مرتسمة على وجهه: مشكلة فلسطين بعدين مش تمام، بعدين لازم مشكلة فلسطين لازم! وقد أبدى أحد مندوبي الإعلانات إعجابه الشديد بالتصريح الخطير بأن صاح معجبًا كأنه من سمِّيعة أم كلثوم، الله، الله يا أمير! في الوقت الذي انطلقت منِّي ضحكة مجلجلة رغم أنفي، وقد انتهت الضحكة بشخرة غير متعمدة، ولقد تأزَّم الموقف للغاية ولكن سمو الأمير ضحك هو الآخَر وشخر، ثم قال وهو يهز رأسه: فلسطين ... ها ها ها!

ولقد انتهى المؤتمر الصحفي بعد ساعة، وانصرف مندوبو الإعلانات بعد أن وقَّع الأمير على أذونات نشر تُدفَع بعد ذلك ... وانصرفت أنا والصحفي الآخَر، ولكنَّه توقَّف عند

الباب واستأذن مني لدقائق، ثم غاب عند الزورق وعاد والضِّيق يبدو عليه، وراح يزفر بشدة ونحن نتمشَّى على الشاطئ، ثم فجأةً قال في غيظ شديد، يلعن أبو الأُمَرا اللي بالشكل ده! واستطرد دون أن أسأله، قال أمير قال، دا شحَّات ولا يسوا، دنا رجعت له بحسب عنده دم، ولكن ولا حياة لَمن تنادي ... أنا افتكرته هيناولني ظرف لكن لا فيه ظرف ولا حتى جواب.

وعندما سألتُه عن سر الظرف الذي ينتظره، قال في براءة: ظرف فيه فلوس، ما هي دي العادة، لما يكون راجل أمير زي ده لازم يفرق ظروف على الصحفيين، لكن دا باين عليه شحَّات! ولم يكُن سموه يبدو عليه في الحقيقة أنه شحَّات، ولكن كان يبدو عليه أنه نصَّاب، وأنه ولد حلنجي كما الثعبان، وأنه صايع تركي مغامر، استطاع أن يركب على أكتاف الطبقة المصرية الراقية (!) وأن يعبث بأجمل بنات تلك الطبقة وأن يتقاضى منهن الحساب!

ولقد كان يوم مغادرته مصر يومًا صعب وقفاته كما يقول مطرب الأرغول، خرجت مئات من البنات والنساء إلى الشاطئ ومناديلهن مبلَّلة بالدموع ... وأغلب الظن أن الأمير الصايع ركن الزورق في ترعة المحمودية واستقلَّ أول سفينة إلى إسطنبول! بعد أن عاش في مصر عامًا كأعوام هارون الرشيد، وخرج منها بثروة تكفيه بقية العمر.

ولقد أدركت من خلال هذا الحادث البسيط أن الحياة في مصر عفنة إلى الحد الذي سمح لنصَّاب تركي وسيم أن يبيع فيها الكذب والحب، ولست أدري حتى هذه اللحظة ما الذي أعجب ستات الزمالك في هذا التركي الأبله؟ ثقافته أم درايته أم فهمه الواسع العميق؟ أم خفة دمه؟ أم لعلَّه الشارب الدوجلاس هو الذي جذب كلَّ هذا العدد الهائل من الستات الراغبات في البهجة ... والبنات الساعيات إلى الفرفشة، خصوصًا إذا كان الرجل المفرفش يتمتَّع إلى جانب موهبة الشنب بموهبة أخرى هي لقب الأمير!

أما الحادثة الأخرى فكانت أعجب وأغرب، فقد تلقَّيتُ دعوة من صديق صحفي كان لامعًا تلك الأيام بأن أتوجَّه معه إلى حفلة شاي في الخامسة مساء في مكتب بشارع سليمان باشا، وقال يشجعني على الحضور أن علي ماهر باشا سيحضر الحفل، ولَّما كانت ملابسي لم تكُن تسمح بحضور حفلة يحضرها رجل صاحب مقام رفيع فقد اعتذرت ... ولكن الصديق ألحَّ وأصرَّ عليَّ أن أحضر ... وقال يُغريني على الحضور ... ستتعرف على الباشا في الحفلة وسيُفيدك هذا في عملك الصحفي.

وفعلًا ذهبت إلى المكان ومعي طوغان فقد كان معزومًا هو الآخَر ... ولم نجِد هناك إلَّا سبعة أشخاص يبدو عليهم جميعًا أنهم من الطلبة ... وثلاثة أشخاص في المعاش، علمنا

بعد ذلك أن أحدهم عضو في مجلس النوَّاب عن دائرة في الصعيد، ثم خمسة من محرِّري الصحف الغلابة أمثالنا، ورغم هذا العدد الضئيل من الحاضرين فقد كانت الموائد عامرة بكل أنواع التورتة والجاتوه والفواكه … وبدا على الحاضرين جميعًا عندما بدءوا في شرب الشاي أنهم لم يتذوَّقوا طعامًا على الإطلاق منذ أول أمس!

وراح بعضهم يرشف بصوت عالٍ، وبعضهم يمضغ بطريقة مقزِّزة كأنه طاحونة دبش فوق جبل المقطم، وفجأةً قطع عليهم لذتهم دخول علي ماهر فجأة، وترك الجميع الأكل والرشف والزلط جانبًا ووقفوا يصفقون للباشا الأنيق الذي ارتسمت على محيَّاه تعبيرات صارمة كأنه روميل على أبواب معركة العلمين!

وفجأةً قال الباشا يخاطب الحاضرين يا شعب مصر، لقد دقَّت ساعة البداية وحانت ساعة العمل، وإني أعلن عليكم قيام جبهة مصر، لتعمل على تطهير البلاد، ونموها السريع، وإقرار السلام والعدل في ربوع العالم! وعليكم (يقصدنا نحن) أن تتمسكوا بمبادئ جبهتكم، وأن تناضلوا «برضه إحنا» نضال الأبطال من أجل تحقيق برنامجكم، وسننتصر بإذن الله وبفضل تضحياتكم «إحنا أيضًا»!

ولَّما كنتُ لا أنوي التضحية بأي شيء! ولأنني كنت أحبُّ مصطفى النحاس ولا أحد سواه، ولأنني كنت أرى أن علي ماهر رجل مثل مدينة طنجة، على الحياد في كل شيء، فقد أدركت أنني لست المقصود بكلمة أنتم، ولذلك نظرت خلفي، فإذا بالخمسة عشر شخصًا الآخَرين ينظرون خلفهم بحثًا عن هؤلاء الذين سيؤمنون أولًا ثم يُضحُّون بعد ذلك! وخرجت دون أن أهتم بما جرى، وحسبت الأمر كله حفلة شاي وهزار ورجل وزير طيب أطعمنا دون أن يريد منا جزاءً ولا شكورًا!

ولكن في صباح اليوم التالي خرجت الصحف اليومية بعناوين بارزة للغاية وعلى عرض الصفحة، علي ماهر يعلن تأليف جبهة مصر، الجماهير الغفيرة تحضر المؤتمر وتعاهد علي ماهر على الالتفاف حول مبادئ الجبهة والتضحية من أجل النصر! حشود غفيرة! هل كان بين الخمسة عشر رجلًا واحد اسمه حشود وأبوه اسمه غفيرة! أين هذه الجماهير التي عاهدت والتي ضحت؟

أغرب شيء أن بعض الجرائد نشرت صورة الباشا وهو يخطب ثم صورة الخمسة عشر رجلًا وهم يُصفِّقون، وعلى هذه الصورة قام حزب جبهة مصر بزعامة علي ماهر باشا، ولكنه قام لينفض! ولفظ الحزب أنفاسه قبل أن ينتهي علي ماهر من إلقاء خطابه الخطير في الحفل!

هكذا إذَن تصور الجرايد ما يجري في الحياة للناس ... أمور كلها نصب واحتيال وأحسن من السرقة وكافة شيء يغضب الرحمن.

أمَّا الحادث الثالث فقد هزَّني بعنف، وقلب أمعائي من الداخل كأنه طعام فاسد، ولقد كان بطله صديقًا صحفيًّا شابًّا طيِّبًا وساذجًا، وقد همس في أذني ذات صباح أنه أصبح مكافحًا وطنيًّا وأنه أصبح عضوًا في منظمة شيوعية اسمها حدتو ... ولقد كنت تلك الأيام أسمع عن الشيوعيين في مصر وأنفر منهم، ولكني كنت معجبًا بهم على نحو ما.

وقال صديقي أنه سيتسلم هذا الصباح منشورات تدعو إلى الثورة ضد النظام الملكي، وأنه سيتولى قيادة منطقة في وسط القاهرة، وأنه سيكون مسئولًا عن أربع خلايا، كل خلية مكوَّنة من أربعة أفراد، وراح يحكي لي عن هدف الثورة القادمة، وبرنامج المنظَّمة، وكفاحها وتاريخها الحافل الطويل!

ولقد اندهشت لهذا التطوُّر المفاجئ الذي طرأ على صديقي، فلقد كنت أعرفه حق المعرفة، وكنت أعلم أنه يؤمن في السياسة بالظهور في الصور إلى جانب الزعماء دون أن يكون مؤمنًا بمبادئ هؤلاء الزعماء، وكانت بوصلته تبدو دائمًا خربانة في بحر السياسة المصرية الهائج المتقلِّب، ولذلك كان فاقدًا الاتجاه الصحيح في كل الأحيان ... ورغم هذا كله فقد صدَّقتُه، وذهبتُ معه وانتظرنا أكثر من ساعة عند باب سينما مترو حتى أقبل في النهاية شاب أصلع يضع نظارات طبية بشنبر سلك رفيع ويرتدي بدلة قديمة خفيفة رغم الشتاء القارس، ويتأبَّط رزمة أوراق ملفوفة بعناية في جريدة قديمة، وعندما أصبح في محاذاة صديقي غمز له بعينه فمضى هذا خلفه بحركة لا إرادية كأنه منوَّم مغناطيسيًّا ... وانحرفا معًا داخل عطفة في نهاية شارع سليمان باشا، ثم سلمه الأوراق ولم يتبادلا كلمة واحدة وافترقا على الفور.

وراح صديقي الذي أصبحت الأوراق في عهدته يمضي سريعًا في الشارع دون أن يخاطبني بكلمة، وبدت عليه أهمية مفاجئة كأنه عمرو بن العاص على أبواب مصر، وعندما حاولت التحدُّث إليه شخط شخطة عنترية وأمرني بالصمت، وراح يضرب على غير هدى حتى وصلنا إلى ميدان باب اللوق، وركبنا الترام معًا لكن في صمت وفي مقاعد متباعدة ... وكان صديقي ينظر باهتمام شديد إلى كل راكب جديد يصعد الترام ثم يغمز لي بعينه مؤكدًا لي عن طريق الإشارة أنه مخبر نشيط يتعقبه!

ورحنا نعبر شوارع الجيزة وحواريها حتى وصلنا إلى منزل صديقي، وصعدنا في حذر وأغلقنا الباب، وتنهَّد الصديق بعمق وزفر زفرات حارة وبدا كأنه تخلَّص من كابوس شديد ... وعاد من جدد يحكي لي قصة كفاحه وجهاده! ثم سألني في براءة منقطعة النظير

... مش لمَّا الشيوعيين ياخدوا الحكم أنا أبقى رئيس تحرير؟ ولم أُجِبه بشيء، وسألته أنا الآخَر عن مصدر المنشورات التي معه، وفوجئت بأنه لا يدري، وأنه يعاني من وجودها معه، وأنه يخشى لو تركها في البيت أن تُضبَط هناك ويكون مصيره السجن لا محالة ... ثم صمت طويلًا قبل أن يقول: إيه رأيك لو حرقتها؟

ولم يكُن ينتظر منِّي جوابًا، كما لو أن سؤاله هذا لم يكُن سؤالًا، ولكنه كان قرارًا أصدره وانتهى الأمر، وفعلًا نهض الصديق وأحضر علبة كبريت وراح يحرق الأوراق الخطيرة أمامي ... وفجأة والدخان يعمي عيوننا انطلقت مني ضحكة رغم أنفي، ضحكة طويلة عميقة صافية، كانت هي خير تعليق على الرواية كلها، وسألني صديقي وهو يغالب الضحك، أنت بتضحك ليه؟ وقلت في هدوء: إنت يظهر مش في منظمة حدتو، أنت في منظمة حرقتو!

وضحك هو الآخَر، ثم ظلَّ يحرق الأوراق في هدوء وبأعصاب قاتل محترف معتاد!

أما الحادث الأخير فقد كان أنكى وأمر!

أوفدتنا المجلة الوفدية التي نعمل بها إلى المنصورة؛ لنقوم بعمل تحقيق صحفي عن أملاك إبراهيم عبد الهادي باشا رئيس الوزراء السعدي، وذهبت ومعي صديقي حلمي للصحفي إياه الذي كان معنا في دار الهلال، والذي ترك العمل هناك وتفرغ للعمل في مجلة النداء وبمرتب ثمانية جنيهات كلَّ شهر.

ولم أفهم السبب الذي دعا مدير التحرير إلى الإصرار على ضرورة سفره معي، مع أن هذه الأمور لم تكُن ضمن اهتماماته ... ثم اكتشفت بعد ذلك بزمن طويل أن مدير التحرير اقتسم معه قيمة بدل السفر، وأن حلمي وعده بهدية زبدة فلاحي عند عودته من المنصورة! كانت الرحلة ناجحة وموفقة لولا تصرُّفات الأخ حلمي ... ففي أول لقاء لنا مع عمدة طلخا وهو نائب وفدي متحمِّس أقسم الرجل أن نقضي الليل في منزله، ولكني اعتذرتُ له بشدة، وأخيرًا وافق الرجل على أن يتركنا نمضي وشأننا، وعند باب الدوار دسَّ العمدة يده في جيبه وأخرج أوراقًا مالية دسَّها في يد حلمي، وتناولها حلمي على الفور ورفع يده نحو السماء وراح يدعو الله على طريقة الشحاتين: إلهي ما يجوعلك كبد ولا يعرِّيلك جسد يا حضرة العمدة! وعندما عاتبته على هذا التصرُّف المعيب، راح يُلقي على مسامعي محاضرة طويلة عن أسلوب التعامل مع الناس والسلوك الطيب في الحياة، وكانت خلاصة مفاهيمه أن الحياة تعاون، وأن الناس في خير ما تعاونوا!

ولقد قضينا في المنصورة عشرة أيام كاملة ... ارتكبنا فيها كلَّ الجرائم واستعملنا كل الوسائل، حتى حصلنا على كلِّ المستندات الدالة على استغلال الباشا لنفوذه؛ كي يضمن لأرضه الري المريح والخصب الدائم.

مستندات حكومية أشبَه بالروايات الكوميدية! مستندات تحمل توقيعات الباشا رئيس الوزراء، والباشا وزير الأشغال والبيه مدير الري والأفندي الملاحظ والولد الغفير!

وفي آخِر ليلة لنا في المنصورة جاء الموظف الذي سرقنا الدوسيه من عُهدته يبكي ويلطم في اللوكاندة ولكننا ادَّعَينا البراءة، وأبلغناه أن الدوسيه أُرسِل إلى القاهرة، وطلبنا منه أن يصحبنا إلى المجلة ووعدناه بردِّ الدوسيه وبمكافأة كبيرة!

وفي تلك الليلة الأخيرة أيضًا حدث للعبد لله حادث غريب للغاية، فقد كان يسكن في الحجرة المجاورة لحجرتنا في اللوكاندة رجل في حوالي الستين من عمره، يرتدي جلبابًا وبالطو أصفر وطربوشًا ويضع تحت الطربوش منديلًا محلاويًّا عريضًا، ويمسك في يده بمظلة، وكانت معه زوجته وهي في السادسة والثلاثين من عمرها، شابة مليحة ممتلئة عفيَّة، جمالها متوحِّش، نظراتها وحركاتها كأنها لبؤة تبحث لها عن أسد جامد وقوي وخطير ... وكان صديقي حلمي الذي تجذبه رائحة النساء من على بُعد ألف ميل قد لضم معها في كلام ليس له مدلول!

وجلست أنا ليلتها مستمعًا، وكنت لم أزَل صبيًّا في الثانية والعشرين من العمر، ولقد لفتَ نظري ليلتها أن المرأة العفيَّة المستوية كانت تختلس النظر نحوي بين الحين والحين، وكان لوقع نظراتها تأثير عجيب على نفسي، فقد كانت عيناها واسعتين عميقتين سوداوين ولامعتين كأنهما من الزفت المغلي!

المهم أنني في تلك الليلة الأخيرة الْتَقيتُ بالمرأة في بهو الفندق المتواضع، وكان الزوج في الخارج وكان من عادته أن يخرج كل صباح ليعود في المساء، ويظلُّ يسعل حتى تنقطع أنفاسه ويسقط مُغمًى عليه من شدة السعال! وتفاهمنا بسرعة أخذت تشكو وتضج بالشكوى من الْتهاب في الأعصاب، وراحت تحكي للعبد لله وهي تبكي كيف أرهقها المرض إلى حد أن الزوج اصطحبها معه إلى المنصورة لتشم الهواء وتسرِّي عن نفسها قليلًا، ولكنه جاء بها إلى البندر وتركها في اللوكاندة وانشغل عنها بأصدقائه في المنصورة.

وفرحَت الست لهذا الوضع وسرحَت هي على كيفها، وكانت ليلة ليلاء انتهت بزغرودة طويلة من الست المشتاقة إلى ذكر يروي عطشها الشديد إلى الحنان والحب والمتعة! وأدركتُ سرَّ انشغال زوجها عنها في المنصورة ... لعلها حركة ذكاء من جانبه ... ولعلَّ كل شيء يدور من خلف ظهره وهو يدري!

المهم أننا عدنا في الصباح إلى القاهرة. وقابلنا صاحب المجلة الوفدي وسلمناه فضيحة رئيس الوزراء السعدي، ولكن هذا الموضوع اختفى إلى الآن فلم يُكتَب له أن يُنشَر قط!

يبدو أن الفساد كان سِمة العصر، وما يحدث في جانب حزب السعديين يحدث مثله في جانب حزب الوفد!

ولقد علمت بعد ذلك بسنوات أن الموضوع كله سلَّمه صاحب المجلة لرئيس الوزراء وقد تمَّت الصفقة بين الطرفَين وانتهى الأمر ... وضاع الموظف المسكين ففصلوه بعد ذلك، وضاع نشاطنا الصحفي الرهيب فلم يُسفر إلا عن خيبة الأمل والفشل والهم!

وعدتُ من جديد أدور في نفس الساقية التي أنا مربوط إليها! عُدتُ أكتب أي كلام وأنشر أي شيء وذات يوم فوجئت بأنني في المحكمة فقد قاضاني أحد القرَّاء المشاهير الكبار ... وكنت قد كتبتُ عنه كلمة ساخرة وقصيرة وقلت بالحرف الواحد، والشيخ فلان يشرب الكوكولا ... و... ويدخِّن السجاير و... هل أقول؟ لا، فأنا شخصيًّا من عشاق الشيخ! وكانت هذه أول قضية صحفية في حياتي، ولقد علمتني الكثير وزودتني بتجارب غنية ولكن يوم نظر القضية لم يغمض لي جفن، وظللت طول الليل أفكر في المصير الأسود الرهيب الذي سأنتهي إليه!

وذات مساء هبط مطار القاهرة المرحوم نهرو، كما قلت، ولم يكُن في استقباله سوى حكمدار القاهرة مندوبًا عن رئيس الوزراء، وعدد من الصحفيين وموظفي السفارة الهندية، ورجل اسمه فخر الدين كان يمثل أندونيسيا في القاهرة، وكانت بلاده في ثورة ولا ثورة فيتنام هذه الأيام!

وكنت أقف في المطار إلى جانب فخر الدين وطوغان، وكان منظري لا يسرُّ عدوًّا ولا حبيبًا، بدلتي شتوي رغم أننا كنا في عز الصيف، وجيوبي منتفخة بأوراق ليس لها لزوم، وفي يدي أوراق وأقلام لزوم الصحافة، وتقدَّمت نحو المرحوم نهرو وصافحتُه وسألته باللغة الهندية عن الصحة والأحوال، فابتسم نهرو وربت على كتفي وشدني من يدي معه إلى استراحة العظماء، وانخدع الحكمدار فظنني مسئولًا كبيرًا في سفارة الهند، أو لعلَّه ظنَّ أنني عميد الجالية الهندية في القاهرة، وأنني ممصوص وممقوت من أثر الجهد البالغ أيام الكفاح! المهم أن الحكمدار الطيِّب رفع يده تعظيم سلام للعبد لله. وأغرب شيء أن نهرو هو الآخَر انخدع مثل الحكمدار، فقد ظنَّ أنني أحد كبار المسئولين المصريين بدليل أن الحكمدار مندوب رئيس الوزراء قد رفع يده للعبد لله بالتحية والإجلال، وجلستُ في استراحة العظماء بين نهرو والحكمدار ساعة زمان، ونهرو يتكلَّم في السياسة ويتكلَّم في

أمور الحياة، وكانت في مصر معركة حامية الوطيس على الضمان الجماعي العربي، وقال نهرو كلامًا ضد هذا الضمان ثم نهض ووقف إلى جانب الطائرة وقال كلامًا شاعريًّا لم أفهمه، وصافحنا جميعًا ثم ركب الطائرة وانصرف في سلام!

وقضيت ساعة مع فخر الدين في المطار أسأله عن الكلام الذي قاله نهرو في استراحة العظماء، ونقلت الحديث كما ذكره فخر الدين، ثم قضيت الليل بأكمله في بوفيه بمحطة السكة الحديد، ثم توجَّهت ومعي الحديث إلى جريدة صباحية كبرى، وعندما اطَّلَع مدير التحرير على الحديث رحَّب بي بشدة ... ولكنَّه رفض نشر الحديث إلا إذا حصلت على توقيع من السفارة الهندية بأن الحديث صحيح وأنهم لا يمانعون في نشره!

وأخذت بعضي وتوجهت إلى دار السفارة الهندية واكتشفتُ أنه لا يوجد بالسفارة سوى موظَّف هندي فعلًا لا يعرف من العربية حرفًا! ولَمَّا أوضحتُ له المسألة برمتها، وشرحتُ له الموقف بصراحة، وافق على الفور على نشر الحديث ووضع خاتم السفارة على الأوراق كلها.

وهكذا نُشِر الحديث فعلًا في أكبر صحيفة يومية في مصر ولكن بلا توقيع، وقد أحزنني هذا الموقف بشدة، ومع أنهم منحوني عشرة جنيهات في الحديث، إلا أنني تمنَّيتُ أن أدفع عشرة جنيهات أخرى وأضع توقيعي أسفل الحديث!

فلقد كان هذا العمل هو أول خبطة صحفية في حياتي، ولقد أقام الدنيا وأقعدها بعد ذلك، وهاجم صدقي باشا السراي واستشهد بالحديث، وهاجم جلاد باشا صدقي باشا في جريدة الزمان، ولم يكتفِ بهذا بل هاجم نهرو أيضًا ... وأصبحت أزمة دولية كبرى، واضطر نهرو بعد أسبوعين من نشر الحديث إلى تكذيبه وهو في باريس، وقال للصحفيين الفرنسيين: لا أذكر أنني الْتَقيتُ بصحفي مصري في مطار القاهرة.

وكان نهرو على حق، فهو لم يعرف لحظة واحدة أنني صحفي ... ولا الحكمدار المصري مندوب رئيس الوزراء كان يعلم صفتي.

ولكن الجريدة اليومية الكبرى الْتَقطَت القفاز كما يقولون، وتحدث نهرو ونشرت الحديث مختومًا بخاتم السفارة، واضطرَّت السفارة إلى السكوت فلم تعلِّق على الموضوع بشيء!

ولقد خُيِّل إليَّ أن حديث نهرو فرصة للعمل في الجريدة ... ولكنهم رفضوا بشدة، واقترحوا أن أعمل معهم بالقطعة ... وهو نظام كان يجعل من الصحفي شيئًا يشبه الشيَّال في محطة مصر، فأنت عليك كل الواجبات نحو الجريدة ... ولكن ليس على الجريدة أي

واجب نحوك ... وبينما لا تستطيع تمثيلها أو التحدُّث باسمها في أي مكان فإنك تستطيع أن تنشر فيها إنتاجك، وضع مقلوب رفضتُه بشدة أنا الآخَر وعُدتُ للعمل في هدوء في مجلة النداء.

وذات يوم تلقَّيتُ دعوة من صديقي فخر الدين لحضور حفلة استقبال كبرى في فندق سميراميس احتفالًا بإعلان استقلال إندونيسيا، وكانت أول مرَّة أدخل فيها سميراميس، وأول مرَّة أيضًا أحضر فيها حفلة استقبال من هذا النوع، ولذلك دخلتُ الحفل أتلفَّتُ خلفي كأنني فلاح يدخل بيت العمدة لأول مرة.

وأحسستُ بخجل شديد عندما رأيتُ كلَّ الرجال في ملابس أنيقة، وكل النساء في رشاقة الطاووس، ولمَحَني فخر الدين فأقبل نحوي وسحَبني من يدي ووقف يتكلَّم معي عدة دقائق، ولكنها كانت كافية لإعادة الثقة إلى نفسي!

ووقفتُ في الحفل وحيدًا بعد ذلك حتى افتُتِح البوفيه ... فاتجهت نحوه في خوف شديد كأنني ذاهب إلى مدرِّس اللغة العربية ... وعندما رأيت إدجار جلاد باشا استأنستُ ووقفت إلى جواره ... ولم أكُن أعرف جلاد باشا ولم يحدث أي لقاء بيننا من قبل ... ولكنها الخيبة العريضة أوحَتْ إليَّ أنه ما دام جلاد باشا صحفي، وما دام وجهه مألوفًا لديَّ فهو أهوَن من الآخَرين الذين يملئون الحفل ... ورحت أزحف خلفه ألتقط من البوفيه نفس الأشياء التي يأكلها، واكتشفتُ أن كلَّ شيء الْتَقطَه كان مملحًا، ومع ذلك لم أجرؤ على أن أتناول شيئًا آخَر ... وعندما جاء دور الشاي طلب الباشا فنجال شاي بدون سكر ... وكذلك فعلت أنا الآخَر ... ووقفت أتجرَّع فنجال الشاي كأنه سم أزرق.

واكتشفتُ بعد ذلك بسنوات أن جلاد باشا مريض بالسكر بينما كنت أنا أشكو من مرض الملح!

وعندما خرجتُ من الحفل الفاخر توجَّهتُ إلى أقرب مقهى في ميدان التحرير وطلبت واحد شاي بسكر ثقيل لكي أكسر سم الشاي الآخَر الذي شربتُه هناك ... ولعلَّها كانت أول حفلة وربما الأخيرة ولسنوات قادمة.

وفي هذا العام تألفت وزارة جديدة برئاسة حسين سري باشا لإجراء انتخابات جديدة، وخاض الوفد الانتخابات بكل قواه ... وتقدَّم للترشيح عدد من كبار الصحفيين كان أحدهم رئيس تحرير الجريدة اليومية الكبرى إيَّاها التي نشرت بها حديث نهرو، وأصدرت المجلة ملحقًا يوميًّا عن الدايرة وتولَّى الإشراف على تحريره زكريا الحجاوي، ثم تطوَّر الملحق خلال المعركة إلى ملحق للجريدة وعهدوا بالإشراف عليه إلى محرِّر آخَر، وقبلت العمل في

الملحق الجديد بالقطعة، وسافرت إلى الإسماعيلية مع محرِّر آخَر اسمه هلال كان أشقر مثل عساكر الاحتلال، طويلًا وطيبًا وساذجًا على نحو ما، وكان يعمل بالصحافة بدون حماس وبلا طموح وكان كل آماله أن يزيد دخله عدة جنيهات تُعينه على الحياة في مستوى أفضل! وكان يعمل مدرِّسًا للغة الفرنسية في إحدى المدارس الثانوية وكان يبدو فخورًا ومتعاليًا بمهنته الأخرى، وكنا إذا دعوناه للسهر معنا اعتذر عن القبول؛ لأنه على حدِّ تعبيره «مانا مش زيكوا برضه، أنا مدرس ثانوي»! وكانت عبارة أنا مدرِّس ثانوي هذه يردِّدها في كل مناسبة، وأحيانًا كان يردِّدها فقط دون مناسبة على الإطلاق.

المهم أنا ذهبتُ مع هلال إلى الإسماعيلية لنكتب موضوعًا عن المدينة المصرية التي يدخلها المصري بجواز سفر ويحكمها إنجليز، وكانت الإسماعيلية في ذلك الزمان نسيج وحدها بين مدن مصر، كان الإنجليز يسكنون أغلب عماراتها وكانت الحياة تسير داخل المدينة على نحو إنجليزي، وحتى المارة في الشوارع جميعًا إنجليز!

وفي الليل كانت الإسماعيلية تنقلب إلى كباريه، العساكر يرقصون في الشارع، والضباط الإنجليز يرقصون في البارات، الغناء إنجليزي والصراخ إنجليزي، كأننا في مدينة مارجيت على شاطئ بحر الشمال! وقضينا الليل في بار اسمه بيكاديللي، وفجأة وقع بصر هلال على ولد أسترالي كما فحل الجاموس المعتبر جالس وقد فتح صدره وبان الشعر الكثيف يغطِّي جسمه! ويداه المفتولتان القويتان تتدلَّيان بجواره وقد غطَّى الذراعين وَشْم أخضر شديد الاخضرار، نبات أشجار ونخيل، وقد تدلَّى رأسه الكبير على صدره وراح في نوم عميق، ومع الولد الأسترالي الفحل، تجلس بنت سنيورة جاويش في الجيش، ما أحلاها وما أطعمها!

ونهض هلال كالضبع، وتوجَّه نحو البنت الجاويشة، وجلس على المقعد المجاور، وسأل البنت كام سؤال، والبنت تسمع وتجيب، ثمَّ سألته بعد فترة: لماذا هذه الأسئلة؟ وقال هلال: أنا صحفي في القاهرة وسأنشر حديثك! واعترضت البنت لأنها مجرَّد جاويش في الجيش وطلبت منه أن يذهب إلى القائد البريطاني ... ويبدو أن البنت كانت ساذجة وكانت صادقة، وحسبها هلال بنت عايقة ولئيمة وشقية، فأقسمَ لها بدون مناسبة أنه لا يُجري حديثًا إلا معها؛ لأنها في الواقع وبالنسبة لهلال أعظم من كل ملوك إنجلترا!

واستيقظ الولد الأسترالي على صوت هلال المسرسع، فنظر نحوه بنصف عين ثم أشار له برأسه بأن ينصرف، ثم لم يلبث أن نام من جديد.

ولم يهتم هلال بالولد الأسترالي وعاد إلى مناقشة البنت الحلوة، ولكن الأسترالي استيقظ مرَّة أخرى ونهر هلال وأمَرَه بالانصراف ثم نام وارتفع شخيره في الفضاء، ولكن هلال

مضى في طريقه مع البنت، غير أن البنت أبدَت نفورًا من هلال فسَّرَه هو لخيبته بأنه مجرَّد دلال، وعندما استيقظَ الفحل الأسترالي للمرة الثالثة، كانت البنت يبدو عليها الضِّيق الشديد ولم يتكلَّم الأسترالي هذه المرَّة ولم يحتج، فقد أعذر من أنذر، رفع يده الغليظة وطاح بهلال فإذا به مع المقعد خارج بكاديللي، وإذا بهلال حمامة في الطريق إلى محطة الإسماعيلية والواد الأسترالي خلفه وأنا خلف الجميع وصوت هلال للجو، وصوتي أنا الآخَر يرنُّ حتى أبو صوير.

ولسوء حظي انتبه الواد الأسترالي إلى أنني أجري خلفه، فظنَّ أنني أريد به سوءًا فانحرف نحوي فجريت في الظلام نحو منتصف الشارع، ولم ألحَظ أن بالشارع حديقة وأنها مُحاطة بسياج، لهذا انكسرت رجلي على هذا السياج، ولكنَّه كان قدرًا أخف من قدر كما تقول أمي، فقد انكسرت رِجلي ولكني أُنقذت من الموت بأعجوبة! إذ إنني عندما سقطت على الأرض، لم يرني الواد الأسترالي فاستأنف سعيه خلف هلال!

ولقد قمت بعد ذلك أحجل كالغرب إلى لوكاندة بسطا. وعندما الْتَقيتُ بهلال ضحكت حتى كدت أموت بالاختناق، فقد كان منظره يُضحك الأرامل ... وجهه شوارع، وبدلته تحولت إلى هرابيد، والدم يغطِّي كل جزء في جسمه، ثم يا للهول هلال أفندي المدرس الثانوي يبكي! وقضينا الليل في قسم البوليس، ورغم أننا ذهبنا إلى البيكاديللي في صحبة أحد الضباط فإن الولد الأسترالي رفض أن يذهب معنا إلى القسم، وفي النهاية كاد يعتدي على ضابط البوليس نفسه!

ولم أرَ هلال منذ تلك اللحظة لا أعرف أين ذهب ولا أدري أين ذهبت به الأيام! ولذلك كتبت أنا موضوع الإسماعيلية ونُشِرَ باسمي وفي تلك الليلة التي علمت فيها أن اسمي سيُكتَب في الجريدة الكبرى ظللت ساهرًا حتى الفجر في محطة السكة الحديد، أنتظر الجرائد حتى تُصدَر، وعندما حصلت على نسخة من الجريدة توقفت تحت عمود نور أقرأ المقال وأقرأ اسمي، ورغم أن اسمي كان أسفل المقال، وبالبنط ٩ الذي لا يُرى إلا بصعوبة، فقد أحسستُ بلذة لم أشعر بها في حياتي، لا قبل ذلك ولا بعد ذلك.

ورحت أقرأ المقال عدَّة مرات، فأحسستُ بأنني أكاد أهمُّ بالطيران وأحلِّق في الجو، ثم رحت أتمشى نحو الجيزة، وأثناء المشي رحت ألتهم المقال! وجفا النوم عيوني تمامًا فظللتُ سائرًا حتى سقطت في المساء مُغمًى عليَّ، رغم أنني تقاضيتُ على المقال ثلاثة جنيهات فإنني اعتبرت نفسي من كبار الصحفيين! ورحت أتردَّد على نادي العوالم في آخِر الليل حيث كان يسهر هناك بعض الفتوات وبعض الصحفيين وبعض الفنانين!

وكانت الانتخابات في عنفوانها، وأخبار اليوم تشنُّ حملة صحفية على حزب الوفد أفقدت حزب الوفد نفسه الثقة في نفسه! واتهمت الحزب بالفساد والرشوة واتهمت رئيسه بكل ما يشين الرجال ... وانتهت إلى أن الجماهير قد انصرفت عن الوفد إلى أحزاب الملك والأقلية ... ولكن نتيجة الانتخابات كانت مذهلة ... فقد اكتسح الوفد جميع الدوائر، وانضم الشعب بجميع طوائفه إلى حزب الوفد، وعاد النحاس إلى الحكم، وأصبحت الجريدة اليومية الكبرى مُنتدًى لرجال السياسة والحُكم والفن!

وأصبحت سهرتي كلَّ مساء في حديقة دار الجريدة ... ومن خلال هذه السهرات تعرَّفتُ على فنان مصري متشرِّد وأصيل، ونموذج لن يتكرَّر، حياته تكاد تكون متشابهة مع حياتي مع فارق واحد هو أن حياته أعرَض وأخصَب، ولقد توثقت الصلة بيني وبينه بسرعة ... ومن لحظتها، ولكنني أحببته دومًا، ولقد أحببت فيه شجاعته وانفعاله الدائم وقدرته الفذة على مواجهة المشاكل وطاقته التي بلا حدود، واقتحامه لأصعب المسائل ببساطة المقامر الفنان ... وكان الرجل وقتئذٍ صاحب ألَمع الأسماء في الحقل الأدبي، وكانت برامجه في الإذاعة سريعة الانتشار وكان صاحب صِيت يدوي كالطبل في أنحاء مصر والعالم العربي ... وفي أول ليلة سهرت فيها معه أنفق أكثر من عشرة جنيهات ... ثم اقترض مني عشرة قروش ليدفع أجرة التاكسي!

وربما لهذا السبب أحببت عبد الرحمن الخميسي وصادقته، ولأنه كان متفائلًا رغم ظروفه السيئة ... لا يبالي بما سوف يحدث غدًا رغم أعبائه المالية الضخمة ... وفي تلك الأيام كان الخميسي غارقًا لشوشته في حب شجرة، ثم تحوَّل عنها إلى حب طالبة في الجامعة، وكان يبكي كلما تذكَّرَها، ثم يعكف وحده أحيانًا لتأليف قصائد غزل في الحبيب الذي يتبغدد!

ولقد اهتمَّ الخميسي بكتاباتي وأسدى لي النصيحة بإخلاص، واقترح عليَّ مرة أن أكتب قصة ... ولكني زعمت له أنني لستُ من هواة القصة، وأخفيت عنه أنني أكتب القصة فعلًا ولكني لا أنشرها ... ثم فجأة تحوَّل الخميسي عن مجراه لسبب لا أدريه وتخلَّى عن أسلوبه الرومانسي وراح يكتب بطريقة تعليمية أقرب إلى الخطابة منها إلى الفن الذي كان طابعه القديم.

ولم أشعر بالارتياح تجاه أسلوبه الجديد ... ولكنه عندما دخل معركة صحفية مع محمد التابعي حول الفن والجمال ... ارتحت لرأي الخميسي وإن كنت قد أعجبت بأسلوب محمد التابعي ... ثم اختفى الخميسي بعد ذلك فلم نعُد نراه ثم علمنا أنه تزوَّج ... ولكنه

قبل أن يفارقنا إلى بيت الزوجية كنت قد تعرَّفتُ من خلاله على أعداد وفيرة من المثقفين والصحفيين والفنانين ... فقد كان واسع الاتصال بالناس، على صِلة صداقة متينة بالألوف من جميع الأوساط والطبقات ... مولعًا بالموسيقى والغناء ... ولكن أغرب أصدقائه على الإطلاق كانوا من الذين ضيَّعَتهم الأيام ... هؤلاء الذين حلموا يومًا بالمجد والنجاح والشهرة ثمَّ انكسروا أمام التحديات، وكان يبث في هذا النوع من الناس الأمل، ويجدِّد فيهم الثقة رغم تأكده من أنهم لا يصلحون لشيء ... ولكنه كان يسعى دائمًا لكي يوجد لهم أعمالًا مستقرة ... ولكن أحدهم رفض كل الأعمال التي عُرِضَت عليه، وفضَّل أن يبقى إلى جانب الخميسي ولا يزال يتبعه كظله حتى الآن! ولعل هذه الميزة هي أبرز ميزة في الخميسي، ميزة المسح بعطف على جراح الفاشلين والساقطين في الحياة.

ولكن أبرز رجل عرفتُه من خلال الخميسي، كان صحفيًّا وشاعرًا وكاتبًا وفنانًا وظريفًا، وكان رجلًا ولا كل الرجال، وكان مرآة متحرِّكة لمصر تلك الأيام، وكان بعضًا من تاريخها وقبسًا من روح مصر الذكية القلقة العابثة على نحو ما ... وأدركتُ أن الخميسي، يحب كامل الشناوي لنفس الأسباب التي أحببتُ من أجلها الخميسي، ثم علمت بعد ذلك ومن الخميسي نفسه، أن لكامل الشناوي أفضالًا كثيرة عليه ... وعند أول لقاء لي مع كامل الشناوي عاملني بازدراء شديد، وأهملني بشكل يكاد يكون متعمدًا، وفي اللقاء الثالث سألني عن مسقط رأسي فلما أجبته: المنوفية ... قال مندهشًا: أنت أول فنان تنجبه المنوفية! وعندما استنكرت ذلك بشدة، وعدَّدتُ له أسماء عشرات الفنانين المشاهير وكلهم من المنوفية، نظر نحوي في احتقار ممزوج بالطيبة ... وقال وهو يهز رأسه: أنا باقولك فنان ... فنان ... فاهم؟ اللي انت ذكرتهم دول كلهم شعراء، وكتَّاب، ولكن مش فنانين ... فاهم؟ وعندما لم أتكلَّم، قال بصوت خفيض: انت مش فاهم حاجة أبدًا!

لم تكد تمضي أسابيع على عملي في الجريدة الكبرى حتى صدمت صدمة كبرى في أحلامي، فلقد كانت الجريدة مجرَّد بناء أجوف، وهرم من الرمال الناعمة، وكانت الأوضاع فيها أكثر اعوجاجًا منها في أي مكان آخَر، وتعرَّفت خلال العمل على عشرات من أصحاب الأسماء اللامعة حياتهم أكثر بؤسًا من حياتي، ومرتباتهم لا تكاد تكفيهم ثمن الدخان والشاي، وعشرات من الموهوبين الأصلاء لا يجدون حتى هذا الأَجْر التافه.

ولكن في الناحية الأخرى كان هناك عشرات من الهلافيت التافهين كل مواهبهم أنهم أصدقاء صاحب الجريدة وأنهم يسهرون أحيانًا معه يقصون عليه أحدث النكت وآخِر أنباء المجتمع، ويتقاضون مقابل ذلك مئات الجنيهات باعتبارهم محرِّرين وليس باعتبارهم

ندماء، وأدركت خطر الجريدة التي تستطيع أن تخلق أصنامًا يعبدها الناس، وتستطيع أن تخلق من الفسيخ شربات!

وتعجَّبتُ أكثر لهذا الجهاز الخطير الذي اكتشفه البشر والذي اسمه الإدارة، والذي يستطيع تحويل الموهوبين إلى متسوِّلين، بينما يجزل العطاء وبسخاء لكل مَن يستطيع الحصول على إعلان من مدير شركة، ولكل مَن يستطيع أن يعقد صِلة صداقة متينة مع نائب أو محسوب أو شيخ يملك مئات الأفدنة وألوف الناخبين تحت أمره!

وكانت هذه القشرة اللامعة من الصحفيين تسهر كلَّ مساء حتى الصباح في نادي نقابة الصحفيين تلعب القمار وتخسر عشرات الجنيهات كلَّ ليلة، وكان أبرزهم رجل من الأقاليم يملك جريدة أسبوعية تصدر في الصعيد بينما كان هو مقيمًا على الدوام في القاهرة ... وكان الرجل خفيف الدم كريمًا إلى درجة السفه ... وكان مشهورًا بألوان مُعيَّنة من الأطعمة المفضلة ... وكان صاحب نفوذ كبير في نقابة الصحفيين ... فقد كان على علاقة وثيقة بسكرتير عام النقابة وكبار الصحفيين وجميع المسئولين في الصحف، وكان في استطاعة هذا الرجل السمين الذكي أن يجعل من أي إنسان في مصر عضوًا في نقابة الصحفيين، وكان دائمًا على استعداد ليمنح أي إنسان شهادة بأنه محرِّر في المجلة الإقليمية التي يملكها في الصعيد ... وكان سكرتير عام النقابة على استعداد لاعتماد الشهادة، وبعد أيام يصبح هذا المخلوق — أي مخلوق — عضوًا بنقابة الصحفيين له كافة الحقوق وليس عليه إلا واجب السهر في النقابة ولعب القمار حتى الفجر!

وإلى جانب هذه الشلة المقامرة من أعضاء النقابة كانت هناك شلل أخرى كثيرة أبرزها على الإطلاق شلة أصحاب الصحف الميتة، وكان كل واحد من أفراد الشلة يملك امتيازًا بإصدار صحيفة، غير أن هذه الصحف وقفت عند هذه المرحلة فقط ولم تصدر قط.

وبالرغم من ذلك كان أصحاب هذه الصحف يتقاضون مصاريف سرية كلَّ شهر من الحكومة، ويتقاضون أيضًا إعانات شهرية من النقابة! وكان هؤلاء الصحفيون رغم تفاهة دورهم الصحفي يتمتَّعون بنفوذ واسع داخل النقابة وكانوا يستطيعون فرض أي مرشح ... ولذلك كانوا يشعرون حقًّا بالسعادة كلما حدثت انتخابات جديدة، فقد كانت الانتخابات فرصة للتهليب، كما كانت أيضًا فرصة للعمل، والسبب أن حضرات المرشحين وكانوا جميعًا من أصحاب الصحف وكبار المسئولين فيها، يقومون بتعيين عشرات من العاطلين قبل كل انتخابات تُجرَى لضمان أصواتهم في المعركة ... وكانت خطابات الفصل

تصل إلى هؤلاء المحرِّرين فور ظهور النتيجة ليعودوا عاطلين مرَّة أخرى في انتظار انتخابات أخرى تفتح أمامهم أبواب الرزق ... ولقد كان أبرز أعضاء هذه الشلة ثلاثة ... أحدهم كان مستشارًا صحفيًّا للخديوي توفيق، وكان الصحفي الوحيد الذي حضر مذبحة دنشواي ... وقد وصف ذلك اليوم الأغبر بأسلوب ينم عن جهل صاحبه بحقيقة المأساة ... فقد وصف الموكب الرسمي وعساكر الإنجليز، وسعادة قاضي التنفيذ، ووصف الجلاد أيضًا، وفي النهاية كتب عدة أسطر عن الفلاحين الأشقياء الذين أعلنوا العصيان ضد السلطة الشرعية وضد الحاكم الشرعي للبلاد!

وعندما تعرَّفت إليه أول مرة كان في الثمانين من عمره ... وكان حريصًا على أن يبدو متصابيًا وشابًّا ... وإذا صافح إنسانًا تعمَّد أن يضغط على يده بشدة، استعراضًا لقوته التي يتغنَّى بها على الدوام.

وكان عبد الستار الخطيب هو الرجل الثاني في الشلة ... وكان في الخمسين من عمره ... قضى منها في مهنة الصحافة عشرين عامًا، ولكنه لم يمارس العمل حقًّا سوى شهر واحد وتفرغ بعد ذلك للجلوس في نادي النقابة مع شلة المعاشات، وكان عبد الفتاح يبدو ممرورًا غاية المرارة، حزينًا غاية الحزن، شديد السخط على كلِّ شيء ... على الحكومة وعلى الشعب وعلى الصحافة وعلى الفول المدمس وعلى قطار السكة الحديد ... ولكنه لم يتحرَّك حركة واحدة في حياته بعد الشعور بالسخط.

وكان يتكلَّم ويتحرَّك كأنه زعيم من زعماء الشعب المصري أجبرته الظروف على الانزواء في ركن ... وأحيانًا عندما كان يلتقي بعشرات من الشبَّان المتردِّدين على نادي النقابة، كان يجلس معهم منفوشًا كالديك ويقضي الساعات الطويلة يسرد على مسامعهم كفاحه الطويل في عالم السيرك، وتجاربه الحافلة في دنيا الصحافة، وكان دائمًا على حق بينما كل الآخَرين دائمًا على خطأ ... وكان إذا انطلق في تلك اللحظات القليلة السعيدة في حياته فلا أحد في الوجود يستطيع وقفه! خصوصًا إذا صادف نفوسًا بريئة وآذانًا صاغية.

وذات مرَّة حكى لنا كيف نصح رئيس الوزراء سري باشا بكذا وكيت ولكنه لم يستمع لنصحه ... ومع ذلك فقد أسدى نفس النصيحة لصدقي باشا ... ولكنه لسوء حظه — حظ صدقي — لم يستمع لنصحه ... وظلَّ يتكلَّم عن موقفه من الوزراء والبشوات ونصائحه المتكرِّرة لهم دون جدوى.

وعندما انتصف الليل كان قد وجه نصائحه لجميع البشوات في مصر حتى لم يبقَ منهم باشا واحد لم ينصحه! ولكنه استطاع أن يخرج من المأزق ببراعة وبعد لحظة صمت

وتفكير عميق قال عبد الفتاح فجأةً لقطيع الشبَّان البائسين الملتفين حوله: «وعلى كل حال أنا نصحت جلالة الملك، وإن شاء الله هيعمل بالنصيحة!»

ولم أتمالك نفسي فضحكت! ولكنه كان ذكيًّا إلى الدرجة التي لم تجعله يلتفت إلى هذه الضحكة الساخرة الشاخرة من ولد عابث مثلي!

تجاهل الأمر كله ومرَّ عليه مرور الكرام ... وعندما نهضنا للانصراف كانت وكسة ولا وكسة دنكرك ... انتحى عبد الستار بالجرسون ركنًا وراحا يتهامسان، لكن الهمس لم يستمر طويلًا، سرعان ما ارتفع الهمس فأصبح ضجيجًا ثم عراكًا ثم ضربًا بالركبة وبالرأس ... وترنَّح عبد الفتاح في أول لحظات الصدام وتمدد على الأرض يصرخ ويتوجع، وانتشى الجرسون بخمرة النصر السريع على عبد الفتاح، وانتابته حالة جنون مريعة، فهجم علينا يريد أن يتقاضى الحساب منا، ويعلم الله لم يكُن معنا شيء على الإطلاق، ولولا الفلس الأغبر لما احتملنا أكاذيب عبد الستار.

ولقد انقطعت صِلتي به بعد ذلك حتى الْتَقينا مرَّة أخرى في مجلة الصريح، وقد تغيَّر عبد الفتاح فأصبح أكبر سنًّا وأكثر همًّا! ولقد حضر ومعه مقال يريد نشره ... ونشرناه فعلًا ليس لأنه يستحق النشر، ولكن لأن انتخابات نقابة الصحفيين كانت على أشدها، وكان رئيس تحرير المجلة على رأس قائمة المرشحين.

ولقد احترنا في المبلغ الذي يجب أن نعطيه عبد الستار ثمنًا للمقال، وقدرت أنا أن خمسة عشر جنيهًا كافية لمثل هذا العمل التافه، ولكن عبد الفتاح رفض بشدة واستنكر هذه الفعلة كأنني أتيت ذنبًا لا يغفره الله ... وعندما سألته عن المبلغ الذي يطمع فيه قال بهدوء: مائة جنيه!

وتصوَّرتُ أنه جُنَّ؛ لأن الدكتور طه حسين بجلالة قدره قد يفكِّر عدة مرَّات قبل أن يطلب مبلغًا مثل هذا ثمنًا لمقال واحد ... ووعدته خيرًا وانصرف على أن يعود في يوم آخَر!

وعندما أبلغت رئيس التحرير بالأمر على أنه نكتة، فوجئت بأنه موافق على المبلغ المطلوب! وأدركت أن المائة جنيه ليست ثمنًا للمقال ولكنها ثمن لسكوت عبد الستار خلال المعركة!

وأدركت أيضًا أن عبد الستار يستخدم ذكاءه بذكاء! وأنه يعلم أن الانتخابات هي فرصته الوحيدة! وأنه خلال كل انتخابات يسعى كثعبان الغابة ليلتهم خنزيرًا بريًّا أو غزالة ثم ينام يجترها في هدوء ولمدة شهور حتى تسنح فرصة أخرى!

وكان ثالثهم رجل شديد اللطف، خفيف الدم، صاحب موهبة حقيقية ... ولو أنه اتجه إلى التمثيل مثلًا لكان نجمًا ولا نجيب الريحاني، وكان كريمًا ظريفًا ساحر الحديث،

سريع النكتة بارع القفشة، صاحب ضحكة مميزة ترن كأنها أجراس كنيسة صباح يوم عيد.

كان عبيد السايس قصيرًا ونحيفًا ويرتدي «بابيون» ويضع على رأسه طربوشًا ويدخِّن سجاير توسكاني خبيثة الرائحة إلى درجة لا تُطاق! وكان يعمل في جريدة مسائية ويتقاضى مبلغًا لا يكاد يكفي ثمن السجاير التوسكاني!

وعندما تصدر الجريدة يبدأ رحلته الأبدية متردِّدًا على جميع البارات الفقيرة في العاصمة ... وكان يطلق على شلته «شلة المشائين» ... وكان شعاره الذي يرفعه: من كل بستان زهرة! إذ كان ممنوعًا في مذهبه أن يتناول أكثر من كأس واحدة في البار الواحد! وآخر الليل كان يحضر إلى نادي النقابة سكران للغاية مبسوطًا تمام الانبساط يدندن بأغاني شعبية قديمة، وفي الفجر كان يستقل عربة حنطور وكان يصر على أن يركب إلى جوار العربجي، وأحيانًا كان يتولَّى هو قيادة الحنطور حتى بيته! فإذا وصل إلى البيت كان من عادته أن يقف وسط الشارع وبشائر الصبح تطل من خلف الأفق ليقضي حاجته في الطريق العام!

ولكم سببت له هذه العادة الغريبة مشاكل شتَّى! وبسببها نام في أقسام البوليس عدة أيام وتحرَّرت ضده عدة محاضر ... وأحيانًا كان العسكري الجلف يعتدي بالضرب على الفنان الضائع.

وعقب كل خناقة من هذا النوع كان يلزم البيت عدة أيام حتى يشفى من جراحه!

وعندما أغلقت الجريدة أبوابها لم يتخلَّ عن عادته أبدًا، الطواف طول الليل على البارات، ثم السهر في نادي النقابة، ولكنه حرم نفسه من لذاته الكبرى وهي ركوب الحنطور، إذ لم يكُن يملك في أيامه الأخيرة أجر الحنطور من النادي في قلب القاهرة إلى منزله في مصر القديمة! وكان يقطع المشوار على قدميه، ثم يقف وسط الشارع أمام منزله ليقضي حاجته كالعادة.

وذات مساء، وكان المساء الأخير الذي شاهد فيه الناس الرجل الفنان في نادي النقابة ... فقد حضر عم عبيد وكان سكران إلى درجة الترنح، وفي النقابة حفلة ساهرة تضم أصحاب الصحف الأثرياء وكبار الصحفيين المتريشين وعددًا من البشوات والوزراء وأصحاب الطين ... وجلس عبيد في التراس يشرب قهوة سادة، وبعد أن انتهى من شرب القهوة هَمَّ بدخول القاعة التي تشهد الحفلة الأنيقة، ولكن الرجل الطويل العريض الذي يحرس باب القاعة منعه من الدخول؛ لأن الدخول بالملابس الرسمية وعاد عبيد إلى التراس وجلس يفكِّر لحظات، ثم نهض فجأة وخلع ملابسه كلها، واقتحم الحفل عاريًا تمامًا كما ولدته أمه.

وارتاع الوزراء والبشوات وأصحاب الطين وصرخت نساؤهم بشدة لمنظر الرجل المسلوع الذي اقتحم المكان عاريًا تمامًا إلا من حذائه وطربوشه، وباظت الحفلة وخرج عم عبيد إلى منزله ولم يعُد أبدًا.

ومات عم علي بعد ذلك بأيام، بعد حياة قصيرة عريضة ذاق فيها كل ألوان البؤس والفقر، ولكنه رغم كل شيء كان أحد أبناء الجيل الذي اقتحم غابة الصحافة في عهدها الأول، وتعرض لكل أخطارها وذاق كل مرِّها وشرها وبذل دمه، نقطة وراء نقطة، لكي يشيد أصحاب الصحف دورًا جديدة ويكدسوا ثروات هائلة.

١٠

كانت مصر في بداية الخمسينيات قد صادفت عهدًا من الهدوء والاستقرار لم تألفه منذ بداية الحرب العالمية الأخيرة، وكانت حكومة الوفد في الحكم، ومن عجب أن صحف الوفد انهارت كلها فجأة، وتحوَّل أكبر الكُتَّاب فيها إلى نوَّاب وشيوخ، وتحوَّل صغار المحرِّرين فيها إلى أصدقاء للشيوخ والنوَّاب الذين كانوا ينتشرون كلَّ مساء في مقاهي الأوبرا وشارع عماد الدين.

ولقد كانت هذه هي أول مرة أدخل فيها مثل هذه المقاهي الأنيقة، بزبائنها الأثرياء جدًّا، بجرسوناتها الخواجات، بسهراتها التي يخسر فيها عمد الأرياف مئات الجنيهات كلَّ ليلة في لعب الطاولة، ولقد كنت أظن حتى هذه اللحظة أن روَّاد المقاهي كلهم من الصيع، وكلهم من المقاطيع، حكمة أزلية استقرَّت في نفسي، ربما من خلال رأي أمي في المقاهي وروَّادها وفي أول جلسة اكتشفت كم كانت أمي ساذجة وكم كانت عديمة الخبرة.

ها هم ذوات البلد جميعًا يُنفقون وقتهم في المقهى يلعبون الطاولة ويشترون أغلى وأندر الأشياء دون أن يتحرَّك الواحد منهم خطوة، ولقد استرعى انتباهي هذا العدد الهائل من باعة المانجو والفستق والبطارخ والبطيخ الشليان الذين يقتحمون المقهى كلَّ لحظة، وكانوا أصحاب فطنة، فرغم جلوسنا إلى جوار هؤلاء البهوات فإن أحدًا من هؤلاء الباعة لم يعرض علينا بضاعته، وكان البائع الفَطِن يتجه مباشرة إلى البيه الذي معنا وكان البيه يكتفي باختلاس نظرة إلى البضاعة فإذا أعجبته غمز له بعينه، وكان البائع يفهم الغمزة فيضع البضاعة جانبًا ويحاسب الجرسون، ويمضي!

ولقد أحببت هؤلاء البهوات في أول لقاء وتمنَّيت أن أعيش معهم، وفي آخِر لقاء علمت أن أمي من فلاسفة العصر، وأن هؤلاء البهوات مجرَّد صياع مثل روَّاد قهوة أمين في الجيزة مع فارق واحد، وهو أن هؤلاء الصياع أغنى!

ولقد كان موسم القطن ناجحًا وحركة انتعاش كبرى شملت كلَّ شيء في البلاد، وانتشرت البدل الشاركسكين البيضاء، وكثر عدد مدخني السيجار وانتشرت نوادي القمار، وانتعشت البارات وأصبح شارع عماد الدين مثل الحريقة الواقعة، وكل الناس سكارى بالفلوس والفن والانبساط الذي ليس بعده مطلب.

وكان ملك البلاد قد خرج من مصر باسم مستعار يلفُّ شواطئ أوروبا ويستدعي الوزراء ليقسموا اليمين بين يدَيه السمينتين، وقانون أخبار القصر يلقى معارضة شديدة، والأزمة تغلي بالغضب وليس بالثورة، وعشرات الصحف خرجت فجأةً كلها تلعن وتسب في النظام الذي كان قائمًا تلك اللحظة، ولكن الأحوال رغم ذلك كانت عال والأشيا كانت معدن والناس كانت عايشة.

وفجأةً، وقف مصطفى النحاس في البرلمان ليعلن على الشعب نبأً هزَّ مصر كلها هزًّا، وتحكَّمَ في مصيرها لسنوات طويلة قادمة ... وقلب كل شيء في البلد رأسًا على عقب، وهزَّ كلَّ ركن حتى المقاهي المنتشرة في شارع عماد الدين وفي الأوبرا.

كان الخبر ... إلغاء معاهدة ١٩٣٦، ولم تكَد تمر لحظات على بيان النحاس حتى خرجت المظاهرات في الشارع ... واصطدمت مظاهرة بدورية بريطانية في الإسماعيلية، وسرعان ما انطلقت الرصاصات، واشتعلت النيران، وسقط الشهداء وأصبحت مصر في ثورة.

وذات مساء قُدِّر لي أن أستقل آخِر قطار غادر محطة مصر إلى السويس في رحلة صحفية، ولكن لم أعُد من السويس إلا بعد ذلك بأربعة شهور كاملة ... ولقد كان وقتًا قصيرًا كالحلم، ولكنه كان كافيًا لأن أرى بوضوح شكل المأساة بلا رتوش، وقبح الأحوال بلا تزويق، وأن أشم رائحة العفن بلا كمامة، وأن أضع يدي على الجرح المفتوح الذي راح ينزف بلا انقطاع حتى تقطَّعَت أنفاس مصر ليلة ٢٦ يناير المشهور.

ولكن هذه الرحلة الغريبة التي قطعتها في قطار يزحف كالدودة في الصحراء ذات مساء ملتهب من شتاء ١٩٥١ إلى السويس ستكون هي رحلة العمر كله، ها أنا ذا صحفي محترم في طريقي إلى عمل خطير المسئولية في رحلة خطيرة الأهمية ذات وضع خاص بين كل فترات التاريخ، وفي القطار ضباط بوليس في طريقهم لقيادة المعارك، وعساكر بلوكات نظام لا تدري من الأمر شيئًا، ولكنها تنفذ أمرًا صدر إليها بالتحرك إلى السويس، عساكر بطاسات صفيح وعصي خشبية وبلا سجاير ولا نقود.

وفجأةً توقَّف القطار بعنف واهتزَّ بشدة، وانكفأنا جميعًا على وجوهنا ثم قفز البعض ينظر من النافذة يستطلع الأمر، وقبل أن نلتقط أنفاسنا صعد إلى القطار فصيلة عساكر

إنجليز بمدافع وأوامر واستسلمنا جميعًا للأمر الصادر إلينا، رفعنا أيدينا فوق رءوسنا وبدأ التفتيش في حقائبنا وفي جيوبنا، ولو استطاعوا لفتَّشوا في عقولنا.

لم يكُن التفتيش جادًّا بالنسبة لنا نحن ركاب الدرجة الأولى وبدا واضحًا أن الإنجليز لا يقصدون إلا إهانتنا وجرح كبريائنا، أما أمتعتنا وحقائبنا فلم تمتد إليها يد!

ولكن الوضع تغيَّر تمامًا عندما اقتحم العساكر الإنجليز عربات الدرجة الثالثة، قضوا فيها ساعات طويلة يفتِّشون كلَّ شبر وكلَّ ركن، وحتى الأجسام فتَّشوها وأجبروا الصعايدة على خلع ملابسهم، وعندما رفض أحدهم تنفيذ هذا الأمر، ضربه عسكري إنجليزي طويل كالنخلة بمؤخرة البندقية على رأسه فسقط مغشيًّا عليه، وبعد ساعات طويلة مريرة، سمح الإنجليز للقطار بالتحرُّك إلى السويس.

كانت المدينة هادئة تمامًا، لا صوت ولا حتى همس، وكل شيء يبدو مكانه كما كان منذ عشرة أعوام عندما اخترقت شارع النمسا في ذلك الوقت المتأخِّر من الليل في طريقي إلى لوكاندة فؤاد، ولم يكُن في لوكاندة فؤاد إلا سرير واحد في حجرة مشتركة ينزل فيها «رجل عجوز» على حدِّ تعبير حارس اللوكاندة ولم أستطع رؤية الرجل العجوز شريكي في الحجرة؛ لأنه كان لحظة اقتحامي الغرفة يغطُّ في نوم عميق ولأني كنت حديث العهد بالنزول في اللوكاندات، ولأنها كانت أول مرَّة في حياتي أسافر فيها إلى بلد بعيد لأقيم فيه فترة طويلة، فقد أطفأت النور ونمتُ دون ضجة، ولكنني لم أستطع أن أغمض عيني إلا عندما لاحت تباشير الصباح، وتصاعدت أصوات الديكة من أسطح البيوت القريبة!

وعندما فتحت عيني كانت الشمس تتوسَّط السماء، والجو بديعًا للغاية وحركة المرور في الشارع تحدث ضجة شديدة، وأصوات الباعة والزبائن تختلط وتتشابك، ولم يكُن يبدو على الشارع أن حركة غير عادية تجري حول المدينة، وارتديت ملابسي على عجل ونزلت إلى المحافظة لأسأل عن حقيقة الأحوال، وأدهشني أن كل شيء هادئ وعادي، واستقبلني المحافظ في مكتبه الفاخر وراح يتحدَّث عن التدابير التي اتخذها لمواجهة الموقف، ثم تحدَّث عن تكهُّناته بالنسبة للمستقبل، ومع ذلك لم أخرج من حديثه بشيء.

وعندما استأذنت في الانصراف سألني وأنا عند الباب: إن شاء الله الحديث بتاعي هيُنشَر امتى؟

ولم يكُن في نيتي نشر حديثه؛ لأنه كان غير ذي موضوع ومع ذلك طمأنت سيادة المحافظ إلى أن حديثه سيُنشَر في القريب.

عندما عدتُ إلى حجرتي في اللوكاندة بعد جولة سريعة في المدينة، وجدتُ الرجل العجوز في الحجرة منهمكًا في الكتابة، وكانت فرحتي عظيمة عندما عرفتُ أنه صحفي،

وأنه موفد من جريدة الأهرام لمتابعة الأحوال في المدينة، وكان هذا أول لقاء لي مع حامد عبد العزيز وتوطَّدَت الصداقة بيني وبينه بعد ذلك، وقضينا معًا وفي غرفة واحدة أربعة أشهر كاملة كانت أخصب وأعظم فترة في حياتي ... واكتشفت أن حامد عبد العزيز فنَّان هجر الفن إلى الصحافة، وأنه بدأ حياته عاشقًا للمسرح، وكتب عدة روايات مُثِّلَت على مسارح القاهرة، وأنه دارس للأساطير الشعبية وأنه قارئ ممتاز وذوَّاقة للأدب والفن، ولكن الحياة جرفته، ومهنة الصحافة أكلت مواهبه كما تأكل الدودة لوز القطن، وأنه رغم كل شيء سعيد وغير نادم، وأن هدفه الوحيد في الحياة هو رعاية أبنائه فقد كان يحبهم إلى حدِّ الجنون!

كان قد مضى على وجودي خمسة أيام عندما طرق الفرَّاش حجرة اللوكاندة في الساعة الثالثة بعد الظهر ليبلغني أن شخصًا ما يبحث عني ويريد مقابلتي ولم يكَد الفرَّاش ينتهي من كلامه حتى اقتحم الحجرة رجل في الخامسة والثلاثين من عمره يرتدي جلبابًا فاخرًا ويلف لاسة حريرية حول عنقه ويضع عمامة على رأسه، ويدس يديه في جيوب الجلباب.

وألقى علينا التحية وصافحنا في ثقة زائدة وضغط على يدي حتى كدتُ أصرخ ألمًا، وقال وهو يقدِّم نفسه: محسوبكم عبودة.

كان عبودة متين البنيان، عيناه واسعتان حادتان كعيني صقر، ولونهما في لون العسل المخلوط بالطحينة، وله شارب نافش ومرفوع من الناحيتين وفي وجهه آثار كدمات قديمة وجرح حديث العهد، وبعد أن مسح بيده على شاربه، قال في هدوء: أنت السعداوي ولا مؤاخذة؟ صحَّحتُ له الاسم واندهشت لكلمة لا مؤاخذة التي أرفقها بسؤاله، وهل اسمي فيه عيب يستوجب ألا يؤاخذ الإنسان مَن ينطقه؟!

وقال عبودة وهو يتفحَّصني وقد بدا عليه الازدراء لضآلة حجمي: هوه انت بتاع الصحافة؟

ولما أجبت بالإيجاب، قال على الفور كأنه أمر يصدره ولا يقبل المناقشة: طيب قوم معايا.

مرَّ عبودة وأنا خلفه بجوار حلقة السمك ثم تعدَّاها وعبَر خرابة مهجورة تنضح بالقذارة ثم اقتحم بوابة من الصفيح الصدئ واجتاز باحة تنشع من باطنها المياه القذرة، ثم طرَقَ على باب عشة وصرخ بأعلى صوته عدة مرات ... ثم سحب مقعدًا وجلس أمام العشة ودعاني للجلوس، وعلى الفور خرج عدة رجال من العشة الصفيح وضربوا تعظيم سلام لعبودة وصافحوني جميعًا، ثم الْتَفتَ عبودة نحوهم في لهجة آمِرة: البسوا وامسكوا سلاحكم عشان اللفندي هيكتب عنكم!

ودخل الرجال إلى العشة ثم عادوا وقد ارتدوا ملابس حربية واصطفوا في هيئة طابور عسكري ومعهم مدافع سريعة الطلقات ... أدوا التحية العسكرية للقائد الذي هو عبودة، ثم هتفوا هتافًا عاليًا لم أتبيَّن معناه ... وبعد أن انتهوا من جميع المراسيم نظر عبودة نحوي في خيلاء وأشار نحو رجاله وقال: دول وحوش الجبال ... اكتب بقى على كيفك من غير مؤاخذة!

وابتسمت لعبودة ولم أتكلَّم، وعلى الفور ضرب عبودة يده في جيبه وأخرج ورقة بنص جنيه وناولها لواحد من وحوش الجبال وقال في حزم شديد: هات لنا سمك حفار علشان نتغدى، وقبل أن يهم الرجل بالانطلاق قال: بس خد معاك مدفع.

وراح عبودة يوزِّع المسئوليات على رجاله، روح انت هات عيش وفجل ... وانت هات لمون، وانت هات جبنة اسطمبولي، وكان يأمر كل واحد منهم ... بس خد معاك مدفع، وعندما انصرف الرجال سألت عبودة ... همه الرجالة رايحين جنب المعسكرات؟ ولَّما أجاب بالنفي سألته: طيب وليه ياخدوا معاهم مدفع؟ وقال وهو يغمز لي بعينه: عشان يتوصوا، أصل دي عالم تخاف متختشيش. وفجأةً صفَّق عبودة بيديه وحضر رجل عجوز محني الظَّهر، وسرعان ما غاب داخل العشة عندما طلب منه عبودة أن يجهز المسائل، ثم عاد ومعه جوزة ومنقد وورقة معسل من أفخر الأصناف، وضرب عبودة أصابعه الخمسة في العمامة وأخرج لفافة من الورق السوليفان وفضها بسرعة ثم أخرجَ من الورق قطعة حشيش قضمها بأسنانه وشمَّها بمزاج، وقال وهو يمصمص بشفتَيه: أحسن صنف واللي خلق الخلق ... دلوقت هنشرب حاجة نضيفة!

وراح عبودة يحكي وهو يسوي قطع الفحم المشتعلة عن كفاحه ضد الإنجليز في القناة، ويروي تاريخ حياته كله وأعماله البطولية التي سيذكرها التاريخ بدون جدال ... وعندما انتهى من سرد قصته الطويلة سألته: وعملتوا عمليات ضد الإنجليز؟ ورد في هدوء: لسة!

وقلت له وأنا أتفرَّس المكان كله: أمال امتى هتطلعوا؟ وأجاب في هدوء أشد: لَّما القمر يغيب.

ونظر إليَّ نظرة فاحصة وقال وعيناه مصوبتان في عيني: أنا تشوفني طول ما القمر طالع ... لَّما القمر يروح، ما تشوفنيش، هابقى في الجبل من غير مؤاخذة ... وهاشيِّب الإنجليز واللي خلق الخلق، عليَّ الحرام من بيتي ما هاسيب إنجليزي واحد في بلدي ... يا خبر أسود يا جدعان، ثم سحبَ عبودة مسدسًا ضخمًا كان يُخفيه في طيَّات ملابسه وأطلق عدة طلقات في الفضاء!

جاء الرجال من الخارج وأكلنا حتى شبعنا، وكانت الكميات المطروحة أمامنا تؤكِّد بُعد نظر عبودة.

فقد بذل الباعة بسخاء من أجل خاطر المدفع الذي حمله كل رجل وهو في رحلة البيع والشراء!

ولقد مضت أيام طويلة بعد ذلك، وغاب القمر وطلع القمر أكثر من مرَّة، ومع ذلك لم يختفِ عبودة، ولم يلجأ للجبال! ظلَّ مكانه في الخرابة إلى جانب عشة الصفيح يدخِّن الحشيش ويأكل السمك الحفار ويستعرض جيشه داخل الخرابة، ولم يكُن في السويس أي نوع من أنواع الحركة ضد جيش الاحتلال، وكانت الحياة تدور داخل المدينة بشكل عادي دون أي تغيير! الرجال يشربون الشيشة على المقاهي، والإنجليز يُطلقون النار على الناس حول السويس.

وذات جلسة مع حامد عبد العزيز في اللوكاندة اتفقنا على أنه ما دامت المعركة لم تنشب بعد في المدينة فلا أقل من أن تنشب على صفحات الجرايد، وفعلًا بدأت المعركة الصحفية عن أعمال وهمية للفدائيين داخل السويس، وهجوم مسلح في الخيال على معسكرات الإنجليز في الصحراء، وارتفع التوزيع فأغرى عددًا كبيرًا من الصحف إلى سلوك نفس الطريق، وبدأت المعركة تأخذ طريقها على صفحات الصحف حتى بلغ عدد القتلى الإنجليز عدَّة ألوف يزيدون قليلًا عن عدد الجنود الموجودين فعلًا في منطقة القناة!

ونشطت الصحف في هذا الاتجاه وتطورت إلى شيء مضحك، عربة كرنب تنسف معسكرًا! قطط مشتعلة بالنيران تقتحم معسكر الطيران في الشلوفة وتحرق جميع الطائرات!

وفجأة دخل علينا في الليل رجل يبدو عليه الأدب الشديد يرتدي بنطلونًا أصفر وقميصًا من نفس اللون ويرتدي نظارات شنبر ... ودعانا الرجل في أدب جم لمقابلة الصاغ عبد الجبار قائد كتيبة أحمد عبد العزيز، وكدت أرقص من شدة الفرح ها هي الكتائب بدأت تفد على السويس، كتائب محترمة وقادمة من القاهرة من أجل الكفاح! سنسمع طلقات الرصاص إذَن، وسيسقط العشرات قتلى من جنود الاحتلال!

كان الصاغ عبد الجبار يجلس في بهو فندق بلير، ولم يكُن يرتدي زيًّا عسكريًّا، ولكنه كان يبدو في بنطلونه وقميصه والبلوفر الأزرق كأنه طالب جامعي على وشك التخرُّج!

وخلال الحديث الذي امتد ساعات اكتشفنا أن حضرة الصاغ لم يدخل الجيش في حياته ولكنه كان متطوعًا في حرب فلسطين وأنه أنعم على نفسه بهذه الرتبة وهو في طريقه إلى

السويس، وأن معه مجموعة من الرجال أغلبهم كان متطوعًا في حرب فلسطين، وأنهم جميعًا على دراية بحرب العصابات، وقبل أن ننهض عند منتصف الليل قال عبد الجبار ... بس أنا عاوز الصحافة تساعدني عشان نجمع شوية فلوس! ولم نفهم العلاقة بين الكتيبة والفلوس ... ولكن عبد الجبار تولى توضيح المسألة بنفسه: عاوزين نشتري سلاح ومهمات!

أثار حضور كتيبة أحمد عبد العزيز غيظًا شديدًا لدى عبودة ورجاله ... وحضر عبودة في اليوم التالي وهدَّد باتخاذ إجراءات عنيفة ضد كتيبة أحمد عبد العزيز ... وقال وهو يلوِّح لنا بقبضة يده ... إيه الحكاية؟ هيه السويس ما فيهاش رجالة ولَّا إيه؟ عليَّ الحرام ما حد يكافح إلا احنا؟ وبدا لي عبودة يائسًا ومنهارًا ومتغاظًا ولا شيء بعد ذلك.

هذا الفحل الرهيب الذي بدأ حياته حارس مرمى في أحد نوادي السويس ثم عسكري مطافي ثم مقاول لم يلبث أن فشل عند أول عملية قام بها لبناء عمارة، ثم قائدًا لكتيبة وحوش الجبال ... وقف حائرًا وسط الغرفة وبصره يتسكَّع على وجوهنا يريد أن يستشف حقيقة موقفنا من الكتيبة الجديدة، وفجأة صرخ في وجهي ... لازم تكتبوا حاجة عن الكتيبة بتاعتنا من غير مؤاخذة إحنا هننسف خط سكة حديد الليلادي!

احتدمت المنافسة بين الكتيبتين في السويس على جمع المال والتقرُّب من نائب سابق كان أقوى وأهم رجل في السويس تلك الأيام، وكان نائب السويس الوفدي تاجرًا طيبًا ومنهارًا أغلق باب بيته على نفسه وترك الأمور تسير كما تشاء، وانفرد النائب السابق بالأمر، وراح يجتمع كلَّ مساء بالفدائيين في فندق بلير ثم يسهر مع أصدقائه يلعب القمار داخل الفندق حتى الصباح.

وكان النائب إياه لونًا فريدًا من الرجال، كان يسهر كلَّ ليلة حتى الصبح قبل أن تتطوَّر الأمور إلى ما انتهت إليه مع ضباط الجيش الإنجليزي وكبار المسئولين في المحافظة، وكان يربح الألوف وينفق الألوف، وكان شعاره: اشترِ الرجال بالمال، ولم يحدث أن فشل قط في تطبيق هذا الشعار، وكانت أعماله مرتبطة ببقاء الإنجليز في المنطقة، وعندما تطوَّرت الأمور إلى الثورة المسلحة ألقى بنفسه في أحضان الفدائيين، يمدهم بالمال والسلاح ولكن بشرط أن ينفذوا تعليماته وأن يأتمروا بأوامره!

وأصبح زكي — وليس هذا اسمه — هو محور الكفاح والنضال في السويس، ولقد كان لقائي به أول مرَّة، ذات مساء في فندق بلير، عندما هجم علينا الجرسون يحمل ثلاثة أقداح ويسكي على حساب زكي بك الذي أقسم أن نشرب على حسابه حتى الصباح، ولم

يلبث أن انتقل بنفسه إلينا، وجلس معنا يتحدَّث طول الليل عن موقفه من المعركة ثم رأيه فيما ينبغي أن تكون عليه الأحوال، وكان رأيه أن الإنجليز أساتذة في السياسة، وعلى مَن يريد أن يحاربهم أن يستخدم هذا السلاح، وأن الثورة المسلحة ضد الإنجليز لن تؤدِّي إلى شيء إلا الفوضى والخراب، وغمز حكومة الوفد القائمة وقتذاك ولَمَّح بالفساد والرشوة المتفشية في أنحاء البلاد، وحوَّل المسألة من حرب تحرير إلى كفاح ضد الفساد.

وقبل أن ننهض لننام قال كأنه يتوسَّل: خدوا بالكوم من الواد عبودة، دا عبودة زعلان قوي، لازم تكتبوا عنه كلمتين! وكانت هذه أول إشارة إلى أن هناك علاقة ما بين عبودة وزكي بك ولكن ما هي حقيقة العلاقة؟! علم ذلك عند علَّام الغيوب.

ولقد أصبحت منطقة القناة مسرحًا لنشاط الغالبية العظمى من الصحفيين بعضهم اجتذبته المعركة ليفوز بزجاجات الويسكي الرخيصة، وخراطيش السجاير الأرخص، وبعضهم جاء ليحقِّق على الورق بطولات وهمية، وكانت حصيلة المعركة في النهاية ٨٠٠ قتيل وعدة ألوف من الجرحى ولم يُخدَش صحفي واحد مع أنهم جميعًا كانوا على مقربة من المعارك وكانوا مع الفدائيين وسط الحديد والنار!

ولكن قبل أن تحترق القاهرة وقعت فتنة في السويس كادت تؤدِّي إلى كوارث رهيبة، واتفق الصحفيون جميعًا على عدم نشر أي شيء حول الموضوع، ولكن المصوِّر نقضت الاتفاق ونشرت الموضوع كاملًا بالصور، هل كان الأمر مصادفة؟ أنا أقول لا، بل كان الأمر متفقًا عليه، ولعبت مجلة المصور هذا الدور الغريب، ولكن الأمور — لحسن الحظ — مضت في هدوء … وصحيفة أخبار اليوم أيضًا نشرت قبل أن تنتهي المعركة بأيام قصة جلالة الملك المُفَدَّى الذي كان يتمنَّى أن يهب المعركة بعض أبنائه، ولَمَّا كان لا يملك أبناءً يُقدِّمهم للمعركة، فقد اكتفى بتقديم عدَّة آلاف من الجنيهات، ووزعت أخبار اليوم المبلغ على عبودة وكتيبة أحمد عبد العزيز وبعض اللصوص وتجَّار الحشيش في القناة.

ثم احترقت القاهرة، وتوقفت المعركة في السويس واضطررت إلى الإبحار من السويس على ظهر المركب تالودي ولم أغادرها إلا في الإسكندرية، والسبب أن زكي بك وعصابته اتفقوا مع ضابط كبير بسلاح الحدود على قتلي في الطريق الصحراوي، وفي ليلة ١٨ فبراير عام ١٩٥٢ صعدت على ظهر المركب تالودي القادمة من عدن، وكان معي كامل سالم مأمور السويس والصاغ زكي جبران واليوزباشي محمد عسل قائد بلوكات النظام، ولم يغادروا المركب إلا بعد أن تحركت ودخلت قناة السويس واطمأنوا إلى أنني قد أصبحت بعيدًا عن قبضة زكي بك وعصابته.

عندما عدت إلى القاهرة قادمًا من السويس كانت أغلب الصحف الوطنية قد توقفت عن الصدور، وكان أغلب كتَّاب هذه الصحف في السجون والبعض الآخَر يطارده البوليس السياسي، ومصر كلها تنام من المغرب بالأمر، والرصاص الشارد يدور في سماء المدينة حتى الفجر، وحصل الصحفيون وأنا منهم على تصاريح بالتجوُّل في الليل.

وكانت فرصة ليجتمع أصحاب التصاريح في دار النقابة ليلعبوا القمار للفجر … وبالرغم من ذلك فلا بد أن نذكر للحقيقة والتاريخ أن الصحف رغم ضعفها فقد استطاعت خلال عامي ١٩٥٠ و١٩٥١ أن تدق آخِر مسمار في نعش العهد الملكي، فقد تقدَّم عدة أفراد يحملون المعاول وهات يا هدم في النظام القائم، فتحي رضوان وأحمد حسين وإحسان عبد القدوس وأحمد أبو الفتح وأبو الخير نجيب وإبراهيم شكري وحلمي سلام، وخلال تلك الفترة أيضًا نشر مأمون الشناوي زجله الشهير:

يا ترسملونا يا تبلشفونا
يا تموتونا وتخلصونا
ملعون أبوكو على أبونا
إحنا اللي نشقى
ونبص نلقى
خراب وسرقة
من عند برقة
لحد سينا

وفي تلك الفترة أيضًا نشرت كلمة قصيرة في مجلة الملايين عن حيدر باشا قائد عام الجيش المصري وقلت فيها بالحرف الواحد: «ويضعه الخبراء العسكريون على رأس جنرالات الحرب في العالم وعلى رأسهم جنرال موتور وجنرال إليكتريك.»

ولكن ذلك العهد الذهبي للصحافة كان قد انتهى إلى الأبد، وأصبحت الصحف تحت الأحكام العرفية حافلة بالكلام الفارغ، وانتعشت دار الهلال؛ لأنها لا تنتعش إلا في ظل الرقابة والحكم العرفي، وانتعشت الأهرام أيضًا لأنها كانت دائمًا على الحياد بين الشعب والحكومة، وبدا واضحًا أن أخبار اليوم على صلة وثيقة بالحكم الجديد وهي التي رفعت شعار التطهير، وهو الشعار الذي جاء بالهلالي باشا إلى لاظوغلي … مقر رئيس الوزراء.

هكذا كانت الحياة تغلي في البلاد بينما مجلة النداء تنام في وادٍ آخَر بعيد.

المرتبات أصبحت تتعثَّر كأنها سيارة تمضي على طريق صعب مليء بالحفر والمطبات، ثم راحت تتضاءل كأنها غيط قطن نزلت عليه الدودة. وتولى منصب مدير التحرير فيها صحفي داعر اقترح، ضمانًا للسلامة، وحتى تتكشف الأمور، إصدار أعداد خاصة عن المدن الهامة في مصر، لتكون وسيلة للحصول على أكبر عدد ممكن من الإعلانات، ووقع الاختيار على العبد لله للسفر إلى بور سعيد مع مندوب إعلانات اسمه عبد البصير. وكانت مهمتي هي تحرير موضوعات عن الميناء وقناة السويس ومراكب الصيد وشاطئ بور سعيد بينما راح عبد البصير يسرح في المدينة لجلب أكبر عدد ممكن من الإعلانات والفلوس.

وبدلًا من أن نقضي عشرة أيام كما اتفقنا ... قضينا شهرًا كاملًا على الشاطئ نأكل الكابوريا والسمك المشوي، ونستحم في البحر وننفق عن سعة كأننا من أفراد عائلة المرحوم أغاخان.

كان عبد البصير هو المسئول المالي عن الرحلة، الحق أنه كان كريمًا إلى حدِّ السفه، وكان ينفق بجنون كأنها آخِر رحلة لنا في العمر ... ولم أسأله أنا عن مصدر الفلوس ولم أهتم بهذا الموضوع على أي نحو!

وكان عبد البصير نموذجًا غريبًا في دنيا الصحافة. كان مدرسًا إلزاميًّا في إحدى قرى المنوفية قبل أن يهجر قريته ويلتحق بوظيفة مندوب إعلانات بمجلة النداء، وكانت واسطته نائب وفدي طيِّب اسمه أبو العينين جعفر (رحمه الله) وكان عبد البصير يدق عصفورة على صدغه الأيمن، وأشجارًا ونخيلًا على كف يده، وكان شديد الذكاء يعرف كيف ينفذ إلى قلب العميل ببساطة. وكان يدعي أمام زبائنه من التجار والبقالين أنه عليم ببواطن الأمور، وأنه وثيق الصلة بفؤاد باشا، وأن زكي العرابي باشا لا يأوي لفراشه قبل أن يتحدَّث معه بالتليفون.

ولقد تعرفت من خلال عبد البصير إلى رجل ثري في بور سعيد اسمه الأيوبي، كان سمينًا وطيِّبًا وجاهلًا بدرجة ليس لها مثيل.

وعندما جلسنا مع الأيوبي على رصيف عمارته الجديدة، زف إلينا بشرى ترشيح نفسه في الانتخابات القادمة، ولما زف إليه عبد البصير التهاني بالنجاح والفلاح والنصر المبين إن شاء الله قال الأيوبي حزينًا: بس النحاس باشا مش راضي، غضبان عليَّ ... أنا قلت أنا مستعد أدفع خمسة آلاف جنيه بس يسيبوني أترشَّح! وحدق عبد البصير في الأيوبي ولم يتكلم، رفع يديه إلى أعلى وقرأ الفاتحة قال عبد البصير للرجل، الحكاية دي خليها عليَّ، النحاس باشا مش هيمانع، بس ما تجيبش سيرة لحد!

وعقَّب الأيوبي الطيب: إيه ... هو أنا عبيط أجيب سيرة لحد؟!

ونهض على الفور ونادى على أحد الخدم وأمره بأن يحضر الخروف والجزار في الحال، وأقسم أيضًا يمينًا أنه لا بد أن يذبح الخروف من أجل خاطر عبد البصير ... وجلسنا في المساء حول وليمة فاخرة وزجاجات الويسكي بلا حساب رغم أن الأيوبي لم يكُن يشرب، ولكن ولد خلبوص كان يعمل مستشارًا عنده اسمه جودة هو الذي همس في أذنه بأن البهوات — عبد البصير وأنا — لا بد أن نشرب الويسكي مع الطعام.

وفي نهاية السهرة كان عبد البصير قد حصل على إعلان بألف جنيه ... ومائة جنيه فكَّة لعبد البصير شخصيًّا عربون المساعي الحميدة التي سيقوم بها لدى رفعة الباشا لتذليل كل الصعاب التي تعترض ترشيحه.

ولكن خلال هذه الفترة التي قضيتها في بورسعيد وقع بصري على شيء غريب ورهيب، مراكب ضخمة تعبر قناة السويس من ناحية الشرق، وعليها عساكر فرنسيين جرحى وفي حالة يُرثى لها قادمين من الهند الصينية ... ومع هؤلاء العساكر ... عساكر عرب من المغرب والجزائر وتونس، أحيانًا يهربون من المراكب ويلجئون للسلطات. ولكن السلطات تسلِّمهم مرة أخرى للمراكب ... باعتبارهم جنودًا فرنسيين هاربين من الخدمة، مع أنهم عرب أولاد عرب، أحفاد عرب، ومن دين محمد عليه الصلاة والسلام.

ولقد هرب أحدهم وأنا هناك واسمه عبد الرحمن، كان قبل تجنيده أستاذًا في جامعة باريس، وعندما نشرت قصته رفضت حكومة مصر تسليمه واشتغل أستاذًا في جامعة القاهرة.

وعدت إلى القاهرة بعد شهر حافل بالمتعة والراحة، وعكفت بعيدًا مشغولًا ومطهومًا بكتابة الموضوعات عن بورسعيد.

وفجأةً، علمت أن الرجل الطيِّب عاد من الهند، وأنه عاد مريضًا وحزينًا ومفلسًا وقلقًا على مستقبله كصحفي ابتعد عن الجو عدة أعوام.

وعندما زرته في بيت بعض أقاربه وكان قد لجأ إليه حتى يتقرَّر مصيره، راح يحدثني كالمسحور عن عالم الهند الغامض الساحر الفقير العجيب، مصر بمشاكلها وفقرها لا تساوي قطرة في محيط المشاكل التي تزخر بها الهند، وعلى مَن يريد أن يكتشف روح الإنسانية وأن يقف بنفسه على مأساة العصر أن يذهب إلى الهند ويتفرَّج بنفسه على ما يدور هناك.

وسحرني حديثه عن الهند وتمنَّيت أن أذهب مثله إلى هناك، ثم حدَّثني عن الفن وعن الأدب وعن السياسة، معركة القناة هي أشرف نقطة في تاريخ مصر الحديث! العالم كله كان يتابع أنباء المعركة لحظة بلحظة.

كم كان الرجل فخورًا كمصري ورصاص الفدائيين يخترق سماء الشرقية والسويس.

هكذا كانت الصورة في الخارج إذَن ... يبدو أن الصورة في ذهني كانت باهتة لأنني كنت داخل البرواز، لأنني رأيت عبودة والأسرى الثلاثة وأفراد كتيبة وحوش الجبال.

هكذا الأشياء لا تبدو قيمتها إلا من بعيد، أو يبدو أنني لا أدرك قيمة الشيء إذا بدأ أي نقص فيه، وقلت للرجل الطيب كل شيء، تفاصيل الأحداث وتفاصيل المعارك والجهود الشريفة لعساكر البوليس وبعض اللصوص وبعض الرجال الطيبين مثل: سعد زغلول، فؤاد الصحفي، ومدحت عاصم الفنان ووجيه أباظة الطيار وبعض الطلبة الجدعان الذين حملوا السلاح ومضوا إلى خط النار، وهمست للرجل الطيب بأن في نيتي أن أكتب كل شيء، ولكنه نصحني ألا أفعل.

ستسكب حبرًا على الورقة البيضاء، وستضع حفنة تراب في إناء اللبن.

هكذا قال الرجل الطيب، سيأتي الوقت الذي يجب فيه عليك أن تكشف الستار عن كل شيء، ولكن عليك أن تكتشف متى يأتي هذا الوقت المناسب ... فإذا أخطأت التقدير فسوف تخدم بكتاباتك قضية الرجعية والاستعمار.

لقد استمعت إلى نصيحته فلم أكتب حرفًا إلا بعد أن جاء الوقت المناسب، ولقد جاء الوقت المناسب أسرع مما توقَّعت.

كنت في المجلة في المساء وعبد البصير يحثني على الإسراع في الكتابة؛ لأن العدد الخاص على وشك الصدور.

وظللت أكتب حتى أُغمي عليَّ وخرجت من المجلة في منتصف الليل إلى البيت في الجيزة سيرًا على القدمين.

وعندما استيقظت من النوم كانت الساعة الحادية عشرة صباحًا وعلمت أن الراديو مقطوع ولا يذيع شيئًا منذ الصباح الباكر وأن إشاعة منتشرة في المدينة أن انقلابًا عسكريًّا قد حدث.

وارتديت ملابسي على عجل وخرجت مهرولًا إلى بيت طوغان، وكان عند طوغان عدد من الأصدقاء ... لا أذكر منهم الآن إلا شقيقه صلاح والدكتور عبد المنعم عثمان المدرس بكلية الهندسة جامعة القاهرة.

وأكد طوغان الخبر ولكن بلا تفاصيل.

وفتحنا الراديو الميت على محطة القاهرة وجلسنا ننتظر، كانت الساعة الثانية عشرة ظهرًا واليوم ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢، وكان طوغان في السادسة والعشرين من عمره وكنت في الخامسة والعشرين إلا بضعة شهور، وكان الدكتور عبد المنعم عثمان في الرابعة والعشرين وعدة شهور، وكان صلاح طوغان في مثل سنه.

مجموعة شباب في عمر الورد، حيارى وسط أنواء السياسة المصرية، ضعاف بلا حول في مجتمع يدوس بقسوة على الضعفاء ... غير مؤمنين بما هو كائن ... ولكن ليس لدينا خطة بما ينبغي أن يكون.

خلاصة القول، إننا مجموعة من الوطنيين نحب الوطن المريض ولكن ليس لدينا وجهة نظر بشأن علاج هذا الوطن الذي أشرف على الهلاك المبين!

وفجأة ... عادت الحياة إلى الراديو الميت. وانطلق صوت أنور السادات يعلن للناس قيام الثورة، وصرخت من أعماقي كالمجنون، وخلعت فردة حذائي وقبَّلتها من شدة السرور والحبور لماذا؟ وكيف؟ وإلى أين؟ أسئلة لم يكُن لها جواب في رأسي ... ولم يكُن الجواب عنها مهمًّا على الإطلاق، المهم أن الأحوال قد انقلبت رأسًا على عقب، وهذا كل ما كنت أتمناه.

أهم من هذا أن أنور السادات هو الذي يذيع البيان، هذا الرجل الذي نعرفه! فقد كان يتردَّد على كازينو شهريار في الجيزة يشرب فنجانًا من القهوة مع صديق اسمه حسن عزت كان طيارًا في تلك الأيام.

وذات مساء حضر في ملابس مدنية وجلس مع طوغان ثم انضممت إليهما، وراح يتحدَّث عن الأوضاع في البلد، والجنون الذي يتخبط فيه النظام، ثم نهض وانصرف ونهضنا معه حتى ودعناه عند الباب، وسألت طوغان ونحن نجلس حول المائدة.

مش دا ضابط في الجيش؟ وأجاب طوغان بالإيجاب، فسألته: طيب أمال ليه بيقول الكلام ده؟ وكان غريبًا فعلًا أن يجاهر ضابط جيش بعدائه للنظام، وقال طوغان بطريقته وهو يضرب راحة يده الشمال بقبضة يده اليمين ... يا بني لو حصل حاجة في البلد دي يبقى الراجل ده فيها ... وضغط على «الراجل ده» بشدة!، ولم أهتم بكلمات طوغان كالعادة ... ولكني عدت فتذكرتها تلك الساعة، وقمنا يعانق بعضنا بعضنا، ثم هرولنا جميعًا نحو الشارع.

وهكذا أصبحت مندوبًا للمجلة في القيادة العامة، فقد استقبل أصحاب المجلات الرجعية الحركة الجديدة بقليل من الترحيب وكثير من الحذر. وأرسلوا أقل المحرِّرين شأنًا ليتفاهموا مع حركة الضباط ... ولما كان هذا الوصف — أقل المحرِّرين شأنًا —

ينطبق على العبد لله، فقد أصبحت واحدًا من طقم مندوبي القيادة! ولما كانت مجلة النداء ليست في حاجة إلى أخبار! ولما كنت أنا الآخر لا أهتم بهذا اللون من العمل الصحفي على الإطلاق … فقد اكتفيت بالجلوس على باب القيادة أتفرَّج على الزوار المتردِّدين على مقر السلطة الجديدة، ولم يكُن جهلي بما يجري في داخل القيادة أقل من عدم اهتمامي بهذا العمل الجديد … فلقد كان محمد نجيب يبدو في الصورة على أنه زعيم الثورة، بينما كانت الشفاه تهمس بأسماء أخرى وتؤكِّد أن أصحاب هذه الأسماء هم القادة الحقيقيون للثورة.

ولكن أنا شخصيًّا كنت قد وصلت إلى قرار في هذا الشأن وهو أن أنور السادات هو زعيم الثورة، وهو الذي أذاع البيان، وهو الذي رأيته بعيني رأسي يجلس في كازينو شهريار يلعن سنسفيل جدود العهد البائد!

ويوم خروج الملك فاروق من مصر خلعت قناع الوقار الذي أرتديه أحيانًا كصحفي ووقفت أرقص عشرة بلدي في ميدان عابدين وسط الجموع الحاشدة، بينما كانت الدبابات تحيط بالقصر الملكي من كل ناحية، ولأول مرة أشعر أني لا أخشى الدبابة، لقد كان منظرها دائمًا يبث الرعب في نفسي، حتى يوم قيام الثورة شعرت بنفس الخوف وأنا أتجول في شارع قصر النيل؛ لأن الراديو كان قد حذر من التجمهر في الشوارع، وعندما نسينا هذا الإنذار في غمرة الفرحة ووقفنا أكثر من عشرين شابًّا تحت عمارة الإيموبيليا نتكلَّم بصوت عالٍ للغاية، اقتربت منا عربة مصفحة وأمرنا الضابط بالانصراف … وانصرفنا في سكون حتى انصرفت العربة المصفحة، ثم عدنا إلى التجمهر من جديد وفي نفس المكان. ولكن عسكري الدورية الطيب اقترب منا وقال في لهجة ناصحة «يالَّا يا فندي انت وهو ممنوع الجمهورية»!

كانت الثورة فرصة للعبد لله لكي يشرع قلمه من جديد ليكشف كل شيء دار في السويس خلال معركة القناة، وعندما عرضت لرجل هناك يُدعَى سيد السايس، وهو ثري أمثل بدأ حياته سائسًا في جراج ثم انتهى صاحب جراج ودار سينما ومتعهد للجيش البريطاني … كان يزعم أنه اشترك في المعارك عام ١٩٥١ وأنه وضع جميع سياراته في خدمة الفدائيين وكانت السيارات تدخل المدينة كلَّ يوم تحمل شحنات الأسلحة المهربة، هكذا كان سيد السايس يزعم، غير أن الحقيقة كانت عكس ذلك، فقد كانت سيارات السايس لا تحمل في الواقع إلا شحنات الحشيش! وفوجئت في العدد التالي لنشر الموضوع بخبر صغير في الصفحة الأولى «فصل محمود أفندي السعدني من وظيفته بالمجلة» هكذا تحوَّلت بخبر من سطرين إلى أفندي مفصول من وظيفتي بالمجلة! وعلمت بعد ذلك أن سيد السايس حضر من السويس ودفع ألف جنيه مقابل نشر إعلان وبشرط فصلي من المجلة.

وما كان أسهل الفصل في تلك الأيام! وبينما كان يلمع على سطح الحياة الصحفية عدة أفراد من الكتاب، كان يعاني المئات من المخبرين والمحرِّرين الصغار القلق والعذاب والطرد إلى الشارع وبلا مكافأة على الإطلاق، حتى مرتب الشهر الذي اشتغلته لم أقبضه!

وهكذا عدت والثورة لم يمر عليها سوى شهر واحد إلى الشارع عاطلًا مفلسًا ولكن بأمل جديد ... إن الأمور لن تلبث طويلًا حتى تعود إلى الوضع الطبيعي الذي ينبغي أن تكون عليه! ولمَ لا؟ وأنا من جيل الثورة ... هؤلاء الكتَّاب الكبار تعفنوا تمامًا وتورطوا في النظام الملكي حتى أصبحوا جزءًا لا يتجزَّأ من النظام.

الصحفي الكبير الذي كان كل مجده في الحياة أنه يرافق جلالة الملك في رحلاته للخارج، والذي تلوك الألسنة سيرته على أنه كان يومًا ما عشيقًا لجلالة الملكة الأم! والصحفي الكبير الآخر الذي كان يجلس على مائدة الملك ليضحكه حتى يستلقي الملك على قفاه ... والصحفي الكبير الثالث الذي أراد الملك أن يمزح معه فدفعه إلى حوض السباحة وهو في كامل ملابسه ... ثم خرج من حمَّام السباحة يشكر جلالة الملك (!) على هذه اللفتة الكريمة التي خصَّ بها صاحبة الجلالة الصحافة دون سواها من الهيئات.

هؤلاء السادة أصبحوا جميعًا بهوات وباشوات وبعضهم يحمل نيشان محمد علي! لا بد أن الثورة ستنحِّيهم عن الطريق لتُفسِح لجيل العبد لله طريقه في الصحافة، والأقلام التي سبحت في بحر النفاق لجلالة الهلفوت الذي يتربَّع على العرش لا بد ستتوارى الآن خزيًا عن أعين الشعب!

ولكن ... ما أغرب الحياة! نفس الأقلام هبَّت تقاتل مع مواقع الثورة وكأنها هي التي صنعت كل شيء! وراحت هذه الأقلام تكتب بشراهة عن مجون الملك وجنون الملك، والملك على الشاطئ الآخَر من البحر الأبيض المتوسط.

١١

أخيرًا تأكد أصحاب هذه الأقلام أن كل شيء قد انتهى بالفعل فتحولوا إلى دود يأكلون من الجثة التي تحوَّلت إلى جيفة! وطاف بنفسي المذعورة خاطر كئيب، وهو أن كل شيء سيبقى في غابة الصحافة على ما هو عليه ... الوحوش في الصدارة والموهوبون يتخبَّطون في الظلام.

إلى أين أذهب الآن وأنا مفلس وعاطل وضائع، ويبدو أنه لم يعُد لديَّ أمل في العودة مرة أخرى إلى عالم الصحافة ... وأنا رجل في أعماقي متشائم وحزين رغم ما يبدو عليَّ من سعادة ليس لها نظير.

وعدت من جديد إلى مكاني على باب القيادة رغم أنني لم أعُد أمثل أحدًا إلا نفسي وفوجئت بزميل آخَر جاء يمثِّل المجلة في دار القيادة، ولذلك اكتفيت بالجلوس دون أن أسأل أحدًا أو أتكلَّم مع أحد!

إذَن لماذا جلست عند الباب؟ لا أدري ... سوى أنني لم أكُن أعرف شيئًا آخَر أصنعه، على الأقل أنا من هذا المكان أتفرَّج على عشرات من الأشخاص الذين يصنعون التاريخ في تلك اللحظات من عُمر الوطن، ولكن أنا لست من هذا الطراز من الناس الذي يستطيع أن يجلس في مكان ولا يلفت إليه الأنظار، إنني من طراز آخَر يلفت الأنظار رغم أنفه، وأيضًا يجر على نفسه المصائب.

فلقد رحت أقلد محمد نجيب وهو يخطب في حركات كاريكاتيرية ... وكان الصحفيون يلتفون حولي وأنا أخطب للجماهير الوهمية المحتشدة أمامي، وجذبت الضجة ألوانًا أخرى من الناس خارج دائرة الصحافة ... عساكر وضباط وبعض الزوار ولكني لم أتوقف، وعيبي الكبير أنني لا أجيد تقدير الأشياء تقديرًا حقيقيًّا، أحيانًا أبالغ في تضخيم الشيء وأحيانًا أبالغ في تحقيره والناس في نظري نوعان، عدو حتى الموت أو صديق حتى النهاية.

ولقد كان لي رأي في بعض مندوبي الصحف في القيادة، ورحت أجهر بهذا الرأي في كل مكان، أحدهم وكان مندوب جريدة كبرى كان مرتشيًا ومغامرًا وأفَّاقًا، وكان له موقف مريب خلال معركة القناة، وكان وثيق الصلة بضباط القسم المخصوص وبوليس السراي، وكان يقوم بخدمات في الظلام لجميع الأجهزة التي كانت تحكم مصر في العهد البائد، وعندما قامت الثورة هرع إلى القيادة العامة، وكان أنشط الجميع وأعلاهم صوتًا، وكان يقف على باب القيادة يرحب بالقادمين كأنه صاحب الفرح، ويتحدَّث عن قادة الثورة، باعتبارهم رفاق الصبا وأصدقاء الطفولة! ولقد حُوكِم هذا الصحفي بعد ذلك أمام محكمة الثورة وأُدين وذهب إلى اللومان ليقضي مدة العقوبة.

وصحفي آخَر بدأ حياته في حانات شارع عماد الدين، ولما انتقل نبض الحياة الثرية الطرية في مصر من صالات شارع عماد الدين إلى صالات الأحزاب السياسية، انضم إلى الحزب السعدي وأصبح فتوة للمرحوم حامد جودة رئيس مجلس النواب، فلما غربت شمس الحزب السعدي وتولى الوفد مقاليد السلطة ... انتقل هو الآخَر إلى حزب الوفد وأصبح فتوة لأحد الوزراء، فلما قامت الثورة انتقل على الفور ليعمل فتوة لصاحب مجلة كانت وقتئذٍ مشهورة بعدائها لكل الأحزاب! ولم يجد صاحب المجلة من يرسله مندوبًا عنه إلى القيادة سوى الفتوة الخاص، وكان الزميل إياه يتصرف هناك على أنه عليم ببواطن الأمور، وكان حديثه كله يجري ويدور حول حضرة الصاغ الذي لا أحد منا يعرفه على الإطلاق والذي كان زميلنا إياه حريصًا على إخفاء اسمه ... أصل حضرة الصاغ قال كيت، حضرة الصاغ كلمني النهارده في التليفون وقال كذا، وكنا إذا سألناه عن الوقت أجاب ... الساعة كذا لكن ساعة حضرة الصاغ مقدمة شوية.

أما الزميل الذي حل محلي فقد كان شأنه أعجب من العجب ... كان صاحب صالون حلاقة في سالف الزمان وكانت كل بضاعته في الحياة وسامة وأناقة كأنه مطرب مشهور، ولم يكن في رأسه أي شيء، ولم يكن قد قرأ شيء حتى كتب المطالعة، وكان ضعيفًا في الإملاء، يرسم الحروف والكلمات ولا يكتبها، وكان يقسم خلال حديثه بالنهار العظيم، وحياة دا النهار العظيم ولَّا ينكسر وسطي ... وكان يُطلق على دور الصحف وصف محلات، وكان يسأل كل زميل يقابله: انت بتشتغل في أي محل؟ يقصد جرنال.

وكان دائمًا يردِّد عبارة مشهورة: أنا كل ما روح محل ألاقيه عاكس زي ما يكون حد عامل لي عمل ... وكان من عادته كل أسبوع كتابة تحليل للموقف السياسي الراهن، ويوم تحرير المقال يذهب إلى كازينو أوبرا ويجلس في التراس ومعه زميل غلبان يطلب له

كباب وسلطة طحينة وواحد شاي ويشتري له علبة سجاير، ثم يجلس هو في هدوء يدخن الشيشة حتى ينتهي الزميل من عشائه، وعندئذٍ يطلب إليه أن يكتب له مقالًا؛ لأنه مرهق وهو السبب الذي كان يسوقه كل أسبوع، أو «مرهك» على حدِّ تعبيره هو نفسه.

ولقد أخذني ذات ليلة حارة إلى كازينو أوبرا وبعد أن تعشيت وشربت الشاي وأشعلت سيجارة وحمدت الله، جذب نفسًا من الشيشة، وناولني قلم حبر باركر لم أكُن قد استعملت مثله في حياتي، وقال: هيه ... اسمع بقى أنا أصلي مرهك ومش عارف أكتب ... أنا هقولك على الأفكار وانت بس تعمل شوية إنشا بس وحياة والدك تكتبهم كويس، ثم راح على الفور يشرح لي الخطوط العريضة في السياسة المصرية لكي أصوغها أنا في مقالي: اسمع، شوف بقى، هيه المسألة إيه؟ السفارة الإنجليزية زعلانة، أي كده وحياة دا النهار العظيم، وهيحصل كده شوية نكد، لكن ربنا يسلم إن شاء الله، واخد بالك؟ اكتب بقى.

وحدقت في هذا الرجل الغلبان الذي لو استمرَّ في صالون الحلاقة فلربما صادف نجاحًا لا مزيد عليه، ما الذي جعله يهجر مهنته الأولى ويقتحم غابة الصحافة؟ ما الذي دفعه إلى احتلال هذا المكان الذي يوجد فيه الآن؟! وما هي مقاييس النجاح إذَن؟ وما قيمة الجهد الذي بذله هؤلاء المؤلفون السذج في تأليف الكتب الضخمة عن دليل الرجل الناجح في المجتمع، وابتسم تبتسم لك الحياة، إلى آخِر هذا الكلام الفارغ؟ وما قيمة هذه العبارات المنمقة الجميلة التي تحتل أغلفة كراريس وزارة المعارف والتي تنصح: اسهر الليالي في طلب المعالي، والتي تؤكِّد أن من يطلب العلا يعلى؟ هذا الصحفي الجالس أمامي يكذب كل النصائح وكل الكتب وكل القيم وكل المقاييس التي تعارف عليها الناس، لم يسهر الليالي ولم يطلب العلا ولم يسعَ للمكان الذي يشغله الآن، ومع ذلك فقد وجد نفسه فيه، وهو كاتب سياسي يحرِّر الموقف السياسي في مجلة ذائعة الصيت، أو الموكف كما كان يسمِّيه.

هل المسألة حظوظ؟

أم أنه ليس بالكفاءة وحدها ينجح الإنسان، وإنما بالصدفة أحيانًا وبالفلوس و... بأشياء أخرى أغلب الأحيان.

لقد قرأت مرَّة لجوركي عبارة على لسان أحد أبطاله يقول فيها: اذهب إلى الميناء واشترِ لنفسك بنطلونًا جديدًا، إنك ببنطلون جديد ترتفع في أعين الناس، فإذا سقط عنك البنطلون، سقطتَ أنت الآخَر، إذَن بالبنطلون الجديد تستطيع أن ترتفع في أعين الناس، وبالشقق و... تستطيع أن ترتفع في الوظائف، ولكن حتى في مهنة الكتابة؟

يجوز أن يرتفع كاتب رديء بهذه الوسائل إلى مكانة الكتَّاب العظام، ولكن أن يرتفع رجل جهول يحتاج إلى وقت طويل في فصول محو الأمية، فهذا هو الشيء الذي لا يزال في حاجة إلى تفسير.

ولقد كان الرجل طيبًا إلى حدٍّ أنه نصحني مرَّة بألا أشغل نفسي كثيرًا بالكتابة ... ارحم نفسك شوية، مانتش شايف طه حسين جراله إيه، أهو فضل يكتب لحد ما عمي!

وذات صباح من شهر أغسطس سلخت الأستاذ إياه في القيادة العامة وسخرت منه بشدة، ويبدو أنه وشى بي عند أحد الحراس؛ لأن أحدهم جاءني بعد فترة يسألني لماذا أتواجد في هذا المكان، وفي أي الجرائد أعمل؟

ولم أستطع أن أفسِّر وجودي بالفعل، ولم أستطع إثبات أنني أعمل في أي مكان، ولكن رجل الحراسة كان طيبًا رغم كل شيء فنهرني بشدة وأمرني بالذهاب على الفور وعدم العودة إلى هذا المكان. وحمدت الله على أن المسألة انتهت عند حدِّ الزجر والطرد ولا شيء آخَر.

وخرجتُ أجري من القيادة وقلبي يدق بسرعة وبدني كله يرتعش أنا ابن الجيل الذي كان يحلم بهذا اليوم ... يوم ٢٣ يوليو والذي ساهم بجهد متواضع فيه، والذي كان ينتظر أن ينفتح أمامه الطريق؛ لكي يمضي على طريق الثورة إلى حيث تلتقي إرادتها وإرادته، أنا الذي تحولت إلى عاطل ومفلس ومطرود أيضًا من داخل القيادة، لأنني فعلًا بلا عمل، ووجودي هنا مريب.

وعند الباب فوجئت بعربة سوداء كبيرة تقف، وينزل منها الأستاذ الكبير محمد التابعي، فقد كان على موعد مع محمد نجيب وأنا كنت أعرف محمد التابعي معرفة جيدة، رغم أننا لم نلتقِ إلا مرَّة واحدة ولعدة دقائق لا تزيد.

فلقد كنت مدمنًا على قراءة مقالاته، وأعترف أنني تعلَّمتُ منه الكثير، وأنه الوحيد من بين كُتَّاب الصحف الذي بهرني بشدة وخلب لبي وجعلني أتتبعه كالمجنون! يا له من أسلوب رشيق وأنيق ولاذع كان يكتب به التابعي تلك الأيام! وعندما رأيته أول مرَّة في عام ١٩٤٨ حين جاء يزور معرض طوغان، صافحتُه بحب وهممتُ أن أقبِّل يده، هذه اليد التي تكتب مثل هذا الكلام بمثل هذا الأسلوب لا بد أن تكون يدًا من نوع آخِر مختلف، وعندما طلبت منه أن أراه دعاني لزيارته في أي وقت أشاء!

وصدقت أنا وقبلت الدعوة وذهبت بعد ذلك بأيام إلى بيته في الزمالك، وصعدت السلم وثبًا فقد رفض البوَّاب أن أصعد في الأسانسير بحُجة أنه مُعطَّل!

وعندما وصلت إلى باب الشقة كنت قد نزفت آخِر أنفاسي وطرقتُ الباب بخوف وبأدب شديد، وخرج لي عملاق أسمر من الداخل وسألته عن الأستاذ فقال: موجود ... مين انت؟

وقلت على الفور وبزهو شديد للغاية: محمود السعدني ... ونطقتها كأنني أقول نابليون بونابرت أو الجنرال ديجول أو المستر تشرشل!

وغاب الرجل دقيقة وعاد ليقول الأستاذ: مش موجود ... وأغلق الباب ونزلتُ مجروحًا أكاد أبكي وأنا أزحف على السلم، ثم توقفت فجأةً وأخرجتُ قلمًا وانتزعت ورقة من جيبي، وكتبت عليها بالحرف الواحد: «تابعي» إن لي قلمًا كقلمك ولكنه أروع وأرفع، وعندما يحين الوقت المناسب سأنشر على الناس قصة الذين يسكنون الزمالك ويكتبون عن الناس في زينهم وحوش بردق.

وصعدتُ السلالم من جديد وهممتُ بطَرْق الباب لأعطي الورقة للخادم ... ولكن لم أفعل ... خشيت أن يضربني الرجل العملاق ويسلِّمني للبوليس، فنزلت وأنا أزحف على السلم والورقة في جيبي، ولعنتُ نفسي لأنني صدقت الأستاذ وزرته، وها هو التابعي أمامي بلحمه ودمه على باب القيادة وأنا أيضًا على بابها، ولكن ما أبعد الفارق، رجل الحراسة الذي طردني جاء مسرعًا وضرب تعظيم سلام للتابعي ... بينما رحت أنا أزحف في شارع الجيش إلى حيث لا أدري.

عشرة أسابيع وأنا قعيد البيت كالولية الخايبة أكاد أتمزَّق غيظًا، بينما مصر تموج بالحياة والحركة، وكانت أمي لا تكف عن النقار والشجار وقد غرقت في بحر من الغم؛ لأن ابنها الكبير قد أصبح عاطلًا، وعاد معظم أقربائي يُلحُّون عليَّ في أن أستوظف في الحكومة لأضمن دخلًا ثابتًا ثم أهوى الصحافة بعد ذلك كما أشاء، وفعلًا رحت أكتب طلبات لمديري المصالح أسترحم سعادتهم أن يلحقوني بعمل مناسب حيث إني أعول عائلة كبيرة ... وبالطبع لم تجد هذه الطلبات شيئًا فقررت السفر إلى زفتى حيث كان يعمل أحد أصدقائي هناك ملاحظ مباني.

ولا أدري كيف اقتنعت بأن ملاحظ المباني سوف يستطيع إلحاقي بوظيفة مناسبة، وفعلًا سافرت في قطار الصباح إلى زفتى وعندما رآني صديقي الملاحظ لم يُبدِ ترحيبًا كبيرًا بي، وعندما انتهى من عمله سحبني إلى حيث يقيم، واكتشفت أنه يقيم مع ثلاثة من زملائه في حجرة رطبة عارية من الأثاث، وجلسنا جميعًا نحن الخمسة في صمت كئيب، ثم سحب أحدهم حلة ووابور جاز ثم حدثت حركة مريبة، فقد خرج أحدهم من الحجرة ثم نادى على صديقي الملاحظ ثم خرج الجميع بعد ذلك وتركوني وحيدًا في الحجرة واستمعت

وأنا جالس في الظلام والصمت نقاشًا عاليًا فهمت من خلال الكلمات المتناثرة أن الخناقة كلها حولي، ومَن الذي سوف يدفع ثمن عشائي هذه الليلة ولقد احتدم النقاش بينهم بينما أصرَّ صديقي الملاحظ على أن يتحمَّل الجميع ثمن عشائي لأنه سبق له أن دفع نصيبه في عشاء صديق أحدهم مرَّة من قبل، وأحسست أنني أذوب من شدة الخجل، وتمنَّيتُ لو انشقت الأرض وابتلعتني كي أتخلَّص من هذا الموقف الرهيب الذي وقعت فيه، ولا أدري ما الذي اتفقوا عليه؟ ولكنهم عندما عادوا استأذنت منهم لحظة بحجة شراء علبة سجاير، وخرجت من الحجرة هائمًا على وجهي في حواري زفتى، وفي المحطة اكتشفت أن ما معي من النقود لا يكفي لعودتي إلى القاهرة بالقطار وفي الدرجة الثالثة!

وعُدتُ إلى القاهرة في الفجر في عربة نقل مُحمَّلة بالفواكه، ولم تكَد تمضي أيام على عودتي حتى مرَّ عليَّ في البيت الصديق الطيب يوسف فكري ودعاني للعمل معهم في جريدة الجمهور المصري … وكان هناك محمد حمدي أول صحفي محترم صادفته في أول حياتي الصحفية، وكان هناك أيضًا فتحي الرملي وكمال النجمي وطوغان وسعد زغلول، فؤاد، وإبراهيم البعثي والأمير المليجي، وكان هؤلاء الصحفيون الوطنيون يعملون مع مجموعة من الصحفيين القدامى أحدهم كان ينتحل لقب دكتور، كان يزعم أنه وثيق الصلة بالحركات السياسية في مصر، في الوقت الذي كان يعمل فيه سكرتيرًا شخصيًّا للنبيل عباس حليم، وكان على صلة في الوقت نفسه بعدد من رجال السفارات الأجنبية، وكان يحمل مسدسًا في جيبه وكان يلوِّح به دائمًا إذا احتدم النقاش بينه وبين صاحب المجلة!

ومحرِّر آخَر عجوز كان يعمل بالصحافة منذ عام ١٩٢٥ وكان على صلة بالبوليس السياسي وسبق له تزوير وثائق سياسية هزَّت مصر هزًّا خلال حكم الملك فؤاد، وكان صالح — وهذا اسمه — خنزيرًا بكل ما في الكلمة من معنى، ورغم اشتغاله بالصحافة كل هذا الوقت الطويل فإنه لم يكُن قد قرأ في حياته حرفًا في جريدة أو كتاب.

وكان إلى جانب عمله الصحفي يحترف عدة مهن أخرى، مستشارًا صحفيًّا لأحد أبناء الدول الشقيقة … مديرًا لإعلانات إحدى المؤسسات الوهمية، وكان صامتًا دائمًا، يبدو في أحسن صحة على الدوام … لا يناقش أي أمر صادر إليه … ويتقبل أي إهانة تُوَجَّه له، ويقبل العمل بأي مرتب يُعرَض عليه.

ولقد زاملته مرَّة واحدة في حياتي في تحقيق صحفي عن رجل يُدعَى أبو الحسن الفقي، كان أكبر تاجر للحشيش في مصر، ويوم الإفراج عنه ذهبت مع صالح إلى باب ليمان طرة وانتظرناه حتى خرج … وجلس الرجل معنا على قهوة أمام باب السجن يحكي كلامًا يصلح مادة لتحقيق صحفي خطير عن تجارة المخدرات.

ثم نهض معنا إلى قهوة إيزافيتش في ميدان التحرير وطلب لنا إفطارًا، ومن عادتي ألَّا أتناول طعام الإفطار ... ولذلك اعتذرت، ولكن صالح غمزني في وركي ثم طلب سجاير رغم أنه لا يدخِّن، وأرسل الرجل المهرب أحد أعوانه فاشترى له خرطوشة سجاير كرافن ثم انتحى به جانبًا وهمس في أذنه بكلام ثم أخرج الرجل شيئًا من جيبه ودسَّه في يد صالح.

وانصرفنا لكي نكتب التحقيق الصحفي الخطير وفعلًا كتبت تحقيقًا من واقع كلام الرجل المهرب وسلمته لرئيس التحرير، ولكن هذا التحقيق لم يرَ النور قَطُّ ونُشِر بدلًا منه تحقيق آخَر بقلم صالح كله تمجيد في الرجل المهرب وإشادة به ونصائح منه موجَّهة للشعب المصري الكريم وكأنه الجنرال نابليون وقد فرَّ هاربًا من جزيرة كورسيكا.

ثم علمت بعد ذلك أن هذا التحقيق نُشِر كإعلان، وأن صالح تعهد بالحصول على مائة جنيه أجرًا للنشر، ولكن عندما طالبته المجلة بالدفع اعتذر المهرب؛ لأنه دفع عشرة جنيهات للأستاذ صالح وهو كل ما يستطيع دفعه مقابل نشر هذا الكلام.

واضطر رئيس التحرير إلى نشر مقال آخَر بدون توقيع كله هجوم على المهرب وتحريض للبوليس ضده ... وخصم مرتب شهر كامل من صالح ومع ذلك لم يعترض ولم يحتج فقد كان يحصل على أضعاف مرتبه عن طريق التهديد والنصب.

محرِّر ثالث كان شابًّا وخريج جامعة، ولكنه كان طموحًا بلا موهبة مُتطلِّعًا بلا مبادئ وكان يبدو دائمًا نافشًا كالديك، يتكلَّم من طراطيف أنفه بينما السيجارة ملك مصر ترتعش دائمًا بين شفتيه ويفتي في أخطر المسائل باعتباره عليمًا ببواطن الأمور.

وكان دائم التهديد لزملائه باعتباره وثيق الصلة بكبار المسئولين في المخابرات وكان صاحب المجلة يكرهه ويطمع في رضاه.

ولقد انتهى هذا الشاب المغرور نهايةً مُفجعة وقاده عدم إيمانه بأي شيء إلى كثير من المواقف الشائنة ثم ضُبِط في النهاية مُتلبِّسًا بجريمة خلقية تشين الرجل، وقد ترك الصحافة بعد ذلك إلى الأبد.

إلى جانب هذه المجموعة المتنافرة المتباينة كان يعمل الصحفي إياه صاحب صالون الحلاقة، والآخر الذي كان فتوة في صالات شارع عماد الدين.

وعندما ظهر أول أعداد المجلة طرد محمد حمدي (يرحمه الله) بلا شفقة، وتم تخفيض جميع المرتبات ... وتناقص مرتب العبد لله من ثلاثة عشر جنيهًا إلى عشرة جنيهات ... وجاء سكرتير تحرير جديد أفتى بأن عصر المقالات قد انتهى، وأن الصحفي الجيد هو المخبر الجيد ... وأن الشهر القادم سيكون امتحانًا لكل العاملين بالمجلة ... فالذي يحصل على أخبار جيدة سيبقى، والذي يفشل سيتوكَّل على باب الله!

ولقد وُفِّقت بطريق الصدفة في الحصول على أخبار غاية في الخطورة والأهمية، وأصل الحكاية أنني كنت في زيارة لمجلة الدعوة التي كان يصدرها صالح عشماوي أحد أقطاب الإخوان المسلمين الذين كان في خلاف مع الجماعة!

وبينما كنت أجلس في الحجرة في انتظار طوغان الذي كان ينشر رسومًا هناك، دخل الحجرة أفندي منظره يوحي بأنه خواجا وأنه غلبان وأنه لم يخلع هذه البدلة من عشرة أعوام على الأقل!

وجلس الرجل مترددًا كأنه يدخل المكان أول مرَّة، وعندما سألته عمَّا إذا كان يريد أحدًا، ابتسم في هدوء وقال أنا محرِّر هنا!

وبدا من لهجته أنه خواجا فعلًا ... وازدادت دهشتي أكثر عندما علمت أنه يهودي أيضًا وأنه فعلًا يعمل محرِّرًا في مجلة تنطق من بعيد باسم الإخوان المسلمين!

وقال الرجل الخواجا وهو يبرِّر لي هذا الموقف، أنه كان على صلة بالمخابرات البريطانية وأنه يعرف أسرارها جيدًا، وأنه يعلم كل حركات وتحركات الجيش البريطاني في القناة، وتأكيدًا لكلامه أطلعني على الأخبار التي حصل عليها لتُنشَر في أول عدد من الدعوة.

وكانت الأخبار — لو صحَّت — هامة فعلًا وخطيرة، تنقلات بين كبار رجال المخابرات البريطانية في مصر، تأجير عشرين شقة في القاهرة لعملاء المخابرات البريطانية ... وصول طائرة شحن ضخمة إلى قاعدة أبو صوير البريطانية وعليها شحنة من الأسلحة الذرية، هل هذه حقائق أو أوهام أم أخبار مدسوسة؟

أنا شخصيًّا لم أفكِّر طويلًا في هذا الأمر، حفظت الأخبار عن ظهر قلب، وعندما خرجت من مجلة الدعوة أعدت صياغتها من جديد، وقدمتها لسكرتير التحرير النشيط ففرح بها كثيرًا وخرجت مجلة الجمهور المصري وكل عناوينها الضخمة من إنتاج العبد لله، ومع ذلك لم تشفع لي هذه الهمة في سرقة الأخبار، فقد فُصِلتُ في نهاية الشهر بحجة أنني غير منتج ... والسبب الحقيقي أنني لم أكن مؤمنًا بعبقرية الأستاذ سكرتير التحرير، ولكنني عدت بعد ذلك بشهر واحد إلى المجلة وبثلاثة عشر جنيهًا كل شهر.

كان في المجلة مخبر بوليس من قسم الموسكي عُيِّن لحراسة رئيس التحرير بعد أن تلقَّى عدة خطابات تهديد من القرَّاء ... ولأن التهديد لم يكُن جديًّا، فقد تحول المُخبر بعد فترة إلى فرَّاش، ثم تحول إلى تاجر مخدرات يبيع لَمن يرغب وعلى الحساب، ولما كانت الرقابة مفروضة وقتئذٍ على الصحف، فقد عهد إلى المخبر بحراسة الرقيب أيضًا، فأصبح حارسًا للرقيب ولرئيس التحرير في الوقت نفسه!

وكان رقيب المجلة شيخًا معممًا ثائر الأعصاب على الدوام، ينتفض إذا تكلم، ويرتعش إذا صمت، وكان مدرسًا في الجامعة الأزهرية وصحفيًّا في الوقت نفسه ... فلما فشل في الصحافة أصبح رقيبًا على الصحفيين، وكانت الرقابة فرصة ليفرز عقده النفسية وليضطهد زملاءه السابقين ... ليس خدمةً للحكومة، ولكن خدمة لأغراضه الشخصية، وكنت أنا أكثر المناوئين له وأقدرهم على إثارته، وذات مرَّة سافرت إلى القناة وعدت بتحقيق صحفي عن القوات البريطانية هناك.

وراح الشيخ الرقيب يقرأ ويشطب حتى شطب المقال كله إلا عدة سطور، ولم تكُن هناك تعليمات بالشطب، ولكن الشيخ عثر على فرصة ليغيظني، وعندما وصل إلى إمضائي أسفل المقال قام بشطبه أيضًا، وعندما سألته هل لديه تعليمات بشطب الاسم أيضًا باعتباره من الممنوعات، صاح بأعلى صوته ونادى على المخبر، وأمَرَه بأن يطردني فورًا ليس من الحجرة فقط، ولكن من دار المجلة.

ووقف المخبر حائرًا لا يدري ماذا يفعل، فهو صحيح مُعَيَّن لحراسة الرقيب ولكنه في الوقت نفسه صديق، ثم بعد فترة، انسحب المخبر من الحجرة في هدوء، وكانت فرصة لأبدي رأيي للرقيب عمليًّا ... وأضطر في النهاية إلى الخروج جريًا إلى الشارع والدم ينزف من أنفه وأسنانه ... وأقسم ألف يمين أنني لا بد ذاهب إلى السجن وأنني لن أعمل بعد اليوم في الصحافة، ولقد جرى تحقيق معي أمام محمد أمين حماد مدير الرقابة وقتئذٍ، ولكن التحقيق انتهى بنقل الشيخ الرقيب نفسه.

أولًا: لأنه شطب اسمي، وثانيًا: لأنه شطب مقالًا ضد قوات الاحتلال والتعليمات التي لديه عكس ذلك تمامًا، وثالثًا: لأنه شطب في نفس اليوم خبرًا عن مملكة القطن ... لأنه كان يحمل تعليمات بعدم نشر أي شيء عن سوق القطن في الإسكندرية! ولم أعمِّر بعد ذلك طويلًا في المجلة، فقد تركتها بعد هذه الواقعة بخمسة شهور ... وبالتحديد في مارس عام ١٩٥٣، فقد اتصل بي أستاذي المرحوم أحمد قاسم جودة وطلب مني أن أقابله في بار الأنجلو.

وبعد دقيقة واحدة من اللقاء كان قد عرض عليَّ عملًا في جريدة يومية كبرى اسمها القاهرة وبمرتب خمسين جنيهًا في الشهر؟ وخرجت من بار الأنجلو لا تكاد ساقاي تقويان على حملي.

ها أنا ذا أصبحت محرِّرًا مطلوبًا وفي جريدة كبرى وبخمسين جنيهًا كل شهر! لا بد أنه حلم من الأحلام ... أو لا بد أن قاسم جودة كان يهذي! ولكن قاسم جودة عودني دائمًا

الصدق وكان دائمًا مثالًا للرجل الجاد، إذَن المسألة حقيقية؟ وإذَن سيصبح في مقدوري الآن أن أحقِّق الحلم الذي راودني طويلًا، وهو أن أصبح مالكًا لشقة خاصة ومكتبة وربما سيارة أيضًا، ولِم لا؟ وأنا الآن سأتقاضى خمسين جنيهًا كل شهر، ولم أستطع النوم عدة ليالٍ متتالية، وأصبح حديثي المفضل هو العرض الذي قدمه لي قاسم جودة والمرتب الذي حدَّده!

وكنت أحيانًا أسرح أكثر من اللازم فأسأل محدثي: إيه رأيك؟ أقبل العرض؟ هه، نكتة طريفة، كأنني كنت فعلًا مترددًا في قبول العرض! ولقد تمنَّيتُ على الله أن يحفظ قاسم جودة من كل مكروه، فقد خشيت أن يناله سوء قبل أن تتم الصفقة، في نفس الوقت كانت جريدة الجمهورية قد بدأت في الاستعداد للظهور، وانتقل للعمل فيها عدد من الكُتَّاب والمحرِّرين من دور الصحف الأخرى.

وكنت على صلة وثيقة بأحد المسئولين عن التحرير فيها، ومع ذلك لم يعرض عليَّ العمل معه وبأي أجر، وقد حزَّ الموقف في نفسي كثيرًا لأنني كنت أنا الوحيد الذي وقف إلى جانبه من بين كل أصدقائه، وعندما طردوه من جريدة الجمهورية قبل أن تصدر بأيام، وُفِّقتُ في إلحاقه بعمل في جريدة القاهرة، ثم اشتدَّ عليَّ مرض مزمن دخلت من أجله المستشفى ... وانتهز الرجل فرصة وجودي في المستشفى فاقترح فصلي من الجريدة ... ولكن اقتراحه لم يُنفَّذ؛ لأنه فُصِل بعد ذلك بأيام!

المهم أن قاسم جودة استدعاني ذات مساء لمقابلة مدير جريدة القاهرة، واكتشفت أن الرجل صحفي فلسطيني قديم، وأنه عديم الخبرة بالصحافة، وأنه استشار عددًا من كبار الصحفيين في القاهرة ... فرشح له كل منهم عددًا من الصحفيين، ولم يرشِّح قاسم جودة إلا اثنين فقط، أنا وعلي جمال الدين رئيس تحرير وكالة أورنيت برس في بيروت.

واكتشفت أيضًا أن جميع أعضاء نقابة الصحفيين قد رُشِّحوا للعمل في الجريدة وبمرتبات خيالية ... أحدهم وكان في سن الثمانين رُشِّح للعمل بمائة وخمسين جنيهًا في الشهر، وذلك لخبرته في دنيا الصحافة! مع أن الرجل العجوز كان قد اعتزل الصحافة منذ ربع قرن!

وبعد ربع ساعة خرجت من مكتب مدير الجريدة بعد أن وقعت عقدًا للعمل ولمدة عام، وبمرتب سبعة وثلاثين جنيهًا ونصفًا! ولا أدري ما الذي أنقص المبلغ من خمسين جنيهًا إلى هذا الرقم، يبدو أن منظري وقلة حجمي لم تقنع المدير بأنني سأكون على مستوى المسئولية!

ويبدو أنه فعل نفس الشيء مع الجميع، المهم أنني خرجت من مكتبه وأنا أسعد أهل الأرض ... وكانت جريدة القاهرة فرصة العمر بالنسبة لي، وعلى صفحاتها نُشِرَت أول قصة في حياتي، ثم نشرت مجموعة قصص كاملة أصدرتها بعد ذلك في كتاب، ونشرت أيضًا دراسة عن الظرفاء، ونشرت دراسة أخرى عن قارئي القرآن في مصر، وأتاحت لي الفرصة السفر إلى مختلف أقاليم مصر، وعن طريقها تعرفت إلى عدد كبير من الوزراء وكبار الموظفين.

فقد كان من مهام عملي في الجريدة إلى جانب نشر القصص والمقالات، الحصول على أخبار وزارة الشئون الاجتماعية. وكان أول الوزراء الذين تعرفت إليهم هو المرحوم فؤاد جلال، وكنت قبل ذلك أعتقد أن الوزراء من طينة أخرى غير طينة البشر ... وكنت أتصورهم مطهومين دائمًا عصبيين، دائمًا أصحاب سلطة بلا حدود، وأنهم لا يأكلون إلا صنف الملبس ولا يرتدون إلا الحرير ولا ينامون إلا على ريش النعام.

صورة ساذجة بددتها زيارة واحدة لمنزل المرحوم فؤاد جلال في الروضة، وكدت أجن عندما اكتشفت أنه يعيش مثل أي فرد، وأن في صالة المنزل ينام بعض أقاربه الذين جاءوا لزيارته من الريف.

١٢

آه من الصحفي الشقي لم يَعُد شقيًّا، العمل الآن مضمون. والفلوس تجري من بين أصابعه كما الغلة، والحارة التي يسكن فيها لم يَعُد يطيق منظرها: أي هوة عميقة تفصل بين الجو الخارجي والجو الداخلي لحياته، حارتنا مظلمة كقلب الكافر، قذرة كأنها مقلب زبالة! مصيبتي الكبرى أنني أصبحت مثل المجتمع المصري، مجتمع مثل العملة له وجهان، ومثل البيوت له واجهة وله خلفية.

الآن أنا أسهر في الفنادق الكبرى وأقضي بقية الليل في حديقة كوبري الجلاء، وأتنزَّه في الفجر في قارب يتأرجح على صفحة النيل، وأنا من بين معارفي وأصدقائي وزراء ومديرون بشوارب وموظفون بمكاتب وأدباء وشعراء، ولكن عندما أنفض كل هذه المظاهر وأعود إلى البيت في الصباح أشعر كأنني أختنق، ميدان الجيزة الراكد، ثم شارع عباس المليء بالحفر ثم حارتنا التي تفوح رائحتها كأنها جثة ملقاة على الطريق منذ ألف عام!

وتمنيت أن أخرج من الحارة إلى شارع أوسع وإلى بيت أحدث، وحاولت إقناع أمي ولكن المحاولة فشلت، قالت لي أمي وهي تحاورني: «أسيب بيتي واروح فين يا بني؟ دا اللي مالوش بيت مالوش أصل! وهوه بيتنا ماله؟ دا ما فيش أحسن منه ...» ولم أعُد إلى محاولة إقناعها مرَّة أخرى.

ورحت أعيش حياتي بالمقلوب، أنام النهار في البيت، وأسهر الليل في الشارع، وهجرت قهوة محمد عبد الله في ميدان الجيزة ولم أعُد أتردَّد عليها إلا مرَّة كل أسبوع، فقد كان يجلس عليها صديقان أثَّرا في نفسي تأثيرًا عظيمًا، أولهما هو أنور المعداوي، والآخر هو الدكتور عبد القادر القط.

ولقد كان أنور المعداوي رجلًا من طراز فريد، كان معتدًّا بنفسه ... وقورًا إلى درجة التَّزمُّت وكان ابن عائلة ريفية مبسوطة من أقاصي الدلتا، واشتهر في الوسط الأدبي وهو

لم يزَل طالبًا في كلية الآداب، وهو أول من سلط الضوء على عبقرية نجيب محفوظ في الوقت الذي أنكره فيه كل النقاد وتجاهله كل محرِّري الصحف الأدبية، وعندما قامت الثورة كان أنور المعداوي أسعد الناس بها وكان يود من أعماقه أن يشترك في عمل أدبي كبير، مجلة، موسوعة، قاموس ... أي شيء في ظل الثورة وفي اتجاهها.

ولكن الشلل منعت أنور من تحقيق أحلامه، ولأنه أيضًا كان قليل السعي شديد الأنفة والكبرياء والصلف، ولكنه كان من عادته أن يحضر إلى المقهى في الرابعة تمامًا بعد الظهر فيجلس قليلًا قبل أن يطلب الشاي، ثم ينادي على حميدو ليمسح له الحذاء، ثم يبدأ الأصدقاء في الحضور ويبدأ النقاش والحديث، وفي الثامنة تمامًا كان ينهض متجهًا إلى فرن أفرنجي فيشتري رغيف عيش فينو طويل للغاية وجبنة رومي، ثم يجلس يأكل ويطلب الشاي، ثم يعود إلى حلقة المناقشة حتى الحادية عشرة مساء ثم ينهض لينصرف ولا يعود إلا في الرابعة من بعد ظهر اليوم التالي.

ولقد كان من الممكن أن تسير حياته على هذا النحو حتى يموت، لولا أن الجهلاء الذين تولوا أمر إدارة الثقافة بوزارة التربية والتعليم أمروا بنقله مدرسًا بمدرسة السلحدار، وجنَّ جنون أنور المعداوي فلم يكُن يتوقَّع أن يحدث له شيء كهذا! واختفى لأول مرة من المقهى ثم عاد وقد تهللت أساريره؛ لأنه طلب تفرُّغًا من وزارة الثقافة وقد أجيب إلى طلبه بشرط أن يستقيل من وزارة التربية والتعليم، وفعلًا استقال أنور من وظيفته، ولكن طلب التفرُّغ لم يُقبَل على الإطلاق، ولقد أراد أن يكون موظفًا بالمجلس الأعلى للفنون والآداب ولكنه لم يستطع، بينما كان المجلس يعجُّ بالعشرات من الجهلاء والكونستابلات ونصابين الأدب! وأسقط في يد أنور وضاقت الدنيا به.

وترك قهوة عبد الله والجيزة كلها إلى الدقي، ووقف بعض الأصدقاء إلى جانبه في محنته حتى عاد إلى وظيفته الأولى في وزارة التربية، ولكن المحنة الشديدة التي مرَّ بها كانت قد تركت آثارها السيئة في نفسه؛ فسقط مريضًا ولم تقُم له قائمة بعدها ومات.

ولو أن أنور المعداوي استطاع أن يأخذ مكانه الطبيعي في مجلة «الرسالة الجديدة» مثلًا، فلربما صارت المجلة إلى مصير غير الذي انتهت إليه.

ولكن أنور المعداوي فشل في الحصول على عمل فيها بينما وثب على المجلة رجل اسمه عبد القوي كانت كل مهمته في الحياة قص الصور وتلزيق الورق ونفاق رئيس التحرير، وعلى هذا الجسر عبر عبد القوي طريقه إلى منصب مدير التحرير في المجلة، ولعل ذلك هو السبب في إغلاق أبوابها بالضبة والمفتاح.

وأغرب شيء أن عبد القوي كوفئ على هذا الفشل بأن أُسنِد إليه رئاسة تحرير إحدى المجلات، ولم تلبث هي الأخرى أن أغلقت أبوابها، ولعله اقتنع بعد هذا أنه لا يصلح للصحافة فهجر العمل الصحفي وعاد إلى وظيفته الأولى موظفًا في إحدى الشركات!

ولقد كانت قهوة محمد عبد الله من القهاوي الشهيرة التي لعبت دورًا هامًّا في الحياة الأدبية في مصر، وكان صاحبها رجلًا عصاميًّا جاء إلى الجيزة من الصعيد ليقف إلى جوار محطة السكة الحديد بعربة يد عليها بعض الجوز ووابور جاز وعدة أكواب وبراد شاي وكنكة قهوة، استطاع أن يفتح هذه القهوة، وصارت في الصباح مقرًّا لتجار القطن وأثرياء الريف الذين يأتون إلى الجيزة لمسائل قضائية أو طبية، وفي المساء تتحوَّل إلى مكان يجتمع فيه كبار الموظفين والأدباء والصحفيين.

ولقد ظلَّت عشرات السنين كما هي لم تتغير، حتى المقاعد التي اهترأت من كثرة الاستعمال لم يكلف عم محمد عبد الله خاطره ليعيد إصلاحها، والحيطان التي تآكل دهانها وتركت التشقُّقات آثارًا عميقة على شكل رسوم راحت تتسع يومًا بعد يوم حتى صارت كأنها مقصودة وكأنها للزينة … ولكن القهوة ظلَّت تضيق بزبائنها يومًا بعد يوم، ومكاسبها تزيد ساعة بعد أخرى، كل ذلك وعم محمد عبد الله رابض كالأسد العجوز خلف الكيس يتسلَّم الماركات ويقيد الحساب ويراجع المنصرف من كميات الشاي والسكر والجاز.

وكان للرجل خمسة أبناء رجال لا عمل لهم إلا القهوة، أحمد وكان أكبرهم، قصير وبدين ومهمته الوحيدة هي الطواف على الزبائن وتحية الجميع والسؤال عن المريض ومعرفة مصير الغائب.

وحسن وكان طويلًا وعريضًا وفي قوة سباع الغاب، كان يحضر كل يوم في القهوة ساعة العصاري، فيفرش بجوار النصبة وينام حتى التاسعة مساءً ويقوم من النوم فيشرب الشاي ويدخِّن الشيشة وهو جالس على الرصيف في التراوة الحلوة دون أن يفتح فمه بكلمة حتى تُغلَق أبواب المقهى فينصرف!

ومحمد كان أصغرهم، ولم يكُن يصنع شيئًا إلا الهنكرة ومشاغبة باعة الموز الذين يحتلون الرصيف المقابل، والخناق مع ماسحي الأحذية والمتسولين الذين يقتحمون المقهى كل ساعة بالعشرات.

أما الشقيقان الآخران فكانا لا يترددان إلا نادرًا ولكي يحصلا على شيء من النقود، ولم يكُن أحد منهم يعرف القراءة والكتابة، ولم يكُن لأحد منهم مورد رزق ولا عمل يجيده،

وكانوا إذا رأوا أباهم قادمًا وقفوا جميعًا وضربوا تعظيم سلام كأنهم عساكر بوليس رأوا المأمور في طريقهم، وكان الرجل يشتمهم أمام الزبائن ويلعن جدودهم ويتهمهم بالخيبة والبلاهة، وكان يؤكِّد لكل رواد القهوة أنه لو مات فإن كل شيء سينهار وستباع المقهى في المزاد.

ولقد صحت نظرته البعيدة ... فما إن مرضَ حتى بدأت القهوة تميل للكساد، وقبل أن يموت بأيام كانت القهوة قد بيعَت في المزاد، وعاد أولاد الرجل العصامي الطيب إلى أول الطريق الذي بدأه الوالد العصامي العظيم، راحوا يسرحون بعربة شاي في الجيزة، ثم استقروا أخيرًا بالعربة عند محطة السكة الحديد!

ولقد تعرفت في هذه القهوة على عدد من الأدباء والصحفيين في بداية حياتي.

الدكتور عبد القادر القط الطيب المسالم الذي يشق لنفسه طريقًا وسطًا في الحياة؛ لكي يجنِّب نفسه المتاعب، ولكن المتاعب تسعى إليه لأنه رغم طيبته صاحب نظرة موضوعية وفِكر حُر وعلاقات إنسانية أساسها الاحترام المتبادل وليس على أساس النظرية المعروفة يا بخت من نفَّع واستنفع!

وشاعر عظيم الشهرة، عظيم القدر، كان يجلس في القهوة أغلب الوقت يستحلب قطع الأفيون في هدوء، وصارت بينه وبين صاحب القهوة صداقة متينة بسبب الهواية المشتركة بينهما، وكان إذا جاء المساء جلس الشاعر الكبير المشهور على كرسي فوق الرصيف ينظر إلى الميدان في ذهول ويظل ساهمًا حتى منتصف الليل ثم ينهض لينصرف.

وكان المارة الذين يعرفون الشاعر يؤكِّدون أنه جالس في حالة تفكير دائم لكي يؤلِّف شعرًا عن الحياة والناس، لم يكُن أحد منهم يعرف أن الأفيون هو الذي ألقى عليه هذا الرداء من الهدوء والذهول، وأن تحليق الشاعر لم يكُن في سماء الشعر ولكن في سماء المخدِّر!

وأديب آخَر كانت كل مؤهلاته أن صحته جيدة، وبهذه الصحة الجيدة استطاع أن يطور نفسه من موظف صغير إلى موظف محترم، فقد جلس في القهوة يلتهم دروس ثانوي، ثم راح يلتهم دروس كلية الحقوق حتى انتهى منها، وربما ظن الأديب الجيد الصحة أن كل شيء في الحياة يتحقَّق بالصحة والعافية والعضل القوي، فقد جلس في القهوة بعد ذلك يكتب مسرحيات وقصصًا وسيناريوهات ثم تزوج بعد ذلك من أديبة فاشلة ومتجبرة ثم انفصل عنها فجأة ووقع في مشاكل الطلاق وما جره عليه من حجوزات ومطاردات واستدعاءات لأقسام البوليس.

وفي هذا المقهى أيضًا تعرفت إلى نعمان عاشور، ولقد كنت أعرفه وأنا طفل فقد كنت صديقًا لشقيقه الأصغر، وكان نعمان عندما تعرفت إليه في القهوة يكتب المقالات والقصص القصيرة، ثم كتب رواية ناجحة للمسرح اسمها «المغماطيس»، وبدا عليه الانبساط للنجاح الذي حقَّقه، وقرَّر عدم العودة إلى القصص القصيرة أو المقالات والتفرُّغ لهذا الميدان الجديد ... المسرح!

ولقد التقيت بنعمان بعد ذلك في وزارة الشئون الاجتماعية، وكان يعمل سكرتيرًا صحفيًّا للوزير، وكنت أنا مندوب الجريدة في الوزارة، ورغم أن نعمان كان هو الطريق الرسمي الوحيد لمقابلة الوزير ... فإنني لم أقابل الوزير قط عن طريقه، فقد كان يجلس في مكتبه قلقًا ومذعورًا كأن شيئًا مجهولًا يطارده، وكان لا يستقر على مقعده لحظة، دائم التساؤل عن أشياء غريبة وعجيبة وليس لها أي معنى.

وكنت إذا طلبت منه مقابلة الوزير نهض ونظر من كوة الباب ثم عاد واعتذر بحجة أن الوزير مشغول، ثم لا يلبث طويلًا حتى ينهض مرَّة أخرى؛ لينظر من الكوة ثم يعود إلى الجلوس ثم ينظر مرَّة أخرى من خلال باب الوزير، ثم يقف في النافذة إلى الشارع، ثم يغادر المكتب كله إلى الخارج.

وكان من عادته إذا رآنا نحن الصحفيين ندخل حجرته أسرع بإغلاق مكتبه حتى لا نسطو على الأخبار الهامة التي في الدرج، ولكن رغم كل هذه الاحتياطات الشديدة استطعت أن أسرق من مكتبه مشروع تعديل قانون العمل الفردي.

ولقد أحدث نشره في الجريدة هزَّة كبرى في جميع الأوساط، واضطر نعمان إلى الاعتكاف في بيته عدة أسابيع حتى هدأت الضجة.

وذات صباح جاء إلى الوزارة وزير جديد ومعه صول مهمته الإشراف على سيارة الوزير والسعاة والفراشين، وجاء الصول؛ ليجلس على مكتب صغير في مواجهة نعمان، ورغم أن نعمان هو رئيس المكتب فقد أصيب بذعر شديد من وجود الصول وكان لا يناديه إلا بلقب سيادة الصول، فإذا وقف الصول وقف نعمان، وإذا جلس ظلَّ نعمان واقفًا من فرط الأدب والاحترام!

وشيئًا فشيئًا راح الصول يزحف إلى الأمام، وأخيرًا احتلَّ مكتب نعمان بعد أن تنازل عنه بمزيد من القبول والرضا.

وقنع نعمان بالجلوس على مكتب الصول، لا يبرم أمرًا إلا بعد أن يستشير سيادة الصول، ولا يوقع على ورقة إلا بعد أخذ إذن سيادة الصول، ولم يلبث طويلًا حتى ترك الوزارة إلى عمل آخَر.

وأديب آخَر اسمه فؤاد عصفور، كان أنيقًا ورشيقًا ومعجبًا بنفسه على نحو ما! وكان شديد السخط على الاتجاهات الأدبية الحديثة، شديد الكفر بالأدباء القدامى والذين جفوا على حدِّ تعبيره!

وكان يزفر بشدة أحيانًا حتى كأن الذي يخرج من صدره نار محرقة، ويقول في أسى بالغ: «بس لَّما تيجي الفرصة وأكتب، كل الناس دي مش هتلاقي تاكل عيش»!

وعندما جاءته الفرصة كتب كلامًا هايفًا للغاية ... ثم تحول إلى مؤلف أغاني، ثم فشل أيضًا فقنع بتأليف أغنيات غاية في السوء يبيعها لمطربات الدرجة الرابعة، ولصالات شارع الهرم وكازينو صفية حلمي!

ولكن أغرب أدباء قهوة محمد عبد الله، لم يكُن أديبًا ولا صحفيًّا ولا حتى أفنديًّا، ولكنه كان بائع يانصيب، وكان اسمه عبادة وله لحية لم تُحلَق قط على طريقة قيس ... وشعر رأسه يتدلَّى على قفاه كأنه شمشون الجبار، ويرتدي جلبابًا لا لون له، ويضع على كتفه أكثر من جلباب، حتى أنه ليبدو من بعيد كأنه أحد شعراء الرومان المشاهير، وكان يصفو أحيانًا فيتكلم كلامًا كله فلسفة وعقل، ويجن أحيانًا أخرى فيتحوَّل إلى مخبول، وكان يهزأ من كل شيء، ويسخر بكل شيء، ويعلن رفضه لكل شيء، ويقفز وسط ميدان الجيزة حرًّا طليقًا من كل قيد، ويصرخ ويصفق ثم يهدأ فجأة، ويقبع في ركن بعيد يبكي بحرقة وينبح كأنه كلب عجره أتوبيس في الميدان.

ولقد كان صديقًا لأنور المعداوي يسأل عنه إذا غاب، ويجلس معه بالساعات يناقشه في التاريخ والأدب، وكان أنور يقول عنه: «عبادة هو أعقل العقلاء».

ولما أُغلِقَت قهوة محمد عبد الله اختفى عبادة هو الآخَر، وكنت أحيانًا أراه في الطريق وقد ازداد قذارة وتهدم وأصبح شيخًا، فلما مات أنور المعداوي، لقيته في الميدان وأبلغته النبأ ... فقال بلا مبالاة: مانا كنت عارف أنه هيموت!

ولقد تفرَّقت الشلة بعد أن انهدمت القهوة وقامت على أرضها عمارة شامخة بلا طعم، وكأن أنور المعداوي كان معها على ميعاد، تدهور حال أنور المعداوي أيضًا، فلما انهدمت القهوة مات أنور المعداوي رحمه الله.

ولقد كانت وفاته خسارة جسيمة للفكر والأدب، فقد كان طرازًا من الرجال يبيع ملابسه ولا يبيع كرامته، ويجوع ولا يسأل اللئيم!

ولقد أحببت أنور المعداوي واحترمته، وما أكثر الذين أحببتهم وما أقل هؤلاء الذين يستحقون الاحترام.

وبعد موته بزمن طويل ذهبت مع أحد الأصدقاء إلى قبره البعيد وجلست أبكي وأنا الذي لم تذُق عيناي إلا نادرًا طعم البكاء.

ولقد ودعت أنا الآخَر قهوة محمد عبد الله إلى حديقة كازينو الجلاء، وكنت قد حقَّقتُ لنفسي بعض الشهرة بين الصحفيين ... وأصبح لي أصدقاء يمكن الاعتماد عليهم وقت الأزمات، وأصبحت أعمل في مجلة أسبوعية اسمها «صوت الشرق» إلى جانب عملي الرئيسي في جريدة القاهرة، ولكن ظلَّ حلمي القديم يراودني، أن أصبح يومًا مالكًا لشقة خاصة تطل على شارع عريض ومضيء، وأن أصبح عضوًا بنقابة الصحفيين، ولقد خُيِّل إليَّ أن تحقيق حلم النقابة أسهل بكثير من تحقيق حلم الشقة.

ولِمَ لا وأنا صحفي وأعمل في المهنة منذ زمن طويل؟! ولي كتابات منشورة، ولي أجر محترم، ومعي شهادات من الصحف تثبت أنني أعمل بالمهنة منذ أكثر من عشر سنوات!

منطق الحق والحقيقة!

ولكن، مَن قال إن الحق والحقيقة وحدهما هما الطريق الوحيد إلى نقابة الصحفيين.

كانت جريدة القاهرة تجربة مفيدة تثبت بالدليل القاطع أن الصحافة ليست بالعافية وأنها مهنة صعبة لا يجيد صنعها إلا أبناؤها، فلقد خرجت الجريدة إلى الوجود وعلى صدر صفحتها الأولى أسماء أربعة رؤساء تحرير ليس من بينهم واحد من أبناء المهنة، أحدهم كان قائدًا للجيش المصري في حملة فلسطين عام ١٩٤٨، والآخَر كان رئيسًا للمجمع اللغوي، والثالث كان من كبار المجاهدين ... وهكذا! وكتب رئيس المجمع اللغوي افتتاحية العدد الأول تحت عنوان «غبوق الصباح» ولم يفهم أحد من القرَّاء ولا من المحرِّرين حرفًا واحدًا من مقال رئيس التحرير، ولذلك راحت الجريدة تتدحرج حتى وصلت في خلال شهر واحد إلى الحضيض!

ولقد كانت الجريدة فوق كونها تجربة مفيدة، تجربة فريدة أيضًا، فلقد تجمع فيها اليمين بدرجة مكثفة، وبينما كانت الصحف الأخرى التي عملت فيها من قبل تعج باليساريين والوطنيين والمعارضين، كانت جريدة القاهرة لا تضم بين جدرانها إلا اليمين وفلول الأحزاب القديمة، والمتطلعين إلى مناصب أكبر وفلوس أكثر وبعض أصحاب الهيافة الذين ليس لهم في الطور ولا في الطحين!

وكانت سكرتارية التحرير تضم ثلاثة من أغرب وأعجب من عرفت ورأيت خلال عملي في الصحافة أحدهم كان يتناول العمل الصحفي بأسلوب الموظف، يحضر في الثامنة صباحًا كل يوم، وينصرف في الثانية ظهرًا.

وكان إذا حضر سارع إلى خلع الجاكتة وعلقها على شماعة خلف المكتب، ثم شمر أكمام قميصه فشر ست فلاحة تستعد للعجين! ثم يطلب شايًا ويشعل لنفسه سيجارة قبل أن يبدأ في فرز أخبار المحرِّرين، وكان هذا الفرز لا يستغرق من وقته أكثر من خمس دقائق، بعدها يتفرَّغ لنفاق رئيس التحرير! ثم التعرض لزميليه بكلام لا يليق من رجل في مثله مركزه، وكان شديد الحرص على استعراض ثقافته أمام الحاضرين، وكانت هذه الثقافة لا تتعدى دائرة: هل الوضوء ينقض لو حمل المرء قربة فساء على ظهره؟

وهل تدخين السجاير مكروه أم ممنوع؟ ثم ماذا دار بالضبط بين سيدنا الهراس وسيدنا بعجر بن شمروخ؟!

وكان الآخر على عكسه تمامًا، يحضر في مواعيد منتظمة، وأكثر خبرة وفهمًا لعمله الصحفي، ولم يكُن يهتم من الثقافة إلا بما له اتصال بالعمل الصحفي، وكان يرى أن كل الصحفيين فاشلون وكلهم يستحقون الطرد، وكان دائمًا يردِّد أن باستطاعته إصدار الجريدة وحده، بشرط طرد جميع المحرِّرين ... وكان يخاف رئيس التحرير ويدس له من وراء ظهره، وكان له فم واسع وأسنان حادة ومُدبَّبة، فإذا ضحك أو تكلَّم بدا كأنه ذئب جائع مسعور.

واستطاع بعد فترة من العمل الصحفي في الجريدة أن يسيطر على عقل إحدى المحررات وأن يتزوجها، وسرعان ما سقط صريع الذبحة الصدرية، ولما أنقذ بأعجوبة كان قد فقدَ منصبه في الجريدة فاكتفى بالجلوس في نقابة الصحفيين وسب جميع الآخَرين.

أما الثالث فكان دلدولًا بكل ما في الكلمة من معنى، وللأسف استطاع هذا الدلدول أن يشق طريقه إلى الأمام بسهولة، وظلَّ محتفظًا بمنصبه في الجريدة إلى أن أغلقت أبوابها.

أغرب شيء أنه تحوَّل بعد ذلك إلى كاتب، وأصبحت له كتب ومُؤلَّفات، شخصية غريبة تثبت أنه لا يبقى في النهاية إلا الذيول.

ولكن أعجب وأغرب الشخصيات في جريدة القاهرة لم تكُن من بين المحررين، ولكنها شخصيات كانت تلعب دورًا رئيسيًّا من وراء ستار وتتحكَّم في الجريدة وتحريرها وسياستها ... وتوجهها إلى حيث تريد ... أول هذه الشخصيات كان يُدعى إلياس ... وكان مسئول الحسابات والمالية في الجريدة ... وكان يمتُّ بصلة قرابة لصاحب الامتياز، وسلطاته كانت مطلقة، ورغباته كانت أوامر، وعقليته كانت أتفَه من عقلية حمار.

والرجل الآخَر كان اسمه مسعود وكانت وظيفته الرسمية سائق سيارة صاحب الجريدة، ومن خلال هذه العلاقة التي تربطه بصاحب رأس المال، استطاع أن يفرض

نفسه على جميع المحرِّرين وأن يسهر معهم، ووعد بعضهم بعلاوات، وهدَّد البعض الآخَر بالفصل، ونجح في لعبته فكان يتلقَّى الهدايا، وينشر صورته في باب المجتمع ويحرِّر في باب بريد القرَّاء!

أما الرجل الثالث فكان يتمتَّع بشارب رفيع ووجه ثعباني وكان يتولَّى كل الأمور القانونية في الجريدة، وكان شديد الحذق كمحامٍ يجيد استغلال نصوص القانون لحسابه ... ويعرقل سير العدالة بمزيد من الإجراءات والتعقيدات، ولقد استولى على قلب صاحب الجريدة عندما نجح في فصل خمسين محرِّرًا دفعة واحدة دون أن يعطي لأي منهم حقه المشروع، فلما لجئوا إلى القضاء نجح في كَسْب القضية ضدهم، وجعل من هذا الفصل حقًّا مشروعًا لصاحب الجريدة الساذج الغلبان.

ولقد استشرى نفوذه في الجريدة حتى أصبح يعين مَن يشاء ويفصل من يشاء دون رقيب ولا حسيب! ولقد كان هو السبب المباشر في فصلي من جريدة القاهرة حين اتصل تليفونيًّا بالجريدة يريد مخاطبة صاحبها ... ولسوء حظي وقع في قرعتي، فطلب مني في صلف شديد أن أحوِّل المكالمة على مكتب صاحب الجريدة، ولم أردَّ عليه واكتفيت بإغلاق السكة في استهتار ملحوظ ... ويبدو أنه اغتاظ بشدة فعاد وطلبني، ولما أجبت على التليفون راح يصيح في أذني مهددًا بفصلي ... ولعنت له خاش جدود الذين نسلوا أبوه، وبصقت في سماعة التليفون احتقارًا لشأنه، وتوعدته بالأذية في أول فرصة تقع فيها عيناي عليه في الطريق!

ولكن الرجل الثعبان استطاع أن يفصلني من الجريدة بعد ذلك بشهر، يوم الفصل استدعاني صاحب المجلة وكان رجلًا عالمًا وفاضلًا ومجاهدًا عربيًّا قديمًا، ولكنه كان عجوزًا إلى درجة مضحكة ... إذا تكلَّم قطع الحديث فجأة ونام وارتفع شخيره في الفضاء، ثم يستيقظ فجأةً ليستأنف الحديث من جديد، ولقد أبلغني قرار الفصل على أربع دفعات، وخلال هذه الفترة كان ينام ويستيقظ ثم ينام ليستيقظ ويستأنف الحديث من جديد.

ولقد عرض عليَّ خمسمائة جنيه لأتنازل عن القضية، ولكني ركبت رأسي وقرَّرت أن أمضي في الشوط إلى النهاية.

ولقد حكمت المحكمة في القضية بعد ذلك بستة أعوام ... وحكمت ضدي وألزمتني بدفع مصاريف وأتعاب المحاماة ... وبدلًا من الخمسمائة جنيه التي كنت سأتناولها، دفعت أنا عشرة جنيهات وخرجت من المولد بلا حمص.

رجل آخَر عرفته في جريدة القاهرة، وكان ناعمًا ولطيفًا وصاحب اتجاه في الصحافة هو نشر كل ما هو طريف وظريف ... وكان فيما مضى من الزمان يدَّعي الثورية، وانضم

فعلًا إلى حزب فاشي كان أنصاره يرتدون القمصان الملونة ويُحطِّمون البارات وبيوت الدعارة.

وعندما احترف الصحافة كان أول مَن مَدَّ يده للبنت لتدخل هذا الميدان، وهي حسنة تُذكَر له بالخير، غير أنه تمادى في هذا الاتجاه، فأصبحت كل الجرايد التي يعمل بها مفتوحة على البنت، ولكن ليس للولد فيها مكان ... وكان رغم مركزه الكبير في الجريدة، لا يجلس في حجرة مستقلة، بل كان يفضل الجلوس في صالة كبرى وحوله عدد كبير من المحرِّرات المعطرات الأنيقات.

وانطبع هو بهذا الجو المحيط به فأصبح وكأنه واحدة منهن يقزقز اللب، ويتعطَّر بأجمل أنواع الكولونيا، ويقضي معظم الوقت في الحديث عن أصناف الطعام المفضَّلة لديه!

ولقد حدث للعبد لله مرَّة أن تعرفت على إحدى بناته المفضلات ... وكانت بنت سنيورة، عيونها في لون البنفسج، وخدودها كتفاح لبنان، وكانت عفية وقوية، وكأنها بقرة سمينة معلوفة بالكسب التمام ... وصارت علاقة غرام عنيفة ومواعيد حب على شاطئ النيل، وفي داخل النيل أيضًا، وعندما اكتشف المسألة جن جنونه، وثار وأحرج البنت أمام جميع الحاضرين، وظنَّت البنت أنني أنا الذي كشفتُ سرَّها، ومعذورة هي لأنها لم تكُن تعرف أن بيني وبينه ما صنع الحداد.

ولقد جن جنوني أنا الآخَر وحاولت جاهدًا أن أعيد العلاقة مع البنت ولكن دون جدوى، رفضت بإصرار وبشدة ... وعاملتني بقسوة حرَّضتني على التمسُّك بموقفي المزري ... وتصور منظري وأنا أطلب البنت كل خمس دقائق بالتليفون، وفي البداية كنت أتفاهم، ثم بعد ذلك أصبحت أتذلَّل وأرجو وأستعطف وكأنني شحات واقف على باب الحب!

وأعترف الآن أنني في حياتي لم أشعر بالبؤس مثلما شعرت به تلك الأيام، أنا الذي كنت أسخر من المحبين والمغرمين والعاشقين أصبحت واحدًا منهم، ورحت أطوف حول بيت البنت كأنني قيس وكأنها الست ليلى، وأحيانًا كنت أبكي، وأحيانًا كنت أتحدَّث مع نفسي في الطريق.

أغرب شيء أيضًا ... أنه حدثت لي أزمة نفسية حادة جعلتني أتصوَّف.

وذات مساء دخلت مسجد سيدنا الحسين وحذائي تحت إبطي ورأسي منكسة، وقدماي لا تقويان على حملي ... وجلست في صحن المسجد كالمتسوِّل وعيناي تبرقان بلا معنى وتنظران بلا إحساس ... ولكزني الرجل الذي بجواري واكتشفت أنه صديقي الدكتور سعيد قدري، وتعجب الرجل لوجودي في هذا المكان ... خصوصًا أنني رغم وجود مسجد

في أعماقي وشيخ له عمامة، إلا أنني لست من هواة التردُّد على المساجد ... وتظاهرت بأنني في المسجد في انتظار أحد أقربائي الفلاحين وتركت مكاني بجوار سعيد قدري وانصرفت إلى ركن آخَر.

وبعد الصلاة قمت مع المرحوم الشيخ محمد الصيفي إلى منزله في العباسية، وجلست معه حتى انتصف الليل، وحكيت له عن سبب تعاستي، فربت الرجل الطيِّب على كتفي وقرأ الفاتحة عدة مرات، ولم يزد على قوله: «كل شيء قسمة ونصيب».

وأعترف الآن أنني بعد لقاء الشيخ محمد الصيفي، شفيت من الغم الذي حط على نفسي، ولكني لم أشفَ تمامًا، ظلَّت صورة البنت في نفسي إلى فترة طويلة من الزمان، ولم أشفَ منها تمامًا إلا بعد أن صدر أول كتاب لي «السماء السوداء» وأحدث ظهوره ضجَّة كبرى في الوسط الأدبي.

عندئذٍ أفقت من ذهول الحب، وشغلني النجاح الأدبي فعدت من جديد رجلًا سويًّا.

ولقد الْتَقيتُ بها مرَّة بعد ذلك في الطريق ... مصادفة! وصافحتها بفتور وانصرفت، واكتشفت أنني لم أكُن أحبها أبدًا ولكن المسألة كان لها وجه آخَر!

فلقد كان من عادتي أن أتعرَّف على البنات وأهجرهن! ولكن هذه البنت خالفت القاعدة فهجرتني، ولم تدرك البنت ولم أدرك أنا أيضًا أنها بهذا الهجر قد نكأت كلَّ الجراح التي في نفسي، وما أكثر الجراح التي في نفسي، فأنا أمضي في الحياة وكأني أجرُّ ورائي قطار سكة حديد من الجراح والذكريات المريرة.

طفولتي، وظروف حياتي الأولى، وفقري الذي كان نسيجًا وحده، فلا أنا فقير دقة فأتسول، ولا أنا قادر على مواجهة الحياة، ولا أنا أستطيع الكذب على نفسي، ولا أنا قادر في صباي المبكِّر على عدم الكذب على الناس! لم يكُن من أجل البنت نفسها، ولكن من أجل ظروفي وحياتي كلها، خصوصًا أنها كانت أول بنت أتعرَّف عليها من بنات هذه الطبقة! بيتها في جاردن سيتي، وأبوها له شوارب وله طين وله سيارة وفي السيارة سائق له بدلة خضراء وشرايط على ذراعه!

وكان قهري للبنت يعني شيئًا آخَر ... هو قهري لهذه الطبقة، حَواري الجيزة تسيطر على شوارع جاردن سيتي ... هذه هي القضية ... فلمَّا رمتني البنت بقسوة، نضحت على نفسي كل أحزان الجيزة وكل آلام أهلها!

فلما حققت نجاحًا في مكان آخَر نسيت البنت ونسيت أمرها، ولكنها كانت على أية حال تجربة مفيدة ومريرة معًا!

ولقد صدر كتابي الأول الذي كان السبب في شفائي بطريقة لها العجب، تعرَّفت على موظف كبير في وزارة الشئون الاجتماعية اسمه صلاح نور، وهو من أسرة نور الثرية العفية، ولكنه هو نفسه كان من نسيج مختلف، وكان في جوهره فنان وصعلوك وابن بلد قذفت به الصدفة من أصلاب هذه الأسرة، وبينما كان مرتبه لا يزيد على ستين جنيهًا كان يوزع نصفه على سعادة الوزارة ويقوم بتسليف النصف الآخَر لصغار الموظفين ... وكان قلقًا للغاية لا يدرك بالضبط ماذا يريد!

وكان يهوى الترف والأسفار والأدب، ويقرأ كثيرًا وبنهم، ولكن قراءاته كانت متعدِّدة وأفكاره لذلك كانت مشوشة، وأصدقاؤه كانوا من جميع الطبقات والأوساط، وبينما كنت تراه يجلس في قعدة أشبه بقعدات المصاطب والقهاوي في القرى، كان يسكن في شقة فاخرة على النيل وله سيارة كأنها قطار السكة الحديد، إلا أن أسعد لحظات حياته، كانت تلك التي يقضيها في الريف بالشبشب والجلباب، وكان يتحدَّث بطريقة واد ابن بلد مولود في حواري السيدة زينب، وإذا ثار بدا كأنه من سكان الدرب الأحمر، وإذا وقع في عاركة تصرف وكأنه ولد من أولاد بولاق.

وتوطدت الصداقة بيني وبين صلاح نور، وسرحت معه في الحسين وفي الريف وفي مكاتب الوزارة.

وذات مرَّة قرأ لي قصة قصيرة منشورة في جريدة القاهرة، وقال لي وهو يضحك، دا انت لو طلعت كتاب هتعمل ضجة.

واعتذرت له بأن اليد طويلة في الكتابة، قصيرة في الفلوس.

وقال صلاح نور: إذا كان العائق هو الفلوس فقط، فاعتبر الكتاب صدر والمطبعة تدور الآن.

وقمنا بالفعل ... وبعد أيام كان الكتاب في السوق.

ولقد تحقَّقت نظرية صلاح، فأحدث الكتاب ضجَّة لدى النقاد والأدباء، ولكنه لم يحدث أي أثر عند القرَّاء، وبلغ عدد النسخ التي بيعَت من الكتاب مائة نسخة لا تزيد، ولكن الكتاب رغم الوكسة العريضة كان جواز المرور للعبد لله إلى دنيا الأدب والأدباء.

١٣

قصة عبد العاطي في الصحافة تصلح للغناء على الأرغول، كفاجعة من فواجع العصر، وهي قصة أكثر إثارة من شفيقة ومتولي، وأعمق شجنًا من حسن ونعيمة، ولقد كان عبد العاطي رجلًا جهولًا لا يحتاج لكشفه إلى ذكاء كبير، كانت سحنته ولهجته ومنظره كله منظر قهوجي عاطل لا يصلح لشيء على الإطلاق، كانت الأحوال في مصر مضطربة، وكانت الثورة في بدايتها، وكبار الصحفيين في قلق على مستقبلهم، وصغار الصحفيين حيارى لا يدرون بالضبط ماذا ينبغي عليهم صنعه!

ولكن كيف دخل عبد العاطي ... لا أحد يدري ... المهم أنه أصبح محرِّرًا بثمانية جنيهات، وصفة محرِّر واسعة جدًّا على العمل الحقيقي الذي يقوم به، فقد كانت مهمة عبد العاطفي تلقي المكالمات التليفونية من مراسلي الجريدة في الأرياف ... وكانت معظم الأخبار التي يتلقَّاها تأخذ طريقها بسهولة إلى سلة المهملات، وأحيانًا كان بعضها يأخذ طريقه إلى النشر، وحتى هذه لم تكُن تخرج عن دائرة الأخبار التافهة ... سرقة ماشية من زاوية أبو جاموس، أو قتل مزارع في بني حسين والعثور على القاتل بفضل يقظة وخبرة وفن الكونستابل الممتاز علي أفندي عبده! هذه هي كانت مهمته بالضبط.

ولكن عبد العاطي كان طَموحًا إلى أقصى حدٍّ، ولكن طموحه الشديد للغاية لم يكُن يصل أبدًا إلى الحد الذي وصل إليه بالفعل، فقد راح يهمس باسم أحد ضباط المخابرات على أنه صديقه الأوحد ... وأحيانًا كان يطلبه بالتليفون، وأحيانًا أخرى كان يرسل بعض التقارير إليه على مرأى ومسمع من الآخَرين.

وكان عبد العاطي حتى هذه اللحظة محتقرًا من الجميع ... فلما شاعت قصته وذاعت، وعرف الجميع نبأ العلاقة التي بين عبد العاطي وضابط المخابرات العامة، ابتسمت له الوجوه التي كانت دائمًا عابسة، وضحكت الأفواه التي كانت دائمًا مطبقة، وامتدت إليه

الأيدي التي كانت دائمًا منكمشة وممسكة ... وأحيانًا كان رئيس التحرير ينتقل بنفسه إلى مكتب الأستاذ عبد العاطي ليسأله عن آخِر تطورات الأخبار في الريف.

وارتفع مرتب عبد العاطي فجأةً من ثمانية جنيهات إلى ثلاثين، وانتقل من مكانه الصغير إلى مكتب فخم، وترك ميدان الريف إلى مجال أرحب ... مندوب متجول للجريدة في دوائر البوليس ... واستطاع عبد العاطي أن يثبت جدارة وكفاءة في عملة الجديد، ووثق صلاته بضباط البوليس في الأقسام، وبالصولات وبالعساكر، وأصبح له نفوذ في مديريات الأمن درَّ عليه دخلًا لا بأس به عن طريق الإفراج عن المشبوهين والمقبوض عليهم للتحرِّي، ونقل عساكر البوليس من مكان إلى مكان آخَر، فقد كان عمله يسمح له بنشر صور كبار ضباط البوليس ونشر أسماء صغار الضباط الذين اشتركوا في ضبط مجرم هارب أو إطفاء حريق شبَّ في عشش الترجمان!

وتبدَّلت أحوال عبد العاطي فخلع البدلة القديمة، وأصبح يبدو كل مساء في بدلة جديدة، وعرف القمصان الحرير والزرابر الذهب والكرفتات الأرجنس، بينما الحقيبة الجلد تتأرجح دائمًا في يده ... واشترى سلسلة ذهب من الصاغة كان دائمًا يلوح بها وهو سائر في الطريق، وصفت الحياة لعبد العاطي وكان يمكن أن تصفو له هكذا على الدوام، لولا أن صراعًا رهيبًا كان يدور في الخفاء بين رئيس التحرير ومدير التحرير، وقد قرَّر كلٌّ منهما أن يخوض المعركة إلى النهاية، وأن يستخدم أي سلاح حتى يحقِّق الغاية المنشودة.

وتبارى الاثنان في كسب ود عبد العاطي، فهو صاحب نفوذ في دوائر المخابرات وهو يستطيع عن طريق التقارير أن يحسم المعركة لحساب أحد الطرفين في النهاية.

ولقد كان مدير التحرير الشاب الطامع والطموح أسرع في كسب ود عبد العاطي، وكان عبد العاطي صريحًا فأعلن انضمامه إلى مدير التحرير، وفعلًا انتقل بمكتبه إلى مكان قريب من مكان مدير التحرير وتحول من محرِّر إلى فرَّاش، إذا عطش مدير التحرير أسرع فأحضر له كوب ماء، وإذا نام وقف كالديدبان يحرس مكتبه حتى لا يدخله إنسان، وإذا عطس قال له: يرحمكم الله!

ولم يكُن مدير التحرير يطمع في كل هذا الولاء من جانب عبد العاطي، كان يطمع فقط في أن يقف عبد العاطي إلى جواره في المعركة الناشبة بينه وبين رئيس التحرير في التقارير بكلمة أو إشارة، ولكن عبد العاطي كان كريمًا إلى أقصى حد.

كان يجلس بالساعات يدوِّن أمام مدير التحرير كل حرف يقوله المدير في حق رئيس التحرير، هكذا دون مراجعة ودون اعتراض، ثم يضع التقرير في ظرف ويستأذن مسرعًا ليذهب إلى المخابرات.

كرم أخلاق من جانب عبد العاطي قابله مدير التحرير بكرم أكثر، فارتفع مرتب عبد العاطي إلى ستين جنيهًا، ستون جنيهًا — في هذه الأيام — مرتب أستاذ جامعي أصبح يلهفه كل شهر هذا الجاهل الأحمق المأفون!

واستشرى عبد العاطي كالسرطان في أنحاء الدار، يدفع المحرِّر — أي محرِّر — بكتفه أو يلزقه من باب الهزار، ويتلطع عند أبواب المكاتب ويسترق السمع كلما وجد أكثر من ثلاثة في اجتماع ... كان يَعِد ويتوعَّد ويهدِّد وصوته أصبح أعلى من صوت مكنة الطحين، ودائمًا يدوي بين جدران الدار، ولكن رغم جلال عبد العاطي ودلاله كان يخشى العبد لله ويتحاشاه ... وكان كلما الْتَقى بي مصادفة في الطريق ضرب تعظيم سلام، ليس كما يفعل الناس العاديون، ولكن على طريقة رجل الشرطة عندما يصادف ضابطًا في الطريق.

ولقد كنت أكرهه وأحتقره وأُبدي له في وجهه رأيي الصريح.

وذات مساء دخلت الجريدة منهكًا ... فقد كنت قد انتهيت تلك الليلة من كتابة مذكرات زعيم شهير من زعماء العهد الماضي، كانت الجريدة تنشرها له على حلقات، ولمَّا كان الزعيم إياه ليس من محترفي الكتابة فقد توليت أنا صياغة المذكرات في الثوب الصحفي اللائق، وحمدت الله لأن هذا العمل الثقيل على نفسي قد فرغت منه إلى الأبد، ولم أكد أستقر على مقعدي حتى جاء الفرَّاش يدعوني لمقابلة المدير العام، كان رجلًا عفيًّا وجهولًا وعديم الخبرة بالصحافة، وناولني الرجل رزمة أوراق وقال في اختصار شديد وفي حزم أشد ... خد مذكرات جديدة عاوزها تُنشَر من الأسبوع القادم ... وقلت لا حول ولا قوة إلا بالله، أخرج من نقرة أقع في حفرة ... يا للحظ التعيس على رأي يوسف وهبي!

وفوجئت وأنا أراجع رزمة الأوراق في مكتبي وكانت هذه المذكرات بعنوان «أسرار الثورة المصرية، حقوق الطبع والامتياز محفوظة للأستاذ عبد العاطي ... المحرِّر الصحفي».

إذَن هي مذكرات عبد العاطي ... يا للعار! والمذكرات بالطبع كلام فارغ في فارغ وهرش مخ أزلي ونصب واختلاق وكذب ليس له مثيل! لكن كيف العمل؟ وما هي الوسيلة لإفساد خطة عبد العاطي؟ خصوصًا أن المدير العام موافق على نشر المذكرات!

لم يكُن هناك جدوى من التفاهم مع مدير التحرير ولا مع المدير العام ... كان لا بد من طريق آخَر لوقف نشر المذكرات ... كان لا بد من فضيحة.

استدعيت عبد العاطي إلى مكتبي وارتديت قناعًا رسميًّا للغاية ... فلمَّا أبصر المذكرات بين يدي حياني باحترام شديد وجلس في أدب بالغ يحدثني عن المتاعب التي صادفها حتى استكمل هذه المذكرات والجهد البالغ الذي عاناه حتى حصل على كل التفاصيل، وعندما

انتهى من سرد كل ما عنده من حكاوي قلت له باختصار وبهدوء: أنا عاوز أنشر المذكرات دي في كتاب، ونظر نحوي في ارتياب وقال في إصرار: بس أنا عاوز أنشرها في الجريدة.

وقلت لعبد العاطي: طبعًا ... بس أنا عاوز أتفق معاك على نشرها في كتاب قبل ما حد يلهفها ... وهتاخد ألف جنيه.

ووقعت عليه عبارة الألف جنيه كالصاعقة، فقال على الفور: زي بعضه، وانت تاخد تسعمائة وأنا آخد مية ... وقلت لعبد العاطي غاضبًا، إزاي تقول كدة؟ دا عرقك وشقاك، عاوزني آكل عرقك، انت فاهمني إيه؟ وارتبك عبد العاطي فلم يستطع أن يتكلَّم، وانتهزت فرصة ارتباكه فسحبت ورقة وقلت له وهو تحت تأثير المفاجأة، نكتب العقد دلوقت ... ولكنه كان قد استجمع نفسه مرَّة أخرى فطلب مهلة حتى يستشير بعض الأصدقاء، وبالطبع كان مستشاره الوحيد هو مدير التحرير، ولو استشاره في الأمر فسيدرك مدير التحرير أن المسألة كلها مقلب ولعبة شيطانية من تدبير العبد لله، وكان لا بد من منع عبد العاطي من مغادرة مكتبي بأي صورة، فقلت له بصوت مزمجر: دي فرصة ما تضيعهاش ... أو خد المذكرات دي واديها لحد تاني يكتبها!

ورفعت سماعة التليفون على الفور واتصلت بيوسف السباعي في البيت، ورد يوسف السباعي وقلت له على الفور وفي لهجة مؤدبة جادة للغاية ... خلاص يا فندم، عبد العاطي قدامي هنا ووافق، ولم يكُن يوسف السباعي يعلم شيئًا عن الأمر، فقال بطيبة متناهية: عبد العاطي مين ووافق على إيه؟ قلت ليوسف: أيوة خلاص ... ألف جنيه ونطبع الكتاب، قال يوسف في دهشة: مين اللي بيتكلم؟ قلت: محمود السعدني. قال: طيِّب بتخرف تقول إيه؟ قلت: خلاص عبد العاطي وافق، وسيادتك موافق ... مبروك ... قال يوسف ضجرًا: إنت باين عليك اتجننت ... ووضع السماعة بعنف، فقلت قبل أن أغلق السكة: حاضر يا فندم، هنكتب العقد على طول.

وصدق عبد العاطي الحكاية ... وراح يرقبني في اهتمام زائد وأنا أكتب شرط العقد: «اتفق كلٌّ من عبد العاطي المحرِّر الصحافي له حقوق الطبع والامتياز طرف أول مع دار الهنا والشفا للطباعة والنشر على نشر كتاب أسرار الثورة المصرية وذلك بمبلغ ألف جنيه مصري تُدفَع فور صدور الكتاب، أما الطبعات الشعبية فيتقاضى المؤلف مائة جنيه عن كل طبعة تصدر في الأقاليم، وعددها عشرون طبعة في كلٍّ من بنها العسل وكفر بطة ومنوف والقصاصين والبدرشين وبني سويف وبني مزار وأبو تيج وديروط» وصرخ عبد العاطي فجأةً وقال في توسل: لا بلاش ديروط! وتساءلت أنا في بلاهة: ليه؟ فقال: أصلي دي بلدنا ... وعلى الفور استأنفت كتابة العقد «بشرط استثناء ديروط حيث إنها بلد المؤلف».

كان الحوار قد جذب انتباه زميل كريم يجلس أمامي في هدوء يتصفح بعض المجلات الأجنبية، كان الزميل هو محمد محبوب وأنا أحبه وأحترمه كثيرًا، فقد كان شديد الأنفة شديد الكبرياء ... يحضر إلى دار الجريدة في موعد محدَّد وينصرف في موعد محدَّد، ويؤدي العمل المطلوب منه على الوجه الأكمل ... وكان نادرًا ما يمزح، ونادرًا ما يختلط بالآخَرين، ولكنه كان شغوفًا بالموسيقى مُولعًا بالأدب والفن.

ولقد جرَّه الحوار إلى التوقُّف عن القراءة ومتابعة الحديث الغريب الذي يدور بيني وبين عبد العاطي ... وخلع محبوب نظارته السميكة ونظر نحوي باندهاش، وقال وهو يشفط نفسًا عميقًا من سيجارته: إيه الحكاية؟

ولو أنا حكيت الحكاية فعلًا لباظ المشروع كله، فقلت له دون اكتراث: دا مشروع كبير جدًّا وانت كمان هتقوم بالترجمة! وقلت لعبد العاطي: تحب نترجمه إنجليزي ولَّا فرنساوي؟ فقال على الفور: فرنساوي أحسن ... واستأنفت كتابة العقد «وبشرط أن يقوم الأستاذ محمد محبوب بترجمة المذكرات إلى الفرنساوي ويتقاضى خمسمائة جنيه ... ويتقاضى المؤلف مثلها» ... وقدَّمتُ العقد لعبد العاطي فوقَّع عليه وانصرف ... وقدَّمتُ العقد لمحمد محبوب، وعندما انتهى من قراءته كانت ضحكته المجلجلة ربما لأول مرة تهز جدران الدار كلها.

وحملت المذكرات والعقد إلى المدير العام فأمر بوقف نشر المذكرات ... ووقف عبد العاطي نفسه عن العمل ... ولكن لم تمضِ أسابيع حتى فُصِل المدير العام وجاء مدير جديد وجاء معه عبد العاطي، وأشاع عبد العاطي أن المدير السابق فُصِل بفضل جهوده لدى صديقه في إدارة المخابرات، ولقد وجد عبد العاطي مَن يصدِّقه فارتفع مرتبه إلى ثمانين جنيهًا في الشهر ... وأصبح نفوذه في الجريدة يخشاه كل المحرِّرين.

وتطورت مهنة عبد العاطي فأصبح المحرِّر العسكري للجريدة، ونُشِرت صورته على غلاف مجلة أسبوعية مصورة كانت تصدر عن الدار ... وكتب مدير التحرير مقالًا عن نشاط وجهود عبد العاطي في مهنة البحث عن المتاعب والأهوال ... وأصبح عبد العاطي نجمًا صحفيًّا يُشار إليه بالبنان! خطوة واحدة فقط بقيت لعبد العاطي ليصبح صحفيًّا وليحقِّق كل الآمال ... أن يصبح عضوًا بنقابة الصحفيين ... وكل شيء أمامه مُعَد وجاهز وعلى خير ما يرام ... أوراق من الدار تثبت أنه يعمل صحفيًّا وبمرتب كبير، وجميع الأجهزة الرسمية موافقة على انضمامه للنقابة ... ولكن بقيت موافقة نقابة الصحفيين ولقد وقفت نقابة الصحفيين موقفًا شريفًا وعظيمًا ضد انضمام عبد العاطي إليها ... وقال رخا راسي

وألف سيف لا ينضم عبد العاطي للنقابة ... وإذا دخل من الباب سأخرج من النافذة. ولم تتزحزح نقابة الصحفيين عن موقفها قط.

ولكن ماذا يهم، عبد العاطي شغال في الصحافة على ودنه، ويومًا ما سيدخل النقابة رغم أنف الصحفيين!

ولكن ... تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن، ضبطت الحكومة شبكة تجسُّس لحساب الغرب ... وضُبِطَت أفراد الشبكة في حالة تلبُّس أثناء اجتماع في شقة رجل إنجليزي في الزمالك، وسِيقَ المتهمون إلى السجن ... وأُغلِقَت الشقة بالشمع الأحمر، ونزل عبد العاطي مسرعًا من الجريدة إلى مكان الحادث ليكتشف أن كل شيء قد انتهى وأن الشقة مُغلَقة بالضبة والمفتاح، ولكن عبد العاطي الجسور نادى على البواب وأَمَره بفتح الشقة وفض الشمع الأحمر، ولَمَّا سأله البواب عمَّن يكون؟ أجاب ببساطة أنا من المخابرات!

وفتح البوَّاب الشقة ودخل عبد العاطي، وعبث طبعًا في محتويات الشقة، والْتَقط صورًا لها من الداخل ... ونشر الموضوع كاملًا في الجريدة في صباح اليوم التالي، وقامت الدنيا ولم تقعد ... وأُلقِيَ القبض على البوَّاب وعلى عبد العاطي، وأُجرِي معه تحقيق سريع ثم أُفرِج عنه بعد أربعة أيام ... ولكن هذا التحقيق الذي أُجرِي معه صار جزءًا من التحقيق في قضية التجسُّس نفسها، ومع التحقيق أرفق تقرير مُفصَّل بالتحري عن عبد العاطي نفسه. وفي التقرير كلام عن عبد العاطي يَشيب لهوله سواد الليل!

وأنقل لكم بالحرف الواحد ما جاء بالتقرير: «عبد العاطي محرِّر صحفي كان يعمل بالبوليس السياسي برتبة عسكري في مدينة الإسماعيلية في العهد البائد، ثم فُصِل من وظيفته لاتهامه بالاتصال بالمخابرات البريطانية ... وهو دائم التهديد لزملائه في العمل بأنه من المخابرات والبوليس الحربي بقصد الإرهاب وابتزاز الأموال. وهو جاهل لا يجيد القراءة والكتابة وقد حصل على علاوات كثيرة بفضل علاقاته المشبوهة ببعض كبار المحرِّرين.»

انتهى التقرير، ولقد تلقَّت نقابة الصحفيين هذا التقرير وقدَّمَته إلى المحكمة كتبرير لموقفها في رفض قبول عبد العاطي عضوًا بها، وقد أمر القاضي برفض طلبه ... وإلى أبد الآبدين!

ولكن ... هل انتهت قصة عبد العاطي؟ لا ... لقد ظلَّ يعمل في الصحافة رغم كل شيء، وبعد شهور فُصِل مدير التحرير وفُصِل عبد العاطي ... وتقاضى ألف جنيه مكافأةً وتعويضًا عن فصله ... وعندما رأيتُه بعد الفصل بأيام، كان رابط الجأش يؤكِّد لكل مَن يلقاه أنه سيعود بفضل نفوذ صديقه ضابط المخابرات الكبير! ولكني الْتَقيتُ به بعد ذلك

بأسابيع، وكان قد جفَّ عُوده واسودَّ وجهه واحمرَّت عيناه وقال لي وهو يجلس منكسرًا على المقهى إن عينَيه احمرَّتا من فرط البكاء، ويبدو أنه فقد الأمل نهائيًّا في الاشتغال بالصحافة، فافتتح محلًّا لبيع الفول المدمس والطعمية في عابدين ... وعندما الْتَقيتُ به ذات مساء أمام الدكان راح يسبُّ ويشتم في الصحافة والصحفيين ... هذه مهنة الصيَّاع والذين بلا عمل!

كان هذا هو رأي عبد العاطي في أول عهده بصناعة الفول! وكان يحلم بثروة ستهبط عليه من وراء هذا المشروع الجديد ... وأنه يومًا ما سيصبح مليونيرًا مثل أبو ظريفة وأبو عضيم! ولكنه لم يلبث أن أفلس بعد شهور.

واختفى عبد العاطي سنوات طويلة، ثم الْتَقيتُ به مصادفة ... ويا له من لقاء! اكتشفتُ أن مكتبي قد انفصلت أحد قوائمه فأرسلت في طلب نجار، وعندما جاء النجار اكتشفت أنه عبد العاطي نفسه! كان يرتدي بنطلونًا وقميصًا وقد أرسل ذقنه، ودبَّ الشيب في رأسه وقفز عمره عشرات الأعوام دفعة واحدة! وجلس يحكي لي في مرارة عن كفاحه وصراعه في الحياة، ولكنه لم يكُن قد فقد الأمل نهائيًّا في العودة للصحافة ... سأعود إليها بعد أن تنصلح الأحوال!

ولم أفهم أي أحوال كان يقصدها عبد العاطي، وقبل أن ينصرف دعاني إلى زيارته في الدكان، واكتشفت عند الزيارة أنه لا يزال يعيش في الماضي ... مقالاته مُعلَّقة على الجدران وصورته على غلاف المجلة تتصدَّر المحل وتحتها عبارة الصبر مفتاح الفرج، وقدَّمَني لزملائه في محل النجارة ... لفندي كان زميلي في الصحافة، عشان تصدقوا يا ولاد الهرمة! وصاح عامل كان منهمكًا في نشر لوح خشب ... والنبي تتلقَّح وتسكت ... وقال عامل آخَر، ما تريحنا يا أخي وتروح الصحافة بتاعتك.

وهز عبد العاطي رأسه وقال في وقار: بإذن الله بس لما تزول الأسباب! وعندما سأله عامل عجوز، والسبب إيه إن شاء الله، رد عبد العاطي على الفور: خلاف سياسي من غير مؤاخذة!

تصوروا ... هذا الحمار الذي لا يعرف الفرق بين الخيارة والحمارة!

ثم غاب عبد العاطي بعد ذلك فلم أره إلا منذ عام، كنت أجلس ذات ليلة على رصيف الدمياطي في الجيزة وكانت ليلة حارَّة ورطبة تكاد تكتم الأنفاس. ومد رجل شديد القذارة لحوح بدرجة مزعجة يده، فمددت يدي أنا الآخَر ووضعتُ في يده شيئًا لله! ولكن اليد ظلَّت ممدودة والشخص القذر ظلَّ مكانه لا يتحرَّك على الإطلاق، وعندما نظرت في وجهه

اكتشفت أنه عبد العاطي! وأن يده ليست ممدودة من أجل قرش ولكن يده ممدودة من أجل السلام ... وصافحت عبد العاطي وجلست معه حتى الصباح. لقد فشل في كل المهن، الفول والنجارة وحتى فشل كطباخ! ذهنه لا يجيد العمل ... فلم يعُد أمامه إلا عرق الجبين والسواعد والأقدام.

ولقد تدحرج عبد العاطي في النهاية ليستقر في سفح الحياة كشيَّال في محطة الترولي باس! أية مأساة عنيفة هي حياة عبد العاطي، فلقد خُلِق عبد العاطي فعلًا لمهنة شيَّال، فإذا به — بسبب بعض الأوضاع المقلوبة — يتحوَّل إلى صحافي شهير ولكن لعدة أعوام.

لقد كان من الطبيعي أن يكون عبد العاطي شيَّالًا ... وكان من المنطقي أن يظلَّ شيَّالًا من الميلاد حتى الممات ... فهذه هي كل مواهبه في الحياة، ولكنه انقلب صحفيًّا شهيرًا بعض الوقت ... وهذه هي المأساة!

١٤

وهكذا أصبحت — بعد تجربة عاصفة — واحدًا من رجال السياسة، ولقد كانت تجربة صدمتني ولا أستطيع أن أزعم لنفسي أنها أنضجتني! ولقد كنت قبل هذه التجربة المُرَّة أشترك في السياسة على الهامش، وكنت وفديًّا بقلبي، مع النحاس بعواطفي، ضد جميع الأحزاب بقلقي وهمي وعدم استقراري على حال!

ولقد خرجت من هذه التجربة بشعور غريب، هو أنه ينبغي أن أتذوق السياسة بلسان ساخر وأن أشمها بأنف مزكوم! وبعد عام من قيام الثورة لم أكُن قد شهدتُ حفلًا سياسيًّا لقادتها. ولكن قُدِّر لي أخيرًا أن أقوم بأول رحلة سياسية مع قادة الثورة في أنحاء الريف وكانت رحلة لا تُنسى.

كنا أربعة من الصحفيين مع عدد من قادة الثورة على رأسهم جمال عبد الناصر وحسين الشافعي، ولم أكُن أعلم وقتئذٍ أن عبد الناصر هو زعيم الثورة وبطلها الوحيد، ولقد حرص هو خلال الرحلة أن يؤكد بتصرفاته أنه ليس الرجل الذي في الصدارة، وأنه ليس الرجل الذي حرَّك كلَّ شيء قبل وأثناء ليلة ٢٣ يوليو، بينما كانت تصرفات وحركات أصغر ضابط في الرحلة تكاد تصرخ بأنه صاحبها الذي صنع كل شيء ودبَّرَ كل شيء، وأنه لولاه لما حدث في مصر حادث! وتحركت السيارات إلى شبين الكوم حيث خطب عبد الناصر خطبته المشهورة التي دعا فيها الاستعمار أن يحمل عصاه على كاهله ويرحل ... أو يقاتل حتى الموت دفاعًا عن صلفه ووجوده.

ولم أكُن أنا شديد التعلُّق بالسياسة تلك الأيام خصوصًا بعد التجربة المريرة، وكنت قد أصبحت صاحب نظرة متشائمة وغير مبالية بأي شيء ولذلك لم أدرك مغزى هذه الكلمات ولا معناها. وظننتها لونًا من الدعاية، وأشياء للاستهلاك المحلي لا تزيد، وهكذا أخذت الأمر

ببساطة، كما تعودت أن آخذ كل حركة سياسية تلك الأيام ببرود، فقبل ذلك بعدة شهور قُدِّر لي أن أقوم بدور تمثيلي مضحك في مسرحية سياسية هزلية ليس لها مثيل.

فقد دُعيت عند تنظيم الأحزاب لحضور ليلة سياسية يقيمها حزب المعارضة الذي دعا إلى قيامه الزميل فتحي الرملي، ولقد كانت معرفتي بفتحي الرملي تمتد إلى ما قبل ذلك بأعوام، فعندما كنت تلميذًا بمدرسة المعهد العلمي الثانوية شاهدت شخصًا يرتدي ملابس العمَّال يوزِّع على الناس في حي السيدة زينب منشورات ثورية ملتهبة ضد النظام الملكي القائم ويدعو في الوقت نفسه إلى انتخابه نائبًا عن الدائرة، وكان الشخص إياه هو فتحي الرملي نفسه، ولكن منظر فتحي الرملي ودعوته لم تشغلني كثيرًا فقد كنت مطهومًا وقتئذٍ في المعركة الانتخابية إلى جانب مصطفى عبد الهادي صاحب مدارس المعهد العلمي …

ثم تعزَّفت إليه بعد ذلك في جريدة الجمهور المصري وأحببته، ولذلك لبَّيتُ دعوته لحضور مؤتمر الحزب، وفوجئت بعشرة أنفار في المؤتمر، وشاب ضئيل الحجم يرتدي نظارات طبية ويتكلم بفصاحة يتصدَّر الاجتماع، وبدأ الشاب حديثه عن حركة الحزب الجديدة وبرنامج العمل الذي ينبغي علينا أن نقره وأسلوب العمل في المرحلة القادمة، وكانت نغمة جديدة على أذني، فلم أكن قد سمعت مثلها في أي ندوة سياسية من قبل.

كان الكلام طيبًا ولكن واقع الحال لم يكُن كذلك، فلم يكُن في مؤتمر الحزب سوى عشرة أنفار أغلبهم حضر دون رغبة في الحضور مثلي، هل نحن فعلًا الطليعة كما قال الأخ الضئيل إياه؟! وهل ستقوم على أكتافنا نحن كل التغييرات المنتظرة في المجتمع المصري في المرحلة القادمة؟ وهل المسألة جد أم هزار؟

وتأكدت أنها هزار عندما طلب الأخ المتكلم من الحاضرين أن يدفع كلٌّ منهم خمسة وعشرين قرشًا وأن يترك صورته باعتبارهم الهيئة التأسيسية للحزب الجديد، ودفعت الربع جنيه وتركت صورتي وانصرفت، وفوجئت بأخبار الحزب منشورة في جريدة المعارضة، والهيئة التأسيسية بكامل هيئتها مجتمعة، وصورة العبد لله تحت أفضل مكان بين الحاضرين، عندئذٍ تأكدت أن المسألة هزار؛ لأنني في واقع الأمر لم أكُن مع هذا الحزب ولم أكُن ضده! ولم أكن مشغولًا حينئذٍ إلا بعملي الصحفي وأن أحتفظ بنفسي ثانيًا على حبل الصحافة الذي كان يهتز كثيرًا تلك الأيام.

ولكن صديقًا آخَر زارني في الجريدة في اليوم التالي جعلني أنظر للمسألة نظرة أخرى، كان الصديق هو إبراهيم عبد العليم … ولقد عرفت إبراهيم أول عهدي بالصحافة في جريدة صوت الأمة … وكان لا يبدو مثل الصحفيين الآخَرين. كان جادًّا ومهتمًّا وممرورًا على نحو ما، وكان يفلسف كل شيء، وذات يوم صدمني صدمة قاتلة حين قرَّرتُ أمامه أنني

أبحث عن عشرة قروش لشراء كتاب لإبراهيم الورداني، وكنت معجبًا بإبراهيم الورداني إلى حد الجنون؛ كان أسلوبه سهلًا ممتعًا شديد الأناقة والرشاقة كأن كاتبه تاجر من تجار الصاغة يجيد عملية سبك الكلمات إلى حد ليس له نظير، ونظر إبراهيم نحوي باحتقار شديد، وهاجمني بعنف، واتهمني بالتَّفاهة والهيافة والجهل المقيم. لماذا؟ لأنني أعشق الورداني ككاتب، مع أنه لا يكتب إلا لطبقة السادة وأصحاب الطين!

ولم أفهم وقتئذٍ ماذا يقصد إبراهيم عبد العليم، وظللت على حبي لإبراهيم الورداني، وتبينت بعد ذلك أنني كنت على حق، وكان إبراهيم عبد العليم على خطأ عظيم؛ فليس أسهل من العثور على مثقفين، ولكن ما أصعب الحصول على فنانين، وإذا كان لديك عشرة مثقفين فمن الصعب أن تجعل من أحدهم فنانًا، ولكن لو كان لديك فنان واحد وجاهل، فما أسهل عملية تحويل هذا الفنان الجاهل إلى فنان مثقف وملتزم وعظيم!

ولقد ظلَّت العلاقة بيني وبين إبراهيم عبد العليم كعلاقة القط والفأر، ولكن صداقتنا ظلَّت قائمة من بعيد، حتى جاء يوم زارني فيه في الجريدة وانهال على رأسي بكلمات التَّفاهة والهيافة ولماذا هذه المرة؟ لأنني أصبحت عضوًا في حزب فتحي الرملي الجديد. وشرحت لإبراهيم الأمر، وكيف أن انضمامي إليه لا يتعدَّى دفع ٢٥ قرشًا وصورة ليس إلا! وقال إبراهيم: إذَن هاتِ صورتك. ولم أسأل لماذا ولكني أعطيتها له، إلى هذا الحد أصبحت صورتي مهمة؟ وبعد أسبوع كانت صورتي منشورة في إحدى المجلات على أنني أحد أعضاء حزب التحرُّر الوطني!

وهكذا مرَّة واحدة أصبحت الأحزاب تتقاتل من أجلي وتتنافس في سبيل الحصول على صورة العبد لله! ونفس الشيء الذي حدث من إبراهيم عبد العليم حدث من فتحي الرملي، جاءني إلى الجريدة وعاتبني على انضمامي لهذا الحزب المنافس، وقلت له ما جرى بيني وبين إبراهيم بالحرف الواحد، وانصرف فتحي لأكتشف بعد أسبوع أن كل ما دار بيني وبينه قد أصبح مادة في جريدة المعارضة، وتكذيب بالبنط العريض لِمَا أُشِيع عن انضمامي إلى حزب التحرُّر الوطني، ثم تأكيد لشعب مصر بأنني ما زلت في حزب المعارضة وأنني ما زلت على العهد مقيمًا؟! تمثيلية ما كان أصلحَها على خشبة المسرح الكوميدي لولا أن المسرح الكوميدي لم يكُن قد ظهر بعد! ولكنها حادثة كان لا بد من ذِكرها قبل أن نمضي معًا في رحلتي مع عبد الناصر إلى الريف.

كان عبد الناصر يرتدي الملابس العسكرية، وكانت هذه أولى رحلاته في ريف مصر، ولقد لاحظت عليه خلال الرحلة أشياء لم ألحظها في أحد غيره من قبل.

عندما كنا نجلس على مائدة الطعام، كان يسأل أولًا أين الصحفيون؟ وعندما يطمئن إلى وجودنا على المائدة يسأل: هل قُدِّم الطعام للسواقين؟ ثم يسأل نفس السؤال بالنسبة لرجال البوليس المُخصَّصين للحراسة، وعندما يطمئن إلى أن الجميع قد تناولوا الطعام يبدأ هو الآخَر في تناول طعامه.

وفي دسوق حدث لنا حادث غريب، جاء مدير المديرية في الصباح وصافَحَنا — نحن الصحفيين — بحرارة، ثم جاء معنا لتناول طعام الإفطار، ولقد كانت المائدة حافلة بكل أنواع الطعام، قشطة وبيض ورز معمر وحمام وفطير مشلتت وجبنة قديمة وزبدة وطواجن فول مدمس، وقد نزلت أنا على القشطة والفطير المشلتت كما ينزل وباء على قرية ليس فيها طبيب … وخيبة العبد لله أن نفسي مفتوحة وبطني مريضة على الدوام، حتى في تلك الأيام عندما كنت شابًّا في شرخ الشباب كنت إذا تناولت الطعام في وليمة ظللت أسبوعًا أصرخ من بطني، ولم يدرِ بخلدي أبدًا أنني مريض … ولو أنني تداركت الأمر من البداية فلربما أصبحت الآن في حال غير هذا الحال، ولكني لم أدرك هذا إلا أخيرًا، وبعد أن الْتهبَتْ مصاريني الْتهابًا أبديًّا لا دواء له ولا خلاص منه ولا فائدة تُرجى فيه!

وقمنا من الإفطار إلى بعض الزيارات الرسمية، ومن هناك إلى جامع سيدي إبراهيم الدسوقي لحضور صلاة الجمعة، وعندما دخل عبد الناصر ومَن معه إلى الجامع، تصدَّى مدير المديرية لنا نحن الصحفيين بالذات ومنعنا من الدخول … ولما احتجَّ أحدنا على هذا الإجراء رفع الرجل المخبول عصاه وانهال بها ضربًا علينا، ورحنا نجري في كل اتجاه. وهكذا صدرت الصحف الأربع اليومية الكبرى في الصباح وفيها وصف تفصيلي لرحلة قادة الثورة في دسوق، وأجمعت الصحف الأربعة على أن السيد دسوقي عبد السميع مدير المديرية كان في استقبال وفي وداع الجميع … ولم يكُن المدير اسمه دسوقي عبد السميع، ولذلك جاء يجري مهرولًا في الصباح الباكر إلى استراحة الري حيث كنا نقيم … وبدا لنا خلال حديثه معنا أنه يعاني غيظًا شديدًا نحونا، والسبب أننا كنا تجاهلناه في اليوم السابق فلم نذكر اسمه ولم نُشِر إلى وجوده … وأدركت عندئذٍ كم هي قوية الصحافة وكم هي ضعيفة أمامها أجهزة الإدارة والحكم، من أجل أننا تجاهلناه كاد يموت غيظًا، ومن أجل أننا لخبطنا اسمه جاء يعتذر ويبكي!

وتركتُ دسوق إلى مدينة أخرى … وفي ساحة الاحتفال جاءني رجل مُعمَّم وصافحني باحترام شديد رغم أنه في سن والدي، وقدَّم نفسه على أنه مراسل جريدة القاهرة في الأقاليم، ثم وقف فجأة وخبطني قصيدة عصماء في وصف صفاتي النبيلة، وكلها لا تخرج عن دائرة الحكيم والعليم والأمير والكاتب النحرير وكل المدى بشلاضم الشرشير!

لا بد أنه ألقاها من قبلُ في وصف عشراتٍ من الناس في مناسبات سابقة! وفجأةً راح يقدِّم لي صفًّا طويلًا من الناس، حضرة العمدة وولده، الشيخ فرَّاج وأبناء عمومته، الحاج وهدان وابن خاله، الوجيه عبد الشكور وعائلته ... وصافحتُ الجميع باحترام، فقد ظننتُ لخبلي أنهم جاءوا خِصِّيصَى لمقابلتي! ... وفجأةً سحب من جيبه كشفًا وأعطاني إياه ... وقال وهو يسيل عذوبة ورقة: أنا اشتغلت عشان إنت ما تِتْعِبش نَفْسك. الوصف وكل شيء على ما يُرام، إنت تبعت الرسالة بس ... في الوصف إياه ... وكان عن وصول قادة الثورة للمدينة ... مجرد سطر واحد ... ثم ... وكان في استقبالهم حضرات الحاج وهدان وعائلته والشيخ فرَّاج وأهل بيته، والوجيه عبد الشكور وابن خاله. كشف بأسماء العمد والأعيان في الناحية، وهذا الكشف مجرد إعلان مدفوع الأجر للمراسل إياه، ويبدو أنه توسَّم في العبد لله الغفلة والسذاجة فخبطني القصيدة إياها وتوكل على الله! وطويت الكشف ووعدته خيرًا.

انتهى الحفل في المساء واستعَدَّ الجميع لمغادرة المدينة إلى مدينة أخرى، وهرع الجميع نحو السيارات التي كانت تنتظر على جانب الطريق وانحشرت مع الصحفيين في سيارة صغيرة سوداء، وعندما تحركت بنا السيارة مُخترِقةً الساحة لمحتُ الشيخ المراسل إياه يقف وسط وفد العمد والأعيان وقد فشخ بُقه عن ابتسامة رضا بلهاء، فها هو كشفه المُعَد قد ذهب إلى المحرر، وها هو سيقبض غدًا أجر النشر وسيصبح مبسوطًا شبعان بإذن الله!

وهتفت فجأةً وبلا سابق تدبير أناديه: يا شيخ عبد السلام! وصرخ هو الآخَر كأنه عسكري بلوكات نظام نادى عليه حضرة الأميرالاي الكبير: أفندم! وقلتُ على الفور: خُد يلعن أبوك. وألقيتُ له بالكشف من نافذة السيارة، أمام رهط العمد والأعيان وأهل بيوتهم.

لقد أدركتُ من خلال تلك الرحلة مدى خيبة الصحافة في الأقاليم ... مراسلي الصحف في الريف جميعًا تلك الأيام كانوا مراسلين هواة ... جزمجية وقهوجية وأصحاب دكاكين بقالة ومراسلين لجرائد كبرى ومحترمة في العاصمة، أي سطر فيها كفيل بزلزلة عروش الحاكمين في الريف، ولكن بدلًا من أن تصبح الصحافة في الأقاليم عينًا على الإدارة، أصبحَتْ عينًا لها ... وتحوَّل مراسلو الصحف إلى ذيول للسلطة الحاكمة، مهمتهم الحقيقية التقرب للمدير وللحكمدار ولموظفي البلدية وعساكر البوليس، وأصبحَت كل سهراتهم في بيوت العمد والأعيان والذين يملكون القعدة الطرية واللقمة الهنية ويملكون ما يستطيعون أن يدسوه في يد المراسل النشط ... ومن بين هؤلاء المراسلين مَن استطاع أن يجمع ثروة، ومنهم مَن اقتنى البيوت والأطيان وأصبح من أعيان الريف.

ولقد وصف أحدهم ذات يوم في عام ١٩٥٠ ثورة الفلاحين في بهوت بأنها تمرد من جانب البلطجية واللصوص والمشاغبين ضد حضرة صاحب السمو الملكي ولي العهد المعظم الذي لا يترك مناسبة إلا ويغمر فيها بكرمه وعطفه الفقراء والمعوزين!

أدركت حينئذٍ أن مشكلة الصحافة ينبغي أن تُحَل من هنا، ولو وُجِد في كل عاصمة محافظة صحفي محترف ومحترم، الصحافة عنده رسالة وليست وسيلة لأكل العيش ... لو وُجِد هذا الصِّنف الممتاز من الصحفيين في الريف لانصلحت أحوالٌ كثيرة ولانزاح ظلم كثير ... ولأصبحت رسائل الصحفيين من جوف الريف ذات أهمية كبرى ... ولها الاحترام الواجب والتعظيم.

ولكن أغلب رسائل مراسلي الريف تأخذ طريقها بسهولة إلى سلة المهملات ... حتى الجيد منها والمفيد، ليس إهمالًا من الصحفيين في القاهرة، ولكن لأن مراسلي الريف لم يستطيعوا أن يفرضوا أنفسهم بالموقف المحترم والسلوك الشريف.

ولقد كنت أعرف أحدهم منذ عشرين عامًا يراسل جريدة كبرى ويتنطط طول النهار في قطارات الوجه البحري يبيع للمسافرين الروائح العطرية والدهانات التي تعيد الشباب للشيخ السقيم! وأحدهم كان عضوًا في أخطر عصابة عرفها الصعيد، وأحدهم كانت مهمته الوحيدة إضحاك سعادة المدير بأن يقف وسط أي حفلة يحضرها المدير ويلزق نفسه على قفاه ويصرخ كالطفل ويتشقلب كالقرد الظريف!

رحلة ممتعة خرجتُ منها بدروس عديدة ... وخرجتُ منها بصداقة رجل فلاح من ريف مصر العظيم ... فلاح اسمه محمد الجمال ... احترف التدريس فترة في المدارس الإلزامية ثم احترف السياسة واستطاع في فترة قليلة أن يصل إلى قمة جهاز سياسي كان له شأن كبير في مصر في فترة من الزمان هو المؤتمر التعاوني العام، ولقد استطاع محمد الجمال أن يصل إلى سكرتارية هذا المؤتمر بفضل كفاحه وتعبه الشديد، ولكن الشِّلَل ضربَتْه ضربة قاصمة، والمخابرات العامة أفسدت حياته وأبعدَته عنوةً من ميدان التعاون ليحتل مكانه بعض الإمعات الذين كانوا أقارب لبعض السادة في إدارة المخابرات، مع أن محمد الجمال كان من أول مَن آمنوا بثورة عبد الناصر في أول يوم من قيامها، ولقد اندفع في تيار الثورة بعنف، وسبح في بحرها بمهارة، كان يحب عبد الناصر إلى درجة الجنون، ويقدِّس اسمه إلى درجة أنه كان يقسم به، ولكن مَن قال إن الذين كانوا يحبون عبد الناصر كانوا يشقون طريقهم بسهولة؟ مَن قال إن تلاميذ عبد الناصر المخلصين كانت لهم الولاية على الأمر؟ لقد اصطادت مراكز القوى معظمهم، وضربت أكثرهم بلا هوادة، وكان محمد الجمال عنوانًا على هذا الطراز من الرجال المخلصين.

١٥

وكما ورقة شجرة هشَّة تتقاذفها الريح هكذا كنت أنا في مطلع عام ١٩٥٤، والثورة لم يتبلور اتجاهها بعد، ولم تكشف عن هويتها بعد، والأحزاب القديمة لا تزال في عنفوانها ولكنها تبدو على السطح هامدة في انتظار فرصة، وبينما كانت الأحزاب القديمة تعرف اتجاهها بدقة، كانت الثورة تبدو مضطربة، فهي أحيانًا حركة، وهي نهضة، وهي ثورة! وهيئة التحرير التي كان شعارها «كلنا هيئة التحرير» لم تستطع أن تنفذ إلى صفوف الشعب، ولم تستطع أن تجعل ولو «بعضنا هيئة التحرير» وظلَّ تنظيم الثورة مجرَّد بناء ولكن بلا روح!

ولذلك ما إنْ تفجَّرَت أزمة مارس عام ١٩٥٤ حتى هاج الشارع كله ضد السلطة، وكم كان غريبًا حقًّا أن يتحالف أقصى اليمين مع أقصى اليسار في سبيل تحقيق هذا الهدف.

ولقد أخطأ الشيوعيون خطأهم التاريخي الثاني خلال تلك الأزمة، وكان خطؤهم الأول في عام ١٩٤٨ حين دعوا إلى قبول تقسيم فلسطين؛ لأن المشكلة الأساسية في اعتقادهم كانت في الداخل! ولقد هاجموا حرب فلسطين باعتبارها مؤامرة لصرف الأنظار عن فساد النظام الرأسمالي، ولقتل زهرة شباب الأمة في حرب ليس من ورائها أي طائل!

وكان خطؤهم الثاني حين تحالفوا مع أقصى اليمين للإطاحة بالثورة، ووزعوا منشورات دعوا فيها الشارع إلى ضرب السلطة باعتبارها عميلة للإمبريالية الأمريكية، ولكن هكذا هم الشيوعيون دائمًا سيظلون يخطئون الحساب رغم نواياهم الطيبة ... وسيبقون دائمًا في معزل عن الجماهير؛ لأنهم لا يحسنون بالضبط تحسُّس رغباتها! ولأنهم يعيشون في سطور الكتب ولا يعيشون في حركة الناس، ولأنهم يطبِّقون نظريات محفوظة على واقع ليس له علاقة بهذه النظريات!

ولكن أين كان العبد لله تلك اللحظات التاريخية من عمر الوطن؟ لم أكُن مع السلطة، كنت مجرَّد متفرِّج لا يعي بالضبط ما يدور حوله، شيء واحد فقط شككني في الحلف الذي انبثق ضد الثورة ... هو أن الجميع سارعوا إلى دخول الحلف ما عدا مصطفى النحاس، ولم يصدر بيانًا ولم يفتح فمه بكلمة، صحيح أن قطاعات كثيرة من الوفد تحركت، ولكن مصطفى النحاس لم يتحرك، لعله كان يدرك بغريزته الطيبة أنها حركة حق يُراد بها باطل، وبقدر ما كانت تلك الأيام عصيبة ... بقدر ما كانت مفيدة، فقد كشفت نوايا كثيرة كانت مستترة! وأظهرت أطماعًا كانت مختفية، وتحولت الديمقراطية إلى علم يختفي تحته كثير من المصالح الطبقية والأطماع الشخصية.

ولكن جماهير العمال حسمت الموقف في النهاية لمصلحة الثورة، وأمام محكمة الثورة وقف عشرات من رجال الأحزاب القديمة وبعضهم يستغفر، وبدا هؤلاء الآلهة الصغار كدُمى أطفال، لا إيمان بشيء، ولا استعداد للدفاع عن معتقداتهم.

ولقد دُعيتُ للشهادة أمام محكمة الثورة ولكني رفضت بشدة، والسبب أن المتهم كان صاحب جريدة عملت معه فترة قصيرة في بداية الثورة ثم تركتُ العمل معه في منتصف عام ١٩٥٣ وذهبت للعمل كمحرِّر في جريدة القاهرة، ولقد خاض الرجل عدة معارك ضد حزب الوفد وضد أحزاب الأقلية ولكنه كان يحيط نفسه ببطانة سيئة جرَّت عليه المتاعب وجلبت له المصائب، ولأنه كان متهمًّا بالخيانة العظمى وأنا لا أشهد على خائن إلا إذا كنت متأكدًا من خيانته، وأيضًا ... لأن الذي دعاني إلى الشهادة ضده كان صحفيًّا مشبوهًا يستحق السجن المؤبد بسبب جرائمه الوطنية!

وقد حضر إليَّ ذات مساء في جريدة القاهرة وحرضني على الذهاب للشهادة ضد الرجل الذي عملنا معه فترة من الزمن، وراح يغريني بوعود هايفة، فلمَّا التزمت جانب الرفض طلب مني أن أذهب إلى النيابة لأنها تطلبني، ولكني لم أذهب حتى استدعتني النيابة رسميًّا، ولقد كنت تلك الأيام أعمل مندوبًا للجريدة في محكمة الثورة، وكانت النيابة في مبنى المحكمة فذهبت إليها والتقيت بأحد أفرادها، وحكيت للرجل كل ما كان يدور في الجريدة خلال فترة عملي هناك، وحكيت له بصدق ولم أخفِ شيئًا، ولكنه سألني سؤالًا مباشرًا عن واقعة الخيانة فنفيت له علمي بشيء مثل هذا، ولو أنني كنت أعلم وسكت، فأنا خائن أيضًا.

وكفَّ وكيل النيابة عن سؤالي وطوى أوراقه ولم يكتب حرفًا، وانصرفت من مكتبه في سلام فقد استغنت النيابة عن شهادتي، وعلمت بعد ذلك أن أربعة فقط من المحررين

قد شهدوا ضد الرجل في واقعة الخيانة، أما الآخرون فقد امتنعوا عن الشهادة مثلي، ولم يكُن هذا موقفًا منهم لإخفاء الحقيقة، ولكن لأنهم فعلًا لم يكونوا يعلمون شيئًا! وسارت القضية في طريقها العادي وقضت المحكمة بسجن المتهم وأسفت المحكمة في الوقت نفسه للموقف المزري لبعض المحررين.

وكان اسم العبد لله في قائمة المحررين الذين وضعوا أنفسهم في الموقف المزري، وطالبت المحكمة بإحالة أمر هؤلاء المحررين إلى نقابة الصحفيين، ولكن أغلب هؤلاء المحررين لم يكونوا أعضاء في النقابة ... وكنت أنا واحدًا منهم، ولقد كانت القائمة تضم عددًا من الشباب الذين تتفق مصالحهم مع مصلحة الثورة، ولكن الثورة في بداية الأمر لم تكُن تهتم بهذا الأسلوب في فرز الناس.

وكانت تعتمد اعتمادًا كليًّا على هذا النفر القليل من الثوار الذين خرجوا ليلة ٢٣ يوليو، ومن هنا جاء أسفها على موقف بعض الشبان الذين كانوا يقفون في الواقع في صف الثورة ويحملون سلاحها، وبدلًا من احتضانهم ... حكمت الثورة ضدهم، وأغلبهم صحفيون واعون وفنانون بحق، الشاعر كمال النجمي والشاعر محمد الفيتوري وإبراهيم البعثي والأمير المليجي ويوسف فكري والعبد لله.

أغرب من هذا أن القائمة ضمَّت رجلًا لم يكُن يومًا ما على علاقة بالمتهم ولا بالجريدة التي كان يصدرها ... هو الفنان عبد الرحمن الخميسي، وكان لهذا الحكم على نفسي وقع الصاعقة، وقضيت عدة أيام هائمًا على وجهي في شوارع القاهرة، وخُيِّل إليَّ أن هذا الحكم بمثابة حكم بالإعدام على مستقبلي الصحفي، يا للأيام السود التي عشتها بعد صدور هذا الحكم حتى كدت أعتزل العمل الصحفي وأتوارى في عمل آخَر في الظلام! ولكن الأيام مضت بي بعد ذلك ولم يلحق بي أي أذى، بل إن أحدًا لم يلفت حتى نظري لا من المسئولين في النقابة ولا من المسئولين في الجريدة، وعندما فُصِلت من عملي في جريدة القاهرة أخذت طريقي بسهولة إلى مجلة التحرير — مجلة الثورة — دون أن يعترض أحد، ولم أدخلها كمحرِّر عادي إلا لمدة أسبوعين ثم أصبحت مديرًا لتحريرها فترة طويلة من الزمن، ولكني قبل أن أترك جريدة القاهرة أتيح لي فترة من الوقت كافية لأنشر على الناس دراسة عن النكتة المصرية وظرفاء مصر منذ عبد الله النديم إلى كامل الشناوي.

واكتشفت أن أغلب هؤلاء الظرفاء اشتغلوا بالسياسة، وكانت النكتة سلاحًا من أسلحتهم، واكتشفت أيضًا أنهم كانوا زعماء جماهيريين بحق لأنهم دخلوا مزاج الناس من خلال الكلمة الضاحكة واللفتة الذكية والنكتة الحلوة.

ولقد قادتني هذه الدراسة إلى حقيقة باهرة، هي أن الذين يتصدون لقيادة الشعب المصري ينبغي أن يعرفوه حق المعرفة، وأن الذي يتصدى لهذه القيادة ينبغي أن يخاطب الشعب المصري باللغة التي يجيد فهمها، ولا يمكن قيادة شعب مثل شعبنا بالكلمات المرصوصة والنصوص المحفوظة، ولعل هذا هو السر في غياب الشيوعيين عن مجلس قيادة الشعب المصري في مختلف مراحل كفاحه منذ عام ١٩٢٤ حتى يومنا هذا، ولعل هذا السر هو الذي جعل الجماهير تهب لحرق مقر الحزب الشيوعي في عام ١٩٢٤ بينما كان زعماؤه يزعمون أن الشعب يمشي خلفهم، لعله كان يمشي خلفهم ليؤدبهم لأنهم كانوا — ولا يزالون — يتناولون الأشياء بطريقة تخالف الطريقة التي يتناولها بها شعبنا.

ولقد أتيح لي أن أنشر دراسة عن فن قراءة القرآن منذ عمنا الشيخ أحمد ندا إلى عمنا الشيخ مصطفى إسماعيل، ولقد استقيت معظم معلوماتي عن قرَّاء الجيل الماضي من المرحوم الشيخ محمد الصيفي، وكان الرجل عالِمًا في هذا المجال بحق، وأيضًا من رجل أديب وظريف هو المرحوم مصطفى حمام، وكان حمام صحفيًّا يهوى الشعر، وشاعرًا يهوى الصحافة، وكان محدثًا بارع الحديث حلو النكتة راوية للشعر القديم، وكان ذا صوت حسن يقلِّد به مشاهير القرَّاء، الشيخ الفيشاوي والشيخ القهاوي والشيخ منصور بدار، وكان يبدو وهو يقرأ معجبًا بنفسه على نحو ما، كان يصيح عقب كل قراءة مهللًا: يا سلام! الله أكبر! صلِّ على النبي كده واشرع! ولكني لاحظت اختلافًا جوهريًّا بين رواية الشيخ الصيفي ورواية حمام … والسبب أن الصيفي، كان ينظر إلى الموضوع من زاوية دينية، بينما كان حمام ينظر إليه من زاوية فنية، ولقد استفدتُ بحق من وجهتَي النظر المختلفتين، كما أنني اعتمدت على نفسي في دراسة قرَّاء القرآن الكريم من أبناء هذا الجيل ولقد كنت — وما زلت — أعتقد أن الشيخ مصطفى إسماعيل فلتة من فلتات هذا الفن، وأعتقد أنه لن يكون له مثيل من بين القرَّاء في المستقبل القريب.

ولقد أحببت الشيخ مصطفى وسرحت خلفه في كل مكان، من جامع إلى مأتم، ومن سهرة إلى مولد، وذات مولد وكان في بولاق ذهبت خلف الشيخ مصطفى إسماعيل، واقتحمت المسجد مع شلة من الأصدقاء، وجلست بجوار الدكة التي يجلس عليها الشيخ مصطفى، ولم يكُن المسجد مزدحمًا؛ فقد كان الوقت عصرًا وجموع المريدين لم تحضر بعدُ، وبدأ المسجد يزدحم، والحلقة تضيق حولنا حتى لم يعُد هناك مكان لقدم، وعندما حانت صلاة المغرب، هب الجميع ونحن معهم فأدينا الصلاة ثم عُدنا إلى أماكننا في انتظار قدوم الشيخ ولكن مرَّ الوقت والشيخ لم يحضر … وفجأة هب أحد الحاضرين واقفًا وصرخ بشدة وهو يصفق بيديه: الله حي، الله حي!

ولم يلبث أن هبَّ الجميع وقوفًا صارخين مثله، فقد بدأت حلقة الذكر، وبدلًا من أن نستمع إلى الشيخ مصطفى إسماعيل وجدنا أنفسنا رغمًا عنا وقوفًا وسط الحلقة، نتمايل في حركات منتظمة ونصفِّق على الواحدة كأننا جميعًا ضباط إيقاع، حركات غريبة لم نتوقعها ومصير لم يكُن في الحسبان! وحانت مني الْتِفاتة إلى أحد أفراد الشلة فإذا به يضحك ... ولم أستطع أن أغالب الضحك فانفجرت ضاحكًا أنا الآخَر.

وامتدت عدوى الضحك إلى كل الشلة فانفجر الجميع ضاحكين وفورًا امتدت ألف يد تصافح أقفيتنا، ثم امتدت ألف برطوشة نحونا واختلط الناس، لا أحد يعرف بالضبط مَن الذي ينبغي أن يُضرَب ... فضرب الناس بعضهم بعضًا، جنون ينتاب الجماهير المحتشدة عندما يثور بينها حادث مفاجئ لم يكُن أحد يتوقعه.

واستطعنا وسط الفوضى أن نشق لأنفسنا طريقًا نحو الخارج، ولكن بلا أحذية، وخرجنا نرمح في الشارع مجموعة أفندية حفاة نطلب الأمان بعيدًا عن بطش الجماهير، وأقسمت من يومها ألا أذهب خلف الشيخ مصطفى إسماعيل ... واكتفيت بإشباع هوايتي في الراديو وفي المآتم المحترمة حيث الاحتمال بسيط في أن تثور فجأة عاركة بالبراطيش!

ولقد استمعت إلى الشيخ عبد الباسط عبد الصمد في أول عهده بالقاهرة، وقد استقبلته بفتور، وخُيِّل إليَّ أنه سيلمع فترة ثم لا يلبث أن يزول، ولكن الشيخ عبد الباسط فرضَ نفسه فرضًا بعد ذلك، حتى استطاع أن يحتلَّ في نفسي المكان الثاني بعد الشيخ مصطفى إسماعيل، وهناك من القرَّاء الذين لم يحققوا شهرة عريضة مَن يحتل مكانة سامية في نفسي من هؤلاء المرحوم الشيخ محمد فريد السنديوني، الذي مات شابًّا بعد أن اعتزل القراءة وافتتح لنفسه مقهى في حي شبرا يستقبل فيه المعجبين، ولم أزَل حتى هذه اللحظة أبكي كلما استمعت إليه.

ولا يوجد بين قرَّاء القرآن الكريم مَن ينزف صوته دمًا مثل صوت الشيخ السنديوني العظيم، والشيخ محمود عبد الحكم، ولا أدري لماذا لم يأخذ حظه من الشهرة ... رغم أن صوته كان ينبغي أن يتيح له هذا الصيت العريض!

ولكن الشيخ محمد رفعت ظلَّ له المكان الأول في نفسي رغم كل شيء ... ربما كان السبب هو أنه كان أول مَن استمعتُ إليه في صباي، حين كان يسحبني أحد أقاربي إلى قهوة في شارع أبو السباع ليدخن الشيشة ويستمع إلى الشيخ رفعت طول السهرة، ولقد تعرَّفت إلى الشيخ رفعت بعد ذلك ولكن لفترة قصيرة، لم يلبث بعدها أن مرض ثم مات يرحمه الرحمن الرحيم.

ولقد أتيح لي أيضًا أن أنشر في جريدة القاهرة مجموعة قصص مصرية قصيرة، كانت من خير ما أنتجتُ في حياتي كلها، ولقد ظهرت في تلك الفترة التي كانت فيها القصة المصرية مزدهرة وباهرة ... وجاءت عقب قصص زكريا الحجاوي القصيرة التي كانت هي الكوبري بين القديم والجديد ... ولا أدري لماذا توقَّف زكريا الحجاوي رغم أن بدايته كانت عملاقة وكانت تبشِّر بخير كثير، ولكنها على أية حال كانت بداية الطريق الذي ظهر عليه يوسف إدريس.

ولقد أُصبت بما يشبه الدوار عند قراءتي لقصص زكريا الحجاوي، ثم أُصبت بالذهول عند قراءتي لقصص يوسف إدريس، وكان إحساسي الحقيقي تجاه هذه القصص أنني أكتب كلامًا مثل هذا ولكني أخشى نشره، ولكن قصص يوسف إدريس القصيرة كانت خير مشجع لي على نشر ما عندي من قصص، فقد فتح هو الطريق.

ولو قُدِّر للقصَّاص في مصر أن يأكل عيشه من إنتاجه، ولو تفرغ زكريا الحجاوي ويوسف إدريس وبعض كتَّاب القصة القصيرة الذين ظهروا في الخمسينيات لكتابة القصة فلربما كان لدينا الآن إنتاج قصصي عظيم.

ولكن أعظم كتَّاب القصة القصيرة هجروها الآن إلى مجالات أخرى في الأدب والفن، ولم يبقَ في الساحة إلا نجيب محفوظ رغم أن هوايته الأولى هي الرواية، ولكن قبل يوسف وزكريا جذبَ انتباهي بشدةٍ إحسان عبد القدوس في مجموعته: بائع الحب وصانع الحب. كما أدهشني كثيرًا إبراهيم الورداني في مجموعته: نحن بشر. كذلك كان إحساسي مع قصص يوسف غراب ويحيى حقي ومحمود تيمور وطاهر لاشين.

ولقد كان النقاد في وادٍ بعيد عن الأدباء الشبان ولولا تشجيع المرحوم أنور المعداوي والدكتور عبد القادر القط لتوقفت تمامًا بعد أول قصة ... بل إن الدكتور القط كتب عني فصلًا كاملًا في كتاب له، وقد حفزني هذا على الاستمرار في الطريق، وما أكثر الذين مدحوني شفاهة ولكن ما أقلَّ هؤلاء الذين أبدوا رأيهم تحريرًا في إنتاجي!

ولقد كتب لي يوسف السباعي مقدمة مجموعة قصصي الثانية «جنة رضوان» وهو عنوان القصة التي وصفها الدكتور علي الراعي شفاهة ذات يوم بأنها أعظم قصة مصرية قرأها في حياته، ثم لحس هذا الرأس بعد ذلك وناصَبَني العداء لخلافٍ بينه وبين الخميسي لم أكُن أنا طرفًا فيه!

أمَّا السبب الذي جعل يوسف السباعي يكتب مقدمة مجموعة جنة رضوان فهو سبب يستحق أن يُروى، وهو سبب جعلني أؤمن بأن الجو الأدبي في مصر هو مجرد غابة، وإنك لكي تضمن لإنتاجك أن يظهر وأن ينمو فلا بد أن تكون من أقوى الوحوش.

ولقد بدأت القصة حين أبلغني يوسف السباعي أن الأستاذ توفيق الحكيم ذكرني في معرض الحديث عن الأدباء الشبان وأنه أبدى استعداده لأن يكتب لي مقدمة مجموعتي الجديدة ... وطلب مني يوسف السباعي أن أذهب لمقابلة توفيق الحكيم.

وحين ذهبت مسرورًا إلى دار الكتب لمقابلة الأديب العظيم ... وفي أول لقاء معه أعاد ما سبق أن قاله لي يوسف السباعي، وطلب مني إحضار أصول المجموعة الجديدة لكي يكتب رأيه فيها ... وخرجت من دار الكتب تكاد الأرض لا تحملني، ويكاد الفضاء أن يضيق بي!

ولم أتكتَّم الخبر بل نشرته في كل مكان وذكرته لكلِّ مَن قابلني. وبعد أيام حملت أصول الكتاب إلى دار الكتب، ووضعت القصص بين يدي توفيق الحكيم، ولم أكُن أدري أنه خلال تلك الأيام التي فصلت بين لقائي الأول ولقائي الثاني، حدثت أشياء أقل ما توصف بها أنها عجيبة وغريبة ورهيبة، وليس لها مثيل.

١٦

عندما جلست أمام توفيق الحكيم في مكتبه بدار الكتب بعد أسبوع من لقائي الأول أدركتُ أن شيئًا ما قد حدث، ولكن لم أستطِع إدراك هذا الشيء على وجه التحديد، ولكنه اعتذر بأنه لم يقرأ قصص المجموعة الثانية وطلب مني في النهاية أن أمهله حتى شهر رمضان ... حيث الوقت متسع للقراءة والكتابة على حدٍّ سواء، وهز توفيق الحكيم رأسه وقال بطريقته المعروفة: «إيه رأيك بقى؟» ووافقته بالطبع، ولكني لم أنقطع عن زيارته حتى جاء رمضان، ومضى رمضان أيضًا وأنا مواظب على الزيارة وهو مواظب على الاعتذار.

وبعد ثلاثة أشهر كاملة أدركت أن توفيق الحكيم لن يكتب المقدمة، والحق أنني حزنت وتألَّمتُ بشدة، والسبب أنني كنت في صباي المبكِّر أحب طه حسين وأفضِّله على توفيق الحكيم، ولكني الْتَقيتُ في مطلع شبابي بطبيب مثقف أوصاني بقراءة توفيق الحكيم، لأنني «سأجد مصر بين السطور وسأشم رائحة الأرض الطيبة ممتزجة برائحة الحبر الذي كُتِبَت به الكلمات.»

وقرأت عودة الروح في البداية ولكنها لم تهزني بعنف، ولكن عند قراءتي ليوميات نائب في الأرياف انتابتني حالة غريبة من القلق والنشوة والإمتاع الفني غمر كياني كله وجعلني ساهرًا حتى الصباح دون أن أشعر بحاجة إلى النوم، ورحت ألتهمُ توفيق الحكيم كمفجوع وجدَ نفْسَه فجأة على مائدة عامرة بأطايب الطعام، وكان توفيق الحكيم هو البداية التي دخلت منها إلى ساحة الفن المصري العظيم، وهي التي قادتني إلى هذا النفر العظيم من الفنانين المصريين: إبراهيم عبد القادر المازني وزكي مبارك وبيرم التونسي العظيم.

ولقد تصورت أن مقدِّمةً يكتبها توفيق الحكيم لمجموعة من قصص سوف تدفعني عدة أميال في هذا الطريق، وستكون شهادة ميلاد لي كقصَّاص جديد.

ولكن لماذا اعتذر توفيق الحكيم عن كتابة المقدِّمة؟! لذلك قصة، وهي قصة لم يروِها توفيق الحكيم، ولكن الذي رواها واحد من أقرب أصدقائه وأكثرهم اطلاعًا على حقيقة ما يدور عند توفيق الحكيم ... الذي حدث أن بعض الأدباء الشبَّان ذهبوا إلى توفيق الحكيم وعاتبوه على اختيار مجموعتي لكتابة مقدِّمة لها ورطنوا أمامه برطانة أعجمية فهم منها الحكيم الذكي الحذِر الشديد الحرص على ألا يقحم نفسه في مهاترات من أي نوع لكي يقضي رحلة حياته العظيمة الطويلة بإذن الله قارئًا وكاتبًا ولا شيء غير ذلك.

ولذلك حزنت حزنًا شديدة عندما اعتذر، ومَن يدري؟ ربما لو كتب توفيق الحكيم المقدمة لتفرَّغتُ لكتابة القصة وربما كنت اليوم أحد فرسانها الميامين.

فهم الحكيم أن هناك خلافًا وأن هناك أشياء لا يجوز له أن يخوض فيها على الإطلاق، ولقد واجهت هؤلاء الأدباء بعد ذلك ... بعضهم اعترف وبكى.

وبعضهم اعترف واعتذر بأنهم كانوا في حالة نفسية شديدة السوء!

على أي حال، لقد طبعت هذه المجموعة «جنة رضوان» في الكتاب الذهبي حيث طلب مني يوسف السباعي أن أسلِّم أصول الكتاب إلى إحسان عبد القدوس، وكانت صلتي بإحسان مجرد صلة قارئ بكاتب، وكنت أنا القارئ على كل حال، وأيضًا صلة زميل صغير بزميل أكبر، ولكني اكتشفت عند لقائي به أنه قرأ مجموعتي الأولى «السماء السوداء» وأنه معجب بها على نحو ما، ولم أكُن أنا أدرك حتى هذه اللحظة أن ما أكتبه يستحق اهتمام أحد من الكتاب الكبار.

وربطتني هذه المقابلة بإحسان، فقد عاملني بود، واحتفل بي بصدق.

وسرعان ما دارت ماكينات الطباعة، وصدر الكتاب في السوق، وسحبني يوسف السباعي بعد صدور الكتاب بأسبوع إلى دار روز اليوسف لمقابلة الست، وكان هذا هو لقب السيدة روز اليوسف يرحمها الله، وذهبت مع يوسف السباعي في بدلة جديدة، شامخ الأنف ثابت الخُطا، فقد تصورت نفسي أحد كبار الكتاب في هذا العصر والأوان. وعندما اقتحمنا الغرفة اكتشفت بأن الست ليست وحدها، وأنها تراجع بروفات المجلة ومعها عدد من المحرِّرين والعمال.

وصافحتني بدون احتفال وقالت ليوسف السباعي: «مين ده راخر؟» ورد يوسف في خوف: دا محمود السعدني. وقالت بعصبية: لأ خلاص مش هنطلع كتب تاني بقى، كفاية بقى، كفاية بقى، كتب الشبَّان دول مالهاش سوق، كفاية خسارة!

وقال يوسف ما احنا لازم نشجع الشبَّان برضه، ولكنها ردت في حزم: لأ خلاص أنا قلت لا. وقال يوسف السباعي: على كل حال السعدني كتابه طلع خلاص. وقالت الست لتنهي المناقشة: خلاص، خلِّيه يروح يقبض الفلوس. أربعين جنيه، مفهوم.

وانتابتني حالة الحماقة التي تنتابني دائمًا كلما واجهت موقفًا من هذا النوع.

وهممت بأن أصرخ في وجهها، ما هذا الذي تفعلينه؟ أنا لست شيَّالًا في محطة مصر، والخلاف بيني وبينك على أجرة مشال من المحطة إلى البيت، أنا كاتب أعطيتك إنتاجًا هو عصير عمري وتجربتي في الحياة، وما ذنبي أنا إذا كان هذا الإنتاج لم يجِد سوقًا، وهل أنا تاجر في سوق العصر؟

ولكن الكلمات ماتت على شفتي، وتراجع يوسف السباعي خارجًا وأنا خلفه. وعلى درجات السلم سألني يوسف: إنت شفت الست قبل كده؟ وأجبت بالنفي، فقال يوسف وهو يضع يده على كتفي، دي طريقتها لكن هيه ست طيبة! وارتاحت نفسي لكلمات يوسف. فهذه الست العظيمة التي أنشأت من العدم دارًا صحفية وكتابًا شهريًّا وصنعت كتَّابًا ومؤلِّفين وأصحاب أقلام من كل نوع ... وابنها من كبار الكتاب، وأي كاتب إذَن هو ابنها مهما كان! مَن أكون أنا في زمرة الكتَّاب؟!

ولم يسعدني الحظ بعد ذلك لمعرفة الست عن قرب، فقد كان هذا لقاؤنا الأول والأخير ... وعندما عملت في دار روز اليوسف كان قد مضى على وفاتها أكثر من عام، ولكن ذكرى هذا اللقاء لم تبرح ذاكرتي قط، ولقد حرصت بعدها على أن أعرف مدى انتشار هذا الكتاب، وأدركت أنها على حق، فلقد كان أعلى رقم بلغه توزيع الكتاب هو عشرين ألف نسخة باعها كتاب الدكتور طه حسين، وأعتقد أنه الطبعة الثانية من «المعذبون في الأرض» وكان ثاني كتاب وُزِّع منذ ثلاثة عشر عامًا هو كتاب «يوم الثلاثاء» لأمين يوسف غراب وقد باع ستة عشر ألف نسخة بينما باع كتابي ثلاثة آلاف نسخة وكذلك كتب كل الكتَّاب الشبان الذين ظهروا في سلسلة الكتاب الذهبي ذلك العام.

ولكن الذنب لم يكُن ذنبنا فلم تكُن الجماهير قد تعرَّفَت علينا بعد، وكانت كل وسائل النشر لا تهتم إلا بجيل الكتاب الكبار المشاهير أصحاب التاريخ الطويل والعريق في الأدب والفن، وكان جيل الشبان في حاجة إلى مَن يقدِّمهم للناس ويتحمَّل الخسارة والتضحيات. ولقد تحمَّلَت السيدة روز اليوسف هذا العبء. وأشهد أنها كانت رائدة في هذا الميدان.

وفي ذلك العام أيضًا تعرفت إلى فنان مصر الأعظم بيرم التونسي. كان يجلس على مقهى في السيدة زينب، يكتب بقلم رصاص كلامًا أشد فتكًا من الرصاص، ولكن هذا

الوطني العظيم والاشتراكي المناضل كان قد تحول خلال السنوات القليلة التي سبقت الثورة فكتب كلامًا يُنشَر في بعض المجلات، يهاجم به حزب الوفد، ولا أدري ما الذي دفع مناضلًا عظيمًا مثل بيرم التونسي إلى هذا العمل الرديء؟ ومع ذلك لم يحطَّ هذا العمل من قيمة الفنان العظيم في نظري.

ولقد كنت معجبًا به إلى درجة الجنون، فهذا الكاتب هو وحده الذي يستحق لقب كاتب الشعب. لأنه ظل يقاتل بقلمه كل القوى التي تعادي الناس إلا في فترات قليلة، وحتى في فترات ضعفه، وتخاذله كانت كلماته في مدح الطغاة تقطر سمًّا ... وما زلت أذكر كلماته التي قالها في أسرة محمد علي ولحَّنَها وغنَّاها رياض السنباطي.

محمد لما شرفها
بعينه المبصرة شافها
كنوز بس اللي يعرفها
ويعرف ينتفع بيها
مزارع جوها دافي
وطولها وعرضها وافي
وليه يمشي ابنها حافي
يمد الإيد ويطويها
وليه القاضي والوالي
يجيبهم بابها العالي
حاكمها من أهاليها

وليس أبلغ من هذه الكلمات في نقد أسرة محمد علي، ومع ذلك شربها الحمير وأذاعوها على أنها قصيدة عصماء في مدحهم، وعندما رأيته كان منظره يوحي بأنه لا يزال في المنفى، ورغم أنه كان خلال الأعوام التي تَلَت قيام الثورة يربح نقودًا كثيرة إلا أنه كان دائم الشكوى، الشكوى من أنه لم يأخذ حقه كما ينبغي، ولأنه أيضًا عندما بدأ يسترد بعض حقه كانت أيام الصحة والشباب قد ولَّت إلى غير رجعة.

ولقد توطَّدت صلتي به إلى أن مات، وحتى الحظ النحس تدخَّل ليفسد عليه آخِر متعة في حياته، فعندما أُبلغ أنه حصل على وسام الفنون من الدرجة الأولى كان المسكين يعاني سكرات الموت، ولعلَّه لم يسمع بالضبط كلمات التهنئة على وجه التحديد، ومع رحيل الليل

رحلت روحه هو الآخَر وفارق دنيانا بعد رحلة عجيبة وغريبة ورهيبة، تجرَّع خلالها المر وتجشَّأ الأسى، وأشهد أنني ما تعلَّمتُ في حياتي من أحد بالقدر الذي تعلَّمتُ به من بيرم ولم يبهرني فنَّان مثله، ولم أتعرَّف بالضبط على جغرافية المجتمع المصري إلا من خلال كلماته.

ولقد كان الدكتور زكي مبارك هو الفنان المصري الثاني الذي بهرني بحق ... وعندما تعرَّفت إليه كان يزحف ببطء نحو القبر ... وكان يجلس في بار صغير في ميدان التوفيقية يشرب خمرًا رخيصًا ويكتب مقالات فريدة في نوعها، إذ يبدأ بموضوع ويتشعَّب إلى ألف موضوع، وينتهي المقال ولا ينتهي الموضوع الذي بدأه.

ولقد كنت أحب زكي مبارك لأكثر من سبب، لفنه في الدرجة الأولى، ولأنه من سنتريس وهي على مرمى رصاصة من مسقط رأسي في المنوفية، وأعتقد أن الدكتور زكي مبارك لم يوفه أحد من النقاد حقه، لم يأخذ مكانه اللائق في الحركة الأدبية المصرية ... ولعل السبب أنه لم يكُن يحتفل بإنتاجه، ولم يكُن يحفل أيضًا بتدعيم الصلات والصداقات مع المسئولين عن الأدب والفن ... ولكن الذي أحزنني حقًّا هو الكشك الذي كان يجلس فيه أيام الصيف في سنتريس على حرف الرياح المنوفي، ولو كنا في دولة عصرية حقًّا لانتهز مجلس قروي سنتريس الفرصة وأحاط الكشك بحديقة ... ولأقام تمثالًا للدكتور زكي مبارك في الحديقة، ولأنشأ متحفًا للدكتور الأديب الفنان ابن سنتريس في الحديقة، ولأقام حفلات موسيقية وأدبية وفنية لأهل سنتريس في هذا الكشك. ولكن الذي حدث عكس ذلك على طول الخط.

هدم مجلس قروي سنتريس الكشك، وزرعوا مكانه قمحًا وبطيخًا! ويبدو أن شعار المجلس القروي القمح قبل الكلمة ... والطحن قبل الفن! هذه العقلية نفسها هي التي جعلت محافظًا سابقًا من محافظي المنوفية — لا أذكر مَن هو على وجه التحديد — يُصدر كُتيِّبًا في عيد المنوفية، تحدث فيه عن مفاخر المنوفية ومجدها، وكان أبرز ما قدَّمَه من مفاخر المنوفية أنها تنتج أعظم أنواع العجول، وأنها أنجبت لمصر ٣٧٤ وكيل وزارة! ونسي المحافظ إياه، أو لعلَّه تعمد أن ينسى أن المنوفية أنجبت زكي مبارك والمرحوم عبد العزيز فهمي وسعد مكاوي وأحمد عبد المعطي حجازي وعبد الرحمن الشرقاوي ... وكل الذي لفت انتباه المحافظ أن المنوفية تُنجب أعظم أنواع العجول ... ووكلاء الوزارة!

ولكن هذه هي حقيقة الأجهزة الرسمية المسئولة عن الفن والأدب من الفنانين الأدباء، هذا الموقف الذي جعل شاعرًا عظيمًا مثل عبد الحميد الديب يُعامَل كمتسوِّل وبائس وفقير لا ينبغي أن نصدر له ديوانًا ولا يصح أن يكون له في تاريخ أدبنا ... تاريخ!

ولو وُجِد عبد الحميد الديب في بلد مثل فرنسا، لتألَّفت باسمه جمعيات وأقيمت ندوات، ولأصبح له مطاعم يرتدي فيها الجرسونات ملابس المتسولين، ويُقدَّم فيها الطعام في صحون من الفخار، ولقامت جمعية للتأليف تحمل اسمه ودار نشر تهتم بمؤلفاته وتدرس ظروف حياته ومن خلالها تدرس ظروف عصره.

وهذا الموقف نفسه هو الذي جعل رجلًا مثل الدكتور إبراهيم ناجي ينام تحت تراب النسيان حتى غنَّت له أم كلثوم أغنية الأطلال، مع إن إبراهيم ناجي شاعر عظيم وصاحب مدرسة وفنان كان له أكبر الأثر على المدرسة الجديدة في الشعر الحديث! وهذا الموقف نفسه هو الذي أدَّى ويؤدي إلى الاحتفال بشاعرة هايفة ليس لشعرها بكسر الشين، ولكن لشعرها بفتح الشين!

وأبرز مثَل على هذا بنت حلوة وبضَّة وبيضة وكالبطة، وكان شعرها سائحًا كالحرير، وجسمها سائحًا كالسمنة، وعقلها سائحًا كلوح ثلج في شهر يونيو، هذه البنت كانت تكتب شعرًا أكثر سيحانًا من عقلها وشعرها وجسمها البض السمين، ومن خلال هذا الشِّعر الهايف استطاعت أن يكون لها معجبون وأن يكون لها شهرة عريضة، وأصبحت صورها وأخبارها مادة ثابتة في الصحف اليومية، مع باب: أين تذهب هذا المساء.

والْتفَّ حولها عشرات الشعراء والكتَّاب والأدباء والصحفيين وصار بيتها ندوة لرجال الأدب والفكر، وصار لها في المجتمع مكانة ومكان.

ولمعَت الست البيضة المعجبانية عدة سنين طويلة، وصار لها أكثر من ديوان وصدر عنها أكثر من دراسة، ولكن شهرتها الأدبية أفلَتْ عندما تسلَّل الشَّعر الأبيض إلى شَعرها الأصفر، وحفر الزمان تجاعيده في جلد وجهها، وذبلت العيون التي كانت تشع نورًا ونارًا تحرق قلوب المعجبين.

وكم من ست معجبانية حدث لها نفس الشيء في مصر، ولو كانت في بلد مثل إنجلترا لوجدت هذه الست فرصتها كموديل تقف زَلْط مَلْط أمام فنان يرسم لوحة، ولكن لأن الأشياء مختلفة ومتشابكة في مصر ... فكل شيء ممكن وكل شيء ماشي وكل شيء عال.

رجل مثل زكي مبارك يذهب إلى النسيان، وست مثل بديعة مصابني تصدر عنها كتب، وعن فلسفتها دراسات!

حقيقة تؤكد أن الموهبة ليست طريق الفن، ولكنَّ هناك طرقًا كثيرة، ولكن أغربها هو الذي حدث لي شخصيًّا، ولقد كان الذي حدث ... أغرب من الخيال!

١٧

أحسست بأنني حصلت على فرصة العمر حين أصبحت مسئولًا عن باب النقد الأدبي في مجلة أسبوعية شهيرة، وشرعت قلمي من أول لحظة لأهاجم الجيل الماضي من الأدباء الذين سبقوني، وكانت أول معاركي مع محمد عبد الحليم عبد الله ... وكان هجومي قاسيًا ومريرًا، وقد أحسست بخجل شديد عندما التقيتُ بمحمد عبد الحليم عبد الله بعد ذلك، فعندما التقيتُ به تجهَّمت بشدة، وتقلَّص جسمي وتركزت نظراتي في عينيه كأنني ثعبان يهم بالْتِهام فريسة، ولكنني حزنت جدًّا وشعرت بالخجل الشديد عندما واجهني عبد الحليم عبد الله بابتسامة، مدَّ يده نحوي في بساطة، وعاتبني في وداعة، ولم أعتذر أنا لعبد الحليم عبد الله، ولكني أحببته، وأمسكت لساني عنه بعد ذلك فلم أهاجمه قط، ولذلك حرصت كل الحرص فيما بعد أن أبتعد عن المشاهير من الناس، لا أحضر اجتماعاتهم، ولا أتزاور معهم، حتى لا يكون بيني وبينهم صداقة، فأنا من النوع الذي تأسره الصداقة وتتحكم في مزاجه العلاقات الشخصية، وأنا شديد الوفاء لكل مَن ساعدوني في بداية حياتي، ولكل مَن قدَّم لي يدًا بيضاء بدَّدَت قليلًا من ظلام الطريق!

ولهذا السبب لم أرد على هجوم مأمون الشناوي حين هاجمني بقسوة شديدة في جريدة يومية منتشرة ... وقضيت أسبوعًا بأكمله أعاني عذاب الحيرة والتردد، ثم قررت في النهاية أن أرد عليه، وكتبت مقالًا شديد القسوة لو نُشِر لعشتُ عمري كله شديد الندم، فعندما قرأت المقال شاب شعر رأسي لهول ما فيه، لم يكُن المقال من كلمات ولكن من سكاكين، وعندما قرأته أكثر من مرَّة هدأت نفسي وبدأتُ أفكر في الموضوع.

لقد كان مأمون الشناوي هو أول مَن مسح على جراحي في بداية حياتي الصحفية، وكان وسط غابة الصحافة كأنه شجرة تفاح تبسط ظلها وثمرها على الحيارى والضائعين، ولذلك حملت مقالي وذهبت إلى كامل الشناوي، وقرأ كامل الشناوي المقال وتعجَّب إلى هذا

الحد تتعاركان معًا وأنت ومأمون الشناوي شقيقان في الحياة، وأنا شقيق مأمون بشهادة الميلاد ... هكذا قال كامل الشناوي وهو يلتقط سماعة التليفون ليتصل بمأمون ... وفعلًا حضر مأمون في بيت كامل الشناوي، وقبَّل رأسي واعتذر ومزَّقتُ المقال وشعرت بارتياح بالِغ.

ولقد عفَّ عليَّ كالطير عدد من كتَّاب الصف العاشر وأمطروني بإنتاجهم الوفير في الأدب والفن، ولكني لم أكُن أحفل بهذا النوع من الأدباء؛ لأن مدح هؤلاء المدعين جريمة، والهجوم عليه جريمة أكبر، ولكن أبرز هؤلاء كان يعمل في شركة كبرى لأعمال الكهرباء، وكان منظره يوحي بأنه قاتل هارب من العدالة، أو صول بوليس في طريقه إلى المعاش! وكان لحظة التقائي به قد انتهى من تأليف كتابه الرابع ورغم ذلك لم يكُن أحد يدري به، ولم يكُن لكتبه وجود إلا في محلات البقالة، ولقد نفذ إلى نفسي من النقطة الضعيفة، فقد حكى لي قصة كفاحه في الحياة، وهي قصة أشبه ما تكون بقصة حياتي، فقد بدأ حياته عاملًا في الشركة، ثم استطاع أن يصل بمجهوده وعرقه وكفاحه إلى منصب مدير مبيعات في الشركة نفسها، ثم يصبح مؤلفًا وله أربعة كتب، وكلها روايات عن الحب والغرام، قصة كفاح مدهشة، ولكن أدبه حقير وفقير وحاجة تسد النفس وتغم الفؤاد، وصاحبته باعتباره رجلًا مكافحًا وليس باعتباره أديبًا من الأدباء.

ولكنه ظلَّ يلحُّ عليَّ أن أكتب عنه كلمة ولكني رفضت بشدة.

كان قد تعرَّف على محرِّر شاب يعمل معي في الصفحة الأدبية، وقد لاحظت شدة إشفاق هذا الشاب على الأديب المزيف، وشدة اهتمامه به وبكتبه على السواء. وذات يوم رأيت في بروفة الصفحة خبرًا عن هذا الأديب فقمت بشطبه، ولكن المحرر الشاب اتهمني بالقسوة، ورجاني أن أترك الخبر لأن عدم نشره سيصيب الأديب إياه بيأس قاتل لا يعرف أحد مداه، وتحت تأثير المحرر الشاب تركت الخبر يمرُّ، ولكن الأخبار بدأت تتكرر، أخبار لا علاقة لها بأدب الأديب إياه، ولكنها أخبار تحوي اسمه والسلام، خبر عن اعتزامه إنتاج فيلم جديد، أو خبر آخَر عن قيامه برحلة في أوروبا، ورغم تأكد هذا الغبي أن الأخبار ليست صحيحة إلا أنه كان يبدي بها اهتمامًا عظيمًا.

وكان يسهر معنا حتى الصباح لكي يحصل على نسخة قبل موعد صدور المجلة بيوم، ولكن أخبار الأديب إياه انقطعت فجأة عن الصفحة، وراح الصحفي الشاب يهاجم الأديب بضراوة، ولم يلفت نظري هذا الانقلاب المفاجئ في علاقة الطرفين، ولكني اكتشفت كلَّ شيء فجأة عندما جاءني الأديب إياه ذات مساء وهو يبكي، وراح يحكي لي كيف أقنعه

الصحفي الشاب بأن في استطاعته أن يحقِّق له الشهرة الأدبية ... ووزعت الصفقة بين الاثنين على أساس أن يدفع الأديب إياه ثمن الشهرة للصحفي الشاب، ودفع الأديب صاغرًا ثمن الشهرة نقودًا وأشياء أخرى عينية، ولكن الصحفي الشاب لم يقنع بعد فترة بالثمن الذي يدفعه الأديب المزعوم، والأديب هو الآخَر لم يعُد قانعًا بالأخبار التي ينشرها عنه الصحفي.

وعندما اختلف الاثنان ظهر المستور، ولقد ذهب الأديب بعد ذلك فلم أرَه أبدًا، غير أني كنت بين الحين والحين أرى مقالات في نقده بقلم بعض «كبار» الكتاب، وأحيانًا أخرى أقرأ أخبارًا عن نشاطه في دنيا الأدب، وكنت أتساءل بيني وبين نفسي، هل تم النشر باتفاق مماثل أم ماذا؟ ولكن يبدو أن المسائل «ماذا» في كثير مما يُنشَر في الصحف والمجلات.

وهكذا بعد عشر سنوات كاملة منذ عام ١٩٤٥ إلى عام ١٩٥٥، كنت قد تأكدت أن الصحافة ستصبح مهنتي من هنا وإلى الأبد، وكنت قد حققت بعض الشهرة لدى القرَّاء وكل الشهرة لدى المشتغلين بالمهنة، ورغم أنني لم أكُن عضوًا بنقابة الصحفيين فإن رأيي كان له وزن في انتخابات النقابة، ولقد خضتُ الانتخابات في النقابة ذات مرَّة ضد جلال الحمامصي واستخدمت لساني في المعركة وأثبتُّ أنه سلاح مارد وجبار، وخضتها مرة أخرى خلف طوغان، ولكن التوفيق لم يحالفه، واكتشفت على ضوء هذه المعركة أنه لا يكفي أن تكون شريفًا وأمينًا وصادقًا لكي ينتخبك الناس، ولكني اكتشفت أن الانتخابات مهنة ينجح فيها الذي يتقنها، ولكن أغرب فصل انتخابي بارد صادفته كان في نقابة الصحفيين أيضًا، ولقد خضت المعركة بكل قواي في صف عبد المنعم الصاوي ضد حسين فهمي، وكنت أعتقد أن عبد المنعم الصاوي دمٌ جديد على النقابة ينبغي تأييده، وأنه وجه جديد وحسن ينبغي الوقوف خلفه إلى ما لا نهاية. وقفنا ندافع عن عبد المنعم الصاوي كالفولاذ، طوغان وسامي الليثي وأنا، ولكن قبل الانتخابات بأيام وقف عبد المنعم الصاوي في صالة نقابة الصحفيين يخطب بحماس، وقد تشابكت يده مع يد حسين فهمي، ونددَّ بالانتهازيين عملاء الاستعمار الذين دفعوه دفعًا لمنافسة زميله وحبيبه حسين فهمي، ثم أعلن في النهاية تنازله عن الترشيح، وهكذا وجدت نفسي فجأة، انتهازيًّا وعميلًا استعماريًّا ... ومَن الذي يتهمني؟ الرجل الذي وقفت خلفه أدعو له بالنصر من كل قلبي، وأبذل دمي من أجله في سبيل الانتصار.

وفي ذلك العام أيضًا، عام ١٩٥٥، قُدِّر لي أن أركب الطائرة لأول مرة وكانت أول رحلة لي إلى الأقصر، وعندما تسلمت التذكرة شعرت أنني تسلمت تصريح دفني ... فقد كانت

الطائرة في نظري هي علامة الموت ولا شيء سواه، المصير الأغبر الأسود الذي سأنتهي إليه، ستصير جثتي بعد لحظة من الطيران طعامًا لسمك النيل، أو طعامًا لدود الأرض ولن يُعثَر لي على أثر وسأذهب قبل الأوان شأن العباقرة والعظماء.

وكان رجل هندي مخبول قد قرأ كفي أيام الحرب العالمية الثانية وقال لي وكأنه يقرأ من كتاب مفتوح: ستحقق كل أمانيك في الحياة، وستصل إلى قمة المجد سريعًا ولكنك ستموت قبل أن تصل إلى الأربعين، وكنت وقتئذٍ في الخامسة عشرة من عمري صبيًّا يتفجَّر غرورًا وطيشًا وعدم اهتمام بملاك الموت.

ولكن عندما بدأت الأيام تزحف بي نحو الأربعين راح خوفي يزداد وفزعي يشتد من النبوءة السوداء التي تنبَّأ بها هنديٌّ معتوه ومدينة الإسكندرية على مرمى مدفع من الألمان ... المهم أنني ركبت الطائرة في الصباح وجاء مكاني إلى جوار رجل عجوز يرتدي ملابسه كاملة وطربوش طويل فوق رأسه وفي يمينه عصا كتلك التي كانت مع سيدنا موسى لداعي هش الغنم ومآرب أخرى.

وعندما حلَّقَت الطائرة في الجو منعتُ نفسي عن الحركة حتى لا تهتز الطائرة فنسقط جميعًا ونموت، وعندما جاءت المضيفة بالشاي رفضتُ تناوله فقد خُيِّل إليَّ أن أي حركة ستجعل الطائرة تميد بنا وننتهي جميعًا في حقل من حقول القمح التي تمتد تحتنا على طول مجرى النيل.

وفجأة ارتفع صوت الميكرفون يعلن لنا أن الطائرة فوق أسيوط، ثم فجأة اهتزت الطائرة بعنف ومالت ثم هبطت كأنها تَهوِي على الأرض، وهتفتُ فجأة وبذعر شديد يا خبر أسود الطيارة حتقع! وانتفض الرجل العجوز صائحًا كأنما لدغته عقرب، وهبَّ واقفًا مزمجرًا وسبَّ ديني ودين أجدادي ثم هبدني بالقلم على وجهي، وخفتُ أن أرد عليه حتى لا تقع بنا الطائرة، فانتقلت إلى مقعد آخَر وظللت مستقرًّا في مكاني كأنني تمثال الكاتب الجالس القرفصاء حتى وصلَت الطائرة بسلام.

ولقد ظلَّت هذه التجربة تملأ نفسي بالرهبة، والخوف والدهشة معًا، فكيف تسنَّى للإنسان أن يخلق مثل هذه الآلة الجبارة التي تحملك كبساط الريح عبر المدن والقرى والحقول وفي متاهات الفضاء الذي ليس له حدود، لتحطَّ بك في مكان آخَر بعيد؟ كيف يمكن للحديد أن يطير فوق الريح؟ أهي حقيقة أم وهم أم حلم يقظة ... لا يزيد؟!

ولقد ركبتُ الطائرة بعد ذلك ألف مرَّة، وركبت طائرات شتى ومن جميع الأحجام والأصناف ... طائرات نفاثة تسابق الصوت، وطائرات نقل جبارة، وطائرات عسكرية،

وطائرات بجناح واحد ومحرك واحد مقطوعة النفس هزيلة الصحة مثل معزة المرحوم غاندي، ولكن خوفي من الطائرة لم يتغير.

وحكمة الله أنني أخاف قبل السفر، ويصيبني صداع قاتل، ولكن الخوف يتلاشى ويزول عندما أجلس في مقعدي وتبدأ محركات الطائرة تدور، يُخيَّل إليَّ أنها نفس الحالة النفسية التي يمر بها المحكوم عليه بالإعدام، القلق والخوف قبل التنفيذ ولكن الهدوء يعود إلى نفسه عندما يدخل حجرة الإعدام، الهدوء وربما الذهول، ولكن النتيجة واحدة، وهي أن القلق لم يعُد له وجود في حياة هذا الإنسان.

وأنا بطبعي رجل قلِق لا أستطيع أن أعيش في مدينة واحدة طول العام، وأعشق السفر كتعبير عن حاجتي الشديدة إلى شيء مجهول! وأكثر الأصوات شجنًا إلى نفسي صوت باخرة تقلع من الميناء في الليل ويهزني بقسوة صفير قطار في الفجر، ودائمًا أتمنَّى لو كنت واحدًا من الذين يركبون فيه.

والسفر هو هوايتي الوحيدة ومتعة حياتي التي لا أشعر بتخمة منها، أشعر دائمًا أنني في حاجة إلى المزيد، وأنا من النوع الذي لا يهوى الفرجة على الآثار، ولا قضاء الوقت في المتاحف ولكن أحب الحياة مع الناس، ولي في كل بلد سافرتُ إليها أصدقاء وأحبَّاء أحنُّ إليهم وأشتاق إلى رؤيتهم وأتمنَّى أن أذهب إلى لقائهم بين الحين والحين.

وعلى طول ما لفِّيت وما نطِّيت في الداخل والخارج إلا أنني آسِف وحزين، لأني لم أذهب إلى بعض بلاد مصر التي أتمنى لو تُتاح لي ظروف زيارتها في وقت قريب، أنا مثلًا حتى هذه اللحظة لم أزُر مدينة المنيا، ولم أشاهد سوهاج إلا خلال نوافذ القطار، ولم يقَع بصري بعدُ على شاطئ السلوم، ولم أتفرَّج على واحة سيوة، والواحة الوحيدة التي زرتها هي الواحة الخارجة، وقد زرتها في ظروف أتمنى على الله ألا تعود! وأحَبُّ البلاد إلى نفسي هي الجيزة؛ لأنني عشت حياتي هناك، ولمنطقة القناة منزلة خاصة في نفسي وكذلك مسقط رأسي قرية قناطر القرنين منوفية، حيث أشعر نحوها بحنين دافق فياض.

ولا أكره في حياتي إلا رؤية المقابر ولقاء رجل أكرهه، ولا أشعر باحتقار في حياتي إلا للرجل الندل، أو لامرأة تخون بلا سبب، ولا أهتم في حياتي إلا بالطعام الجيد والملابس الفاخرة، ولكني لا أشعر بأي رغبة في اقتناء النقود ولا أسعى للحصول على شيء أتركه لأولادي إلا السُّمعة الطيبة والذِّكر الحسن.

ولقد تعلَّمتُ من تجربة حياتي أن الميراث لا يصنع الرجال ولكنها التجربة والرغبة في قهر الظروف السيئة، وأذكر أن زملائي في مدرسة الجيزة الأميرية قد نجح بعضهم في

الحياة وفشل بعضهم، ولكنَّ الفاشلين كانوا هم الذين يملكون عقارات وأموالًا طائلة، وأنا نفسي لم أرِث شيئًا إلا القهر والديون، ومع ذلك استطعت أن أخرج من مصيدة الحياة الضيقة!

شيء واحد فقط كان عليَّ أن أحقِّقه في عام ١٩٥٥، هو عضوية نقابة الصحفيين، وكان الأمر بالنسبة لي سهلًا، فأنا تتوافر لي كل الشروط وقدَّمتُ أوراقي وانتظرت، ولكن هذا الانتظار طال إلى عدة أعوام.

ودخلت من أجل هذا المطلب المتواضع معارك وخضت حروبًا وخلعت عددًا من أضراسي من شدة الهم والغم الشديد، ولكن لماذا حدثت كل هذه الوقائع والمعارك في سبيل أن أنال حقًّا مشروعًا لا ينكره عليَّ أحد؟ لهذا قصة طويلة، أحتفظ بها الآن وسأكشفها لكم عندما يحين الوقت لكتابة الجزء الثالث من مذكرات الولد الشقي.

والآن أختم هذا الجزء الثاني، وأرجو ألا أكون قد سبَّبتُ إزعاجًا، وإذا كان أحدهم قد صادف مللًا من هذه المذكرات ... فعذري أنني لم أقصد هذا العمل الرديء، كنت أريد أن أبسط أمامكم صفحات من حياتي لعلَّها تكون عظة أو عبرة أو دافعًا إلى الضحك في أوقات الظهيرة أو التثاؤب قبل النوم.

على أية حال، شكرًا لكم جميعًا ... الذين انبسطوا والذين شعروا بالضِّيق، شكرًا لكم لأنكم صبرتم على قراءة حياة مخلوق هايف لم يخترع قنبلة ذرية ولم يكتشف جرثومة السرطان ولم يحلِّق بصاروخ في الفضاء الخارجي، وأرجو أن ألتقي بكم قريبًا في الجزء الثالث من مذكرات الولد الشقي، فإلى لقاء قريب!

هنداوي